جامعة النجاح الوطنية
كلية الدراسات العليا

القمر في الشعر الجاهلي

إعداد
فؤاد يوسف إسماعيل اشتية

إشراف
د . إحسان الديك

قدمت هذه الأطروحة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في اللغة العربية بكلية الدراسات العليا في جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين.
2010م

القمر في الشعر الجاهلي

إعداد

فؤاد يوسف إسماعيل اشتية

نوقشت هذه الرسالة بتاريخ 2010/5/23م، وأجيزت.

أعضاء لجنة المناقشة	التوقيع
1. د. إحسان الديك / مشرفاً ورئيساً	....
2. د. جمال غيظان / ممتحناً خارجياً	....
3. أ. د. عادل أبو عمشة / ممتحناً داخلياً	....

الإهـــداء

إلى اللّذين ربياني صغيرا، وأفنيا زهرة شبابهما في سبيل الوصول بي إلى بر الأمان " أمي وأبي ".

إلى نصفي الآخر التي شاركتني هذا الحلم " زوجتي ".

إلى زهرتيّ، وفلذتيّ كبدي، ابنيّ " لؤيّ، وزين الدين".

إلى من يسري دمهم في عروقي " إخوتي وأخواتي ".

إلى رفقاء دربي على مقاعد الدراسة، وبخاصة: "(حسام سلمان) و(لافي زقوت)".

إلى كل الشموع التي احترقت لتضيء لنا درب الحرية، " الشهداء، والأسرى".

إلى روح من زرع فينا بذرة النضال، القائد الشهيد " أبو عمار".

أهدي هذه الأطروحة.

الشكر والتقدير

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبيه الأمين، وبعد:

أتقدّم بجزيل شكري وعظيم امتناني من الأستاذ والمربّي الفاضل: الدّكتور إحسان الدِّيك الذي تفضَّل مشكوراً بالإشراف على جزيئات هذا البحث، حيث بذل الكثير من وقته وجهده في سبيل متابعته، وإبداء النّصح والإرشاد، جزاه الله عني وعن طلبة اللّغة العربيّة كلَّ خير .

كما أتقدّم بالشّكر والامتنان من كلّ أساتذة جامعة النّجاح الوطنيّة، وبخاصّة أساتذة قسم اللّغة العربيّة، لما قدموه من جهد وتعب في سبيل تعليمنا ما لم نكن نعلمه في لغتنا العظيمة.

وختاماً، أتقدم بعظيم الشّكر من عضويْ لجنة المناقشة، اللّذين تفضّلا بقبول مناقشة رسالتي وإثرائها بآرائهم القيّمة.

الإقرار

أنا الموقع أدناه مقدم الرسالة التي تحمل العنوان:

القمر في الشعر الجاهلي

أقر بأن ما اشتملت عليه هذه الرسالة إنما هي نتاج جهدي الخاص، باستثناء ما تمت الإشارة إليه حيثما ورد، وأن هذه الرسالة ككل، أو أي جزء منها لم يقدم من قبل لنيل أية درجة علمية أو بحث علمي أو بحثي لدى أية مؤسسة تعليمية أو بحثية أخرى.

Declaration

The work provided in this thesis, unless otherwise referenced, is the researcher's own work, and has not been submitted elsewhere for any other degree or qualification.

Student's name:	**اسم الطالب:**
Signature:	**التوقيع:**
Date:	**التاريخ:**

فهرس المحتويات

القمر في الشعر الجاهلي

إعداد

فؤاد يوسف إسماعيل اشتية

إشراف

د. إحسان الديك

الملخص

يدور هذا البحث حول القمر في الشعر الجاهلي,إذ جاء في مقدّمة وثلاثة فصول وخاتمة، تحدّثت في المقدمة عن أسباب اختياري لهذه الدراسة، والهدف الذي رميت إليه من خلال هـذه الدراسة، إذ جعلت الفصل الأول في مبحثين، عرضت في المبحث الأول المكانة الدينيّة التي حظي بها القمر في الفكر القديم ومعتقدات السومريين والبابليين والآشوريين والفينيقيين والكنعانيين والمصريين واليونانيين والهنود والصينيين واليهود، فوجدتهم نظروا إليه نظرة تقديس، فغدا إلهاً متميزاً، توجّهوا إليه بالعبادة والطقوس وتقديم القرابين، كما ارتبط في أذهانهم ببعض المخلوقات، وبخاصة الثور، هذا بالإضافة إلى اكتسابه بعداً أسطوريًّا متميزًا .

ومن الجدير بالذكر، أن هذه الدراسة قد امتازت باتخاذ المنهج التكاملي منهجاً.

فقمت في هذا البحث بدراسة مكانة القمر الدينية عند الجاهليين، إذ لم أجد اختلافاً بين نظرتهم ونظرة الأمم التي سبقتهم إلى القمر، بل اكتشفت تشابهاً كبيراً بينهما يصل في كثير من الأحيان إلى درجة التطابق، وخلصت إلى أنّ خوفهم من القمر كظاهرة طبيعية متغيرة، كان أحد الأسباب الرئيسة لهذا التقديس، معتقدين أن ذلك قد يرضيه كإله، ويبعد ما يحمله لهم من شر متوقع .

كما تتبعت في هذه الدراسة مواضع ورود القمر في الشعر الجاهليّ، فوجدت أن كثيراً من الشعراء قد استثمروا عنصر القمر في كثير من أغراضهم الشعرية، كالمرأة والرثاء والمدح والهجاء

والفخر والحرب والحيوان، إضافة إلى معالجة أبرز المواقف التي تعامل فيها الشاعر الجاهلي مع القمر وارتباطه بهذه الأغراض .

كما وقفت على صورة القمر الفنية في أشعار الجاهليين. فوجدت أن الشاعر الجاهلي لجأ إلى الربط بين القمر وصوره التشبيهية والاستعارية والكنائية والحركية واللونية، إذ ساعده ذلك على إضفاء شاعرية فنية مميزة على صوره. كما أنني اكتشفت أن صور الشاعر الجاهليّ لم تكن صورًا تقليدية، ذات عناصر ثابتة، بل تعددت وتنوعت دون أن تخرج في إطارها العام عن طبيعة الصورة في الشعر الجاهلي .

كما تناولت في هذه الدراسة أبعاد صورة القمر الدينية والنفسية والاجتماعية، فوجدت أن القمر قد ترك ــ بأطواره المختلفة ــ أثرًا كبيرًا على صورهم المرتبطة بهذه الأبعاد .

ويبدو من هذه الأبعاد التي برز القمر من خلالها، أن الشعراء الجاهليين يعودون بوعي أو غير وعي إلى الربط في بعض الأحيان، بين تلك الأبعاد في بعض صورهم، فتتنوع دلالتها وتكتسب دلالة جديدة لأنها تدخل في بعد جديد له دلالته الخاصة ومنطقه الخاص .

ثمّ أبرزت ما توصلت إليه من نتائج في تلك الدراسة، ثم أتبعتها بقائمة المصادر والمراجع، مرتبة حسب الحروف الهجائية .

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبيه الأمين وبعد :

من الصعب على الإنسان أن ينسلخ عن تراثه، مهما طال به الزمان أو قصر. وتراثنا نحن العرب ــ غني بالظواهر التي تحتاج إلى الدراسة والعناية وإجلاء الغموض، وبخاصة تلك الظواهر التي يزخر بها الشعر الجاهليّ، ذلك الصرح العظيم الذي كان وسيظل غنيا، ويشكل مجالاً خصباً للبحث والدراسات المتعمقة في كثير من الجوانب والمواضع التي ما زالت بحاجة إلى الاستقصاء والدرس، كظاهرة القمر في الشعر الجاهليّ.

فالقمر ــ هذه الظاهرة الطبيعية التي وعاها الشاعر الجاهليّ ــ كان له حضوره في وعيه وشعره على الدوام. إلاّ أن ظاهرة القمر ــ على حضورها الفاعل في أشعار الجاهليين ــ لم تحظ بدراسة مستقلة عند الباحثين إلاّ من خلال بعض الدراسات المتناثرة في بطون الكتب، التي درست بعض جوانب القمر على هامش الموضوعات، لكنني حاولت الاستفادة من بعض الدراسات القيّمة التي قام بها أساتذة أجلاء، ككتب الأستاذ فراس السواح، "لغز عشتار الألوهة المؤنثة وأصل الدين والأسطورة, ومدخل إلى نصوص الشرق القديم, وموسوعة تاريخ الأديان" وكتب الأستاذ خزعل الماجدي" الدين السومري, و "الآلهة الكنعانية, و " المعتقدات الكنعانية" وكتاب" الصورة الفنيّة في التراث البلاغي عند العرب، للدكتور جابر عصفور، وكتاب " الشعر الجاهليّ قضاياه الفنيّة والموضوعية" للدكتور إبراهيم عبد الرحمن، وكتاب " الصورة في الشعر العربي حتى نهاية القرن الثاني الهجريّ, دراسة في أصولها وتطوّرها" للدكتور علي البطل، ثم البحث الذي قام به أستاذي الفاضل الدكتور إحسان الديك بعنوان" الوعل صدى تموز في الشعر الجاهليّ".

وكان الذي دفعني إلى اختيار هذه الدراسة ــ تحديداً ــ هو حبي للشعر الجاهليّ، وشغفي الشديد إلى معرفة كيف استطاع الإنسان القديم تأصيل القمر دينياً في فكره، ومعرفة أساس الصورة الشعرية التي استطاع الشاعر الجاهلي أن يستثمر القمر من خلالها. فكانت الرغبة حقيقية في استجلاء هذه الأفكار والصور, وتوضيح ما غمُض منها, فكان القمر في الشعر الجاهليّ هو موضوع هذه الدراسة.

وتهدف هذه الدراسة إلى إبراز الجانب الدينيّ والأسطوريّ للقمر، ودوره الفاعل في أشعار الجاهليين، وذلك فضلاً عن الثر الذي تركته صورة القمر في أشعار الجاهليين, وأبعادها

المختلفة, لعل هذه الدراسة تساعد في إدراك جانب من جوانب هذا التراث الأصيل، وتلقي الضوء على ما غمض منه .

ومن الجدير بالذكر, أن الفترة الزمنية المختصة بها هذه الدراسة, لا تقف عند حدود العصر الجاهلي الذي ينتهي بظهور الإسلام, بل تمتد إلى نهاية العصر الجاهلي الأدبي في صدر الإسلام. من هنا تكون هذه الدراسة اشتملت على بعض شعر المخضرمين في صدر الإسلام, والذين اكتملت قريحتهم الشعرية في ظل الجاهلية, باعتبار شعرهم امتداداً للحياة الأدبية الجاهلية.

هذا، وقد ارتأيت أن يكون هذا البحث في ثلاثة فصول:

تناولت في المبحث الأول من الفصل الأول النظرة الدينية التي كانت توليها الحضارات القديمة للقمر، ومكانته الدينية، أما المبحث الثاني فقد تناول القمـــر كمعبـــود عنـــد الجـــاهليين، وارتباطه بما أفرزته عقولهم من معتقدات وأوهام، وما اقترن به من تقاليد دينية عندهم .

أما الفصل الثاني، فقد وقفت من خلاله على مواضع ورود القمر في الشعر الجاهلي، فقمت بتحليل علاقة القمر بهذه المواضع، فتحدثت عن القمر والمرأة، والقمر والرثاء، والقمر والمدح، والقمر والهجاء، والقمر والفخر، والقمر والحرب، والقمر والحيوان .

وقسمت الفصل الثالث مبحثين: خصصت المبحث الأول لدراسة صورة القمر دراسة فنية، فاهتممت بإبراز وسائل رسم تلك الصورة، وكيف كان القمر ملهماً للشعراء في رسم صورهم البديعة من خلال: التشبيه والاستعارة والكناية واللون والحركة .

وفي المبحث الثاني من الفصل الثالث، تناولت الأبعاد الدينية الكامنة وراء صورة القمر، من خلال بعض الصور ذات الطابع القدسي، كالملك، والثور، والمرأة، ... .

وفي البعد النفسي تحدثت عن الشعور النفسي التي تخلفه صورة القمر في الشاعر الجاهلي، كالتفاؤل والتشاؤم والسعادة والخوف، كما تطرقت إلى أثر تلك الصورة على الحيوان أيضا .

أما البعد الاجتماعي، فقد تناولت فيه المكانة الاجتماعية لمن يشبهون بالقمر كالممدوح والمحبوبة، كما تحدثت عن بعض العادات الاجتماعية المرتبطة بصورة القمر، كالكرم والبخل .

والله وليّ التوفيق.

الفصل الأول

القمر في الموروث الإنسانيّ

المبحث الأول: القمر في الموروث الإنسانيّ القديم.

المبحث الثاني: القمر في الموروث العربيّ القديم .

المبحث الأول

القمر في الموروث الإنسانيّ القديم

منذ أن خلق الله الإنسان على الأرض، اتّجه عقله إلى الظواهر الطبيعية المحيطة به، فوقف متأملا حائرًا في مظاهر الكون العجيبة من حوله يحاول تفسيرها، فرفع رأسه إلى السماءــ باعتبارها مركزًا ومصدرا لهاــ مراقباً حركة أجرامها، وسير شمسها وقمرها، وتتابع ليلها ونهارها، فكان طبيعياً أن يكون إحساسه بها من حوله إحساساً عميقاً .

ووقف الإنسان ضعيفاً عاجزاً أمام هذه الظواهر، لعدم قدرته على التحكم بها، ولاعتقاده بأنها تسيطر على مجريات حياته بخيرها وشرها، فولدت عنده"الشعور بالتصاغر والضعة أمامها، فهي تحيط به، وتسيطر على مشاعره، وهكذا انبثقت الأديان من هذا الشعور[1]. فوجد أنه لا بد له من أن يتقرب لها، اتقاء لشرها وجلبا لخيرها، فعبدها جاعلاً لها آلهة مقدسة يعبدها . فعبد الشمس والقمر والزُّهرة وبقية الكواكب الأخرى، و تربع القمر على رأس هذه المعبودات وبلغت هذه العبادة درجة التعظيم" فعظم الإنسان الشمس ولكنه لم يجد فيها نداً للقمر، لم تترك في نفسه من العجب والتساؤل ما تركه القمر" [2].

ولعلّ غلبة هذا التعظيم تعود إلى أن"الشمس تشرق كل يوم في نفس المكان وتغرب في مكان محدد آخر في حركة منتظمة، أما القمر فكل يوم هو في شان، يشرق اليوم من مكان وغدا من مكان آخر، فهو لا يستمر على حال، وهذا واضح من خلال أطواره المختلفة، يبدأ هلالا نحيلا ًثم يأخذ بالامتلاء والاكتمال والتزايد حتى يستدير محيطه، ويتوسط السماء بدراً جميلا ً مشعاً، ثم ما يلبث أن يتضاءل حتى يختفي تماماً آخر الشهر"[3].

وترك الليل بظلمته أثراً مخيفاً في نفس الإنسان القديم، فكان يرى في القمر الذي يبدد هذه الظلمة والخوف منها سيداً لليل وإلهاً يستحق العبادة.

---

[1] الهاشمي، طه: **تاريخ الأديان وفلسفتها**. ط1, بيروت، دار مكتبة الحياة، 1963, ص73 .

[2] السواح، فراس: **لغز عشتارالألوهة المؤنثة وأصل الدين والأسطورة**، ط 6، دمشق, دار علاء الدين، 1996, ص63.

[3] المرجع السابق، ص64.

" كان الليل بالنسبة للإنسان القديم هو الأصل والنهار هو الفرع، الليل هو الأزلي والنهار هو الحادث، فكانت أولية الليل على النهار تستدعي أولية القمر سيد الليل على الشمس، وأسبقية الديانات القمرية على الديانات الشمسية، وفي معظم الثقافات كانت الميثولوجيا القمرية سابقة على الميثولوجيا الشمسية"(1).

اعتقد **العراقيون** القدماء بوجود قوى وأرواح كامنة في المظاهر الطبيعية المختلفة، فجسدوها على هيئة آلهة، كان لها التأثير الأكبر في حياتهم. فكانت السماء إلهاً، والأرض إلهاً، والشمس إلهاً، والقمر إلهاً، والنجوم آلهة، وهكذا.

وقد احتلّ القمر مركزًا أسمى من مركز شمش أو عشتار، إذ كانوا يعتقدون أن شمش هو ابنه ونجمة الزهرة عشتار ابنته(2).

ولم يحتل هذه المكانة في ديانتهم من قبيل المصادفة؛ فقد اتصف بصفات عديدة أهلتـــه لذلك، فعدّوه أعظم الكواكب وإيحاءاته أعظم الإيحاءات، ، وضوؤه خيراً في الليل، حيث يقـــود القوافل في الليالي الندية، كما أن وهجه لا يميت، وليس بلا رحمة كوهج الشمس، وذلك فضـــلا عن كثير من التنبؤات التي يؤديها للآلهة والبشر(3).

وأدت هذه المكانة إلى اهتمامهم بعلم الفلك، ومتابعة أحوال الكواكب والنجوم، وبخاصة الشمس والقمر، وقد أدى بهم ذلك إلى النظر إليها كآلهة، فتوجهوا إليها بالعبادة والتقديس، لعلهـــا تعود عليهم بالخير والنفع، وتذهب عنهم شرها المرتقب.

عبد **السومريون** "ننا" واعتبروه إلهاً للقمر، وأحد أعضاء الثالوث السومري المكون من " إله الشمس "utu" و"إنانا" إلهة الحب والخصب التي تقابلها عشتار عند البابليين(4).

---

(1) السواح، فراس: **مدخل إلى نصوص الشرق القديم**، دار علاء الدين، دمشق، سوريا، ط1، 2006، ص203 .

(2) يُنظر: لابارت، رينيه، وآخرون: **سلسلة الأساطير السورية**، ترجمة مفيد عرنوق، ط2، دمشق، دار علاء الدين، 2006، ص329.

(3) يُنظر: المرجع السابق، ص329 .

(4) يُنظر: علي، فاضل عبد الواحد: **عشتار ومأساة تموز**، ط1، دمشق، الأهالي للطباعة والنشر، 1999، ص22.

وكان الإله "ننا" اكبر أبناء " Enlil" إله الجو " الذي أنجبه سفاحاً بعد اغتصابه الصبية المقدسة"Nenkal" [1]. إلهة القمر السورية.

واتخذ إله القمر عندهم شكلاً مميزاً، فمثلوه في كتاباتهم جالساً على عرش، ذا لحية تتدلى على صدره، حاملاً بيده فأساً؛ والصولجان رمز الملوكية، فضلاً عن العمامة ذات أربعة أزواج من القرون التي يتعمم بها، والتي نقش عليها الهلال رمز القمر[2].

ورمزوا للإله" نانا" إله القمر" بهلال في وسطه نجمة ذات اثني عشر شعاعاً، ستة من الأشعة على شكل مدبب، والستة الأخرى على شكل شريط شعاعي مكون من ثلاثة خطوط والعدد الرمزي للإله نانا هو "30" وهو يشير إلى أيام الشهر الذي كان يقاس بدورة القمر الشهرية، ويشير إلى فكرة جعله مصدراً للتاريخ والزمن [3] .

وصار القمر مقياساً للتقويم السومري، ولم تؤخذ الشمس في ذلك لثباتها الدائم، على الرغم من تفوقها عليه في الحجم، وهذا يعود إلى اعتماد الناس قديماً على الشهر القمري في التقويم، فهم يقدمون الليل على النهار في توقيتهم، والقمر كما هو معروف يظهر بأطواره المختلفة، فيكون هلالاً ومن ثم قمراً وأخيراً في المحاق وهكذا، .... وهي ظواهر طبيعية وظفها الإنسان منذ أقدم العصور، في تحديد التقويم الشهري ثم السنوي[4] .

وورد في أساطيرهم ما يؤكد بقاء التقويم القمري الأداة الوحيدة التي استخدموها في حساب الوقت وترقب حركة الفصول، فها هو الإله "مردوخ" بعد قتله الأم الكبرى في أسطورة التكوين البابلية يؤكد سيطرته على القمر ويأمره أن يبقى مقياسا للوقت :

"ثُمّ أخْرَجَ القَمَرَ، فَسَطَعَ بِنورِهِ، وأوْكَلَهُ باللّيل

وَجَعَلَهُ حِلْيَةً وزينَةً وليُعَيِّنْ الأيَّام

أنْ اطْلَعْ كُلّ شَهْرٍ دونَ انْقِطاعٍ مُزَيَّناً بِتاج

---

[1] صالح، عبد العزيز: **الشرق الأدنى القديم**، ج2, مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، مصر، 2004، ص617 .

[2] يُنظر لابارت، رينيه، وآخرون: **سلسلة الأساطير السورية**، ص329 .

[3] مجموعة من كبار الباحثين: **موسوعة عالم الأديان**، بإشراف ط . ب مفرج, ج2، بيروت, دار nobilis، ص120.

[4] يُنظر: علي، فاضل عبد الواحد: **الشمس والقمر والزهرة في ضوء النصوص السومرية والبابلية**، مجلة الأقلام، بغداد, العدد2، 2000 \ 63 .

وفي أولِ الشَّهْرِ عندما تُشْرِقُ عَلى كُلِّ البِقاع

سَتَظْهَر بقَرْنَين بِعَيْنَيْن، سِتَّة أيَّام

وفي اليَومِ السّابِعِ يَكْتَمِلُ نِصْفُ تاجِكَ

وفي المُنْتَصَفِ مِنْ كُلِّ شَهْر سَتَغْدو بَدْراً في كَبِد السَّماء"[1]

وقد كانوا حريصين على تمثيل شهور السنة القمرية بأبراج السماء الإثني عشر وأسموها منازل القمر[2] .

وقد ورد في قصيدة التكوين البابلية في اللوحة الخامسة ما يدلل على ذلك، حيث قام الإله مردوك ــ كبير الآلهة البابليةــ بإعطاء الإله" نانا" دوراً عظيما في السماء من خلال توكيله بالزمن:

ثُمَّ جَعَلَ نانا القَمَرَ يَظْهَرُ

وَعَهِدَ إليه باللّيْل

الّذي عيَّن لَهُ الجَوْهَرَةَ اللّيليّة

لتَحْديدِ الأيّام

في كُلِّ شَهْرٍ قال له وبدون انقِطاع

فَلْيَمْضِ قُرْصُكَ في مسيرَتِه

في الأولِ مِنْ الشّهْرِ

أضِئْ بنَفْسِكَ فَوْقَ الأرْض

ثُمّ حافِظْ على قَرْنَيْكَ الّلامعين

للإشارة إلى الأيّام السّتَّة الأولى

وفي اليوم السّابِعِ يَجِبُ أنْ يَكونَ قُرْصُكَ في نِصْفِهِ

وفي اليوم الخامِسِ عشِر، وفي كُلّ مُنْتَصَفِ شَهْر

---

[1] السواح: **لغز عشتارالألوهة المؤنثة وأصل الدين والأسطورة**، ص93 .

[2] يُنظر: المرجع السابق، ص93 .

ضَعْ نفسَك في اقتِرانٍ مَعَ شيمِش"[1].

وهذان النصان يحملان بين طياتهما من الدلالات والمعاني، ما يشي بالقدرة الهائلة التي امتاز بها، ويعكسان الصورة المثالية التي كانوا يرونها له، والتي كانت من الـــدوافع الأساســـية لتقديسه والنظر إليه كإله .

ومن المظاهر الأخرى التي تؤكد سيطرته المطلقة على الزمن، النظر إليه كخالق وســـيد للزمن، ورب للفصول التي هي نتاج لدورته الشهرية [2] .

واتخذوا له معابد خاصة، منها: معبد أور المسمى "اكيشنوكال"، ومعبد "الهلهول" لابنـــه الإله "نوسكو" إله الضوء والنار [3], وكانت تقام فيها الأعياد والاحتفالات الخاصة، التي اقترنـــت به، وبخاصة في الأيام المقدسة، كاليوم الأول من الشهر القمري، وقت ولادة القمر الجديد، ويوم اكتماله في شهر شباط، ويوم اختفائه في تموز[4] .

وحذا **البابليون** حذو السومريين في عبادتهم للقمر، فسموه "سين"، وخصصوا له معبداً كبيراً في مدينة حرّان، في حكم الملك البابلي"نبونئيد" الذي شغلت أمه "أدد ـــ كوني" منصب الكاهنة العظمى لهذا المعبد الذي عرف باسم "أي خلخل" وقد عثر في هذه المدينة على مسلتين حجريتين أقامهما الملك لذكراها كتب على كل منهما نصّ بابلي متشابه المضمون ويسجل منجزات الكاهنة ويؤكد على إيمانها وإخلاصها لعبادة إله القمر [5] .

كما كرس هذا الملك ابنته كاهنة عظمى للخدمة في معبد إله القمر في أور، واكتشف مخروط بالقرب منها حمل كتاب التكريس، وفيه :

سَألْتُ للمَرَةِ الثّالِثَةِ والنِّيابَة عَن ابنَتي

وبَعدَ أنْ أتَمَتْ طُقوسَ العَرافَةِ وأعْطَتْني جَواباً مُرْضِياً

---

(1) الشواف، قاسم: **ديوان الأساطير، سومر وأكاد وآشور، الآلهة والبشر**، ط1، بيروت، دار الساقي، 1997، ص171.

(2) يُنظر: السواح، **لغز عشتارالألوهة المؤنثة وأصل الدين والأسطورة**، ص82 .

(3) يُنظر: الماجدي، خزعل: **الدين السومري**، ط1، عمان، دار الشروق، 1998، ص77 .

(4) يُنظر: مجموعة من كبار الباحثين, **موسوعة عالم الأديان**، ص133.

(5) يُنظر: علي، فاضل عبد الواحد: **الشمس والقمر والزهرة في ضوء النصوص السومرية والبابلية**، مجلة الأقلام، 2، 2000 \ 65 .

مَجَدْتُ كَلِمَةَ الإلهِ سين السّيِّدَ الجَليلَ الإله خالقي

وأوامرَ الإلهِ شمش وادِدْ وآلهةَ العرّافين

كَرَّسْتُ ابْنَتي لِتَكونَ آلِهَةً عُظْمى

وإني سميتها"بل سنتي ننا" "[1].

كما قام الملك بإعادة إعمار هذا المعبد، مما يدلل على الاهتمام العظيم به [2] .

وكرس الملك سرجون مؤسس السلالة الأكادية ابنته " انخيدوانا " لهذا الإله في المعبد نفسه [3].

وأضفى الاهتمام الملكي بهذه المعابد على القمر بعداً دينياً خاصاً، وأكسبه مكانة وشعبية ميزتاه عن سائر آلهتهم .

وكانت فكرة مسؤولية القمر عن نفخ الحياة في البذور الجامدة، وإرسال مياه المطر، وتوزيع الندى، وتفجير الينابيع فكرةً ميثولوجية شائعة في جميع الثقافات [4].

وقد شقت هذه الفكرة طريقها إلى معتقداتهم، فاعتقدوا بقدرة إله القمر على الخلق، واختيار الملوك، وتعيينهم، والسيطرة اللامتناهية على الأرض والبشر[5] ، وبدا هذا جلياً في إحدى الأناشيد الموجهة إلى الإله "سين" :

" يا سَيِّدَ و يا أميرَ لآلهةِ الذي هُوَ وحْدَهُ الأكْبَرُ في السّماءِ وعلى الأرْضِ

الأبُ نانار السّيِّدُ سين أمير الآلهةِ

الأب نانار سيدُ أور، أمير الآلهةِ

... خالقُ البلادِ وبانيَ الأماكنِ المُقَدَّسَةِ التي أنْتَ تُسَمّيها

الأبُ مُوَلِّدُ الآلهةِ والبشرِ، يَؤْويهِمْ ويُحَدِّدُ لهم القَرابينَ

إنَّهُ يُعَيِّنُ المُلوكَ ويُسَلِّمُهُم الصَّوْلَجان ويُحَدِّدُ أقْدارَهُم حتّى آخرِ الأيّامِ

---

[1] يُنظر: علي، فاضل عبد الواحد: **الشمس والقمر والزهرة في ضوء النصوص السومرية والبابلية**، مجلة الأقلام، 2، 2000 \ 66 .

[2] يُنظر: علي، فاضل عبد الواحد: **من سومر إلى التوراة**، ط2، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، 1996، ص151.

[3] يُنظر: علي، **الشمس والقمر والزهرة في ضوء النصوص السومرية والبابلية**، مجلة الأقلام، 2، 2000 \ 66 .

[4] يُنظر: السواح، **لغز عشتار, الألوهة المؤنثة وأصل الدين والأسطورة**، ص83.

[5] يُنظر: المرجع السابق، ص83.

... وإذْ تَظْهَرَ أنت على الأرضِ فإنَّ النّباتات تنمو

إنَّ كلامَكَ يُسَمِّنُ الأسْوارَ والحَظائِرَ فتَتَأَثَّرُ الأحياءُ

... إيه أيُّها السَّيِّدُ ليسَ لَكَ مِنْ مُزاحمٍ عَلى سِيادَتِكَ في السَّموات

وعلى هَيْمَنَتِكَ على الأرْضِ فَمِنْ بين الآلِهَةِ إخْوَتِكَ ليس لك مِن مُزاحم " [1] .

وقد انعكست علاقة القمر بالخصب عند البابليين في أعمالهم التشكيلية، فأظهرته رسوم كثيرة مع الشجرة ـــ التي ترمز للخصب ـــ يندمجان في وحدة تشكيلية جمالية [2] .

كما ربط البابليون قوة الإخصاب عند الثور بقوة القمر، حيث ارتبطت منازله المتغيرة بطقوس الزراعة والخصب، فقد رأوا في قرنيّ الهلال المشابهة لقرنيّ الثور قوة في الإخصاب[3].

ومن المهام التي أوكلت إلى إله القمر"سين"، حماية مدينة (أور) التي كان كبير آلهتهـــا، وكان الناس فيها شديدي الحرص على إرضائه والتقرب منه، من خلال ما يقدمون بين يديـــه من القرابين والنذور والهدايا، كما دأبوا على أداء الطقوس الدينية في معبده بما يـــتلاءم مـــع خصائصه، بغية أن تكون المدينة في سلام وأمان وخير عميم [4] .

درج الإنسان على نسبة ما يصيبه من خير أو شر إلى الظواهر الطبيعية، من هنا أسند البابليون ظروف حياتهم بخيرها وشرها، بحزنها وسعادتها، إلى مجموعة الآلهة الفلكية (سين، وشمش، وعشتار)، فنسب لها "الأحداث السعيدة والسيئة التي تحصل في البلاد مثل الحملات الحربية والغزوات ومرض الأمير أو موته والقحط والفيضان " [5]. وارتبط كثير من هذه التفسيرات التشاؤمية باختفاء القمر وظهوره، فهو لا يظهر في أول الشهر دائما، ويختفي أحيانا

---

[1] لابارت، رينيه وآخرون: **سلسلة الأساطير السورية**، ص332 .

[2] السواح: **لغز عشتارالألوهة المؤنثة واصل الدين والأسطورة**، ص82 .

[3] يُنظر: المطلبي, عبد الجبار, **مواقف في الأدب والنقد:** ط1, بغداد, دار الرشيد, 1980, ص94 .

[4] يُنظر: الشمس، ماجد عبد الله: **الإله والإنسان وأسرار جنائن بابل**، ط1، دمشق، دار علاء الدين، 2006م، ص43 .

[5] دلو، برهان الدين: **حضارة مصر والعراق، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي والثقافي والسياسي**، ط1، بيروت، دار الفارابي، 1989، ص387 .

في اليوم السابع والعشرين، وأحيانا في اليوم الثامن والعشرين [1]. فقاد هذا التفكير الإنسان إلى الربط بين هذه الأحداث السيئة وأطوار القمر الطبيعية .

انعكست أهمية علم الفلك عند البابليين على الدين والميثولوجيا، حيث أوكلت متابعة حركة الأجرام السماوية إلى رجال الدين [2]، وبخاصة من يخدمون معبد إله القمر.

وكانت ظاهرتا الكسوف والخسوف من أكثر الظواهر التي استرعت اهتمام البابليين "وكانوا يرغبون كثيرًا في أن تحمل تلك الظواهر بشرى خير وسعادة لهم ولمدينتهم ؛إلا أنهم تنبأوا أيضا بأن تحمل لهم إنذارا بقرب تعرض مدينتهم لغزو الأعداء، أو لموجة جفاف، أو لمجاعة، أو لاجتياح وباء " [3] .

وكان خسوف القمر من الظواهر التي تشاءم بها القدماء، إذ اعتقدوا أن أرواحاً شريرة تهجم عليه فتحجبه، وقد ورد في كتاباتهم ما يؤكد ذلك؛ لذا كانوا يصلون للآلهة وقت الخسوف، ويقربون القرابين حتى يظهر مضيئاً مرة أخرى، بعد أن يقهر الشياطين والموت ويتغلب عليهما[4]، وتظهر مقطوعة بابلية صلوات ملكية، كانت ترفع إلى الإله سين لتبعد الشقاء الذي كان ينبئ به الخسوف:

"أيّ سين .. ذو النُّورِ الوهّاجِ
سينُ المُتَجَدِّدُ باستمرار أنت الذي تُنيرُ اللّيل
وتَمْنَحُ الضِّياءَ للبشَرِ العائشين تَحْتَ الغُيومِ
وتَمْنَحُ نورَكَ السَّاطِعَ لذوي الرُّؤوسِ السَّوْداءِ
يَسْجُدُ لك الآلهةُ الكِبارُ
وفي البُؤْسِ الذي يَدُلُ عليْهِ الخُسوفُ في أيِّ يومٍ وشَهْرٍ قَدْ حَدَثَ

---

[1] يُنظر: ديلابورت، ل: **بلاد ما بين النهرين**، ترجمة محرم كمال وعبد المنعم أبو بكر، ط1, القاهرة، المطبعة النموذجية، (د.ت) ص189 .

[2] يُنظر: توكاريف، سيرغي: **الأديان في تاريخ شعوب العالم**، ترجمة أحمد فاضل، ط1, القاهرة, الأهالي للطباعة والنشر، 1998، ص344.

[3] ميغوليفسكي، ا. س: **أسرار الآلهة والديانات**، ترجمة حسن ميخائيل اسحق، ط2, دمشق، دار عــلاء الــدين، 2006، ص26 .

[4] باقر، طه: **مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة**، ج1، ط2، بغداد, شركة الطباعة والتجارة، 1955، ص251.

وفي الشَّقاءِ الذي تُنْبِئُ به العَلاماتُ الصالحةُ والرَّديئَةُ
تِلْكَ العلاماتُ التي تَظْهَرُ في قَصْري وفي بِلادي
فالآلهةُ تَسْأَلُكَ حتّى تُجيب
إنَّهم، عند قَدَمَيْكَ، يَتَبادَلون الرَّأيّ

....

وها أنا راكِعٌ أتَطَلَّعُ إليْكَ
فاسْكُبْ عَلَيَّ بَرَكَةً صالحةً
فَهَلْ يُمْكِنُني أنْ أعرفَ عُقوبتي وأتطهرَ مِنها
هكذا سأُسَبِّحُ باسْمِكَ إلى الأبدِ " (1)

وما زالت هذه المعتقدات قائمةً عند بعض الشعوب، حيث تقام الاحتفالات الشعبية، بدلاً من الصلوات والأدعية، لمساعدته في الخلاص من الشياطين والأرواح الشريرة، وفي بعضها الآخر، يأخذ الناس في الصياح، وفي تقليد أصوات بعض الحيوانات، ويقوم بعضهم بإطلاق النار باتجاهه (2) .

ومنهم من يعتقد أن الحوت يبتلع القمر فــ "يخرج الأطفال في الليل، قارعين على التنك، وصارخين :**يا حوت دشر قمرنا** "(3) .

ويمتاز الإله عادة بالقوة والقدرة على استجلاب الخير والبركات وغفران الخطايا، وهذا ما جسده البابليون في إله القمر، فاعتقدوا أنه يساعد المرأة في مخاضها ووضعها، ويظهر ذلك في إحدى الرقيات المرفوعة إليه لمساعدة إحدى النساء على الولادة:

" **وسَمِعَ سينُ صُراخَها في السَّماواتِ فَرَفَعَ يَدَهُ إلى السَّماءِ: وإذا بِمَلاكَيْن**
سَماوِيَّيْنِ يَنْزِلان، الواحدِ يَحْمِلُ بيدِهِ وِعاءَ الزَّيْتِ
والآخرِ يُنْزِلُ ماءَ الخَلاصِ

---

(1) لابارت: **سلسلة الأساطير السورية**، ص333، 334.

(2) يُنظر: العنتيل، فوزي: **الفلكلور ما هو ؟**، ط2، بيروت, دار المسيرة، 1987، ص126.

(3) الخليلي، علي: **مدخل إلى الخرافة العربية**، ط1، نابلس، مطابع الاقتصاد، 1982، ص81 .

مَسَحَ الأولُ جَبينَها بالزَّيْتِ

والآخرُ نَضَحَ جَسَدَها بِماءِ الخَلاصِ

....

وَهكذا ولَدَتْ "جيمي سين" * بِصورةٍ طَبيعِيَّة " [1].

وكانت الاحتفالات والأعياد من الوسائل المهمة التي تقربهم منه، فكانوا يحتفلون بالعيد القمري الشهري في الثالث عشر من كل شهر، حيث يؤدون طقوساً خاصة وصلوات موجهة إليه، مبدين خلالها الطاعة والخضوع وطلب الغفران:

في حَضْرَتِكَ يَنْحَنِي الآلهةُ الكِبارُ

وأمامَكَ تُبْسَطُ قِراءاتُ كُلِّ البِلادِ

إنَّني أرْكَعُ أمامَكَ، وأُبقي هذه الحالُ أطْلُبُ وَجْهَكَ

عساكَ تَسْتَجيبُ لرَغَباتِي في العَدْلِ وهناءَةِ العَيْشِ

عسايَ في اللّيل أسْمَعُ غُفْرانَ ذُنوبِي [2].

تعددت آلهتهم، وظهرت من بينها "**عشتار**" التي عدت ابنة للإله القمر في الميثولوجيا البابلية، ولكونها إلهة قمرية، كانت تلقب نفسها بملكة السماء، وهو من الألقاب التي لازمتها طيلة حياتها[3].

وكانت الحيوانات المشهورة بالإخصاب الجنسي ذوات القرون رمزاً لإله الخصب الذكر (القمر) في العائلة الدينية القديمة، وكانت أيضاً رمزاً لآلهة الخصب والفداء عموماً، حيث كان الثور والتيس ممثلين للآلهة القمرية[4] .

---

* جيمي سين: هذه خادمة سن .

(1) لابارت: **سلسلة الأساطير السورية**، ص335 .

(2) يُنظر: السواح: **مدخل إلى نصوص الشرق القديم**، ص247.

(3) يُنظر: السواح: **لغز عشتار الألوهة المؤنثة وأصل الدين والأسطورة**، ص209 .

(4) يُنظر: الديك ,إحسان: **الوعل صدى تموز في الشعر الجاهلي**, مجلة جامعة القدس المفتوحة, عدد2, 2002\ 40.

ومن الرموز التي وجدت، و جسدت العلاقة بين عشتار وبين القمر قرنا البقـــرة وقرنـــا الهلال، حيث ظهرت في الرسومات والمنحـــوتات القديمة وعلى رأسها قرنـــان علـــى شـــكل هلال[1] .

ويبدو أن علاقتها بالقمر كانت من الأسباب التي أكسبتها بعداً دينياً كبيراً في الديانة البابلية .

ومن الواضح أيضاً أن علاقتهما قد تركت تأثيراً كبيراً في حياة الإنسان البابلي، ويتجسد ذلك في اعتقادهم، بأن أطواره المختلفة هي التي تحدد الخير والشر الواقع عليهم، ففي طور القمر الأول عندما يرتفع الهلال فوق الأفــق الشرقي آخذا بالتزايد حتـــى الاكتمال، تدير عشتار وجهها نحو العالم المضيء وجه الحياة والحب والخصب، وفي طوره الآخر عندما يأخذ بالتناقص، منحدرا نحو الأفق الغربي تدير وجهها الآخر، فترسل الأمراض والأوبئة الفتاكة والعواصف المدمرة "[2] .

واقترنت حياة المرأة الفيزيولوجية بالطبيعة القمرية، فهي مرتبطة بدورة شهرية معادلة لدورة القمر، وهذا التناغم ما بين الدورتين لاحظه القدماء وفطنوا إليه[3] .

وقد دفع هذا الاعتقاد سكان بلاد الرافدين إلى اعتبار" تمام البدر يوماً تحيض فيه عشتار وتستريح من كل أعمالها، لذا فقد ارتبطت بهذا اليوم مجموعة من المحرمات كالشروع في السفر، وأكل الطعام المطبوخ، وإشعال النار، وهي الأمور التي تستريح منها المرأة الحائض"[4].

ولم يقتصر هذا الاعتقاد على بلاد الرافدين، وإنما صار فكراً أسطورياً عالمياً، فنجد أن القمر هو مصدر الخصوبة عند النساء[5].

---

(1) يُنظر: الديك, إحسان: **الوعل صدى تموز في الشعر الجاهلي**، ص71.

(2) السواح: **لغز عشتار الألوهة المؤنثة وأصل الدين والأسطورة**، ص209.

(3) انظر: القمني، سيد: **الأسطورة والتراث**، ط3، القاهرة، المركز المصري لبحوث الحضارة، 1999 ، ص303 .

(4) السواح: **لغز عشتار الألوهة المؤنثة وأصل الدين والأسطورة**، ص76 .

(5) يُنظر : يحيى، احمد إسماعيل، **الحية في التراث العربي**، ط1، صيدا, المكتبة العصرية، 1997، ص186.

وصورت الأساطير العالمية الأولى القمر " إلهاً محباً للنساء، عبدنه لأنه حاميهن بين الآلهة "[1].

فكل شعب قديم نظر إلى القمر نظرة تحمل في طياتها تلميحات جنسية أو إشارات إخصاب فهو يمثل الحياة الكونية للمرأة القمرية، فظهوره يؤثر سلباً على الغريزة الجنسية لدى المرأة، التي ما تلبث أن تتفاعل مع اكتماله[6] .

وقد انعكست هذه المعتقدات على بعض الممارسات النسائية في التراث العالمي، ففي أوروبا كانت " العذارى كن يذهبن إلى الحقول عند بزوغ الهلال. ويغنين له وهن شاخصات إليه.

ثم يتوقعن بعد ذلك أن الزوج المنتظر سيظهر للواحدة منهن في منامها " [1].

ولم يقتصر ذلك على المرأة، بل تعداها إلى اللغات الحديثة حيث نجد " في اللغة الإنجليزية كلمة"Menstruation " الدالة على الطمث، وتعني في أصولها اللغوية، التغير القمري، وفي ألمانيا يطلق الفلاحون في بعض المناطق على فترة الطمث بشكل مباشر اسم القمر " [2] .

بقي **الآشوريون** متمسكين بإله القبيلة السابق "آشور" على الرغم من أن " الآلهة هم نفسهم آلهة بابل .لكن السمة النوعية هو تفوق الإله السابق لقبيلة آشور، وكانت مهامه الأولية ــ كأب وحام للقبيلة ــ زراعية، ومن ثم صار إلهاً للحرب والنصر. وفي أثناء الحملة الحربية تحمل رايات لتمثاله أو رسمه، وأثمن نصيب من الغنائم يذهب لمعابده[3].

ولكن، وبالرغم من سيطرة الإله "آشور" على مجمع آلهتهم، إلا أن عبادة القمر وجدت طريقها إليهم، لكن تأثير الديانة السومرية وهيمنة آلهتهم بدا واضحاً تمام الوضوح على عبادتهم

---

[1] ديورانت، ول: **قصة الحضارة**، ج1، ص102.

[6] يُنظر: نعمة، حسن: **ميثولوجيا وأساطير الشعوب القديمة**، بيروت، دار الفكر اللبناني، 1994، ص33، 34 .

[1] العنتيل: **الفلكلور ما هو ؟** ص126 .

[2] يُنظر: السواح: **لغز عشتار الألوهة المؤنثة**، ص76 .

[3] ياكوف، ف. د، وآخرون: **الحضارات القديمة**، ترجمة نسيم واكيم اليازجي، ج1, ط2، دمشق، دار علاء الدين، 2006، ص188 .

له، فقد تكررت صورة إله القمر"نانا" كمعبود رئيس في مجمع آلهتهم، حيث توجهوا له بالدعاء والتعظيم.

ولعل خير ما يؤكد هذا، وجود ترتيلة آشورية منقوشة بالسومرية عثر عليها في موقع مدينة نينوى الآشورية، يظهر فيها إله القمر باسمه السومري "نانا"، وهذه الترتيلة تطابق بين إله القمر وعدد من الآلهة الرافدية الكبرى:

....

أيُّها الرَّبُ "نانا"الـــرَّبُّ "سِن" بطلُ الآلـــهةِ

أيُّها الرَّبُ "نانا " ربُّ مدينةِ أور بطلُ الآلهةِ

....

أنتَ منْ أسَّسَ المُلوكيَّةَ ووَهَبَ الصَّوْلَجانَ

أنتَ مَنْ يُقَرِّرُ المَصائرَ إلى نِهايةِ الأزْمانِ

شُعاعُكَ يَنْطَلِق ُمِنْ قاعدةِ السَّماءِ إلى ذُرْوَةِ الصَّمْتِ

مَنْ المُبَجَّلُ في السَّماءِ أنْتَ وَحْدَكَ المُبَجَّلُ.

مَنْ المُبَجَّلُ في الأرضِ أنتَ أنتَ وحْدَكَ المُبَّجَلُ (1) .

كما اتخذوا قرني الثور رمزاً للقمر في كتاباتهم ورسوماتهم الدينية، حاذين بذلك حذو السومريين، حيث "بدت صورة الهلال المضيء في الأساطير الآشورية في هيئة زورق، مقدمه ومؤخره على شكل قرنين حادين، وقد أخذ يخرق وسط السماء، كزورق فوق المياه "(2).

وكانت فكرة تسمية الملوك بأسماء الآلهة شائعة في الحضارات القديمة ـــ لا سيما الحضارات الرافدية ـــ، فالملك الآشوري " نارام سين"، الذي يعني اسمه "محبوب سين" قد ابتدع لأول مرة فكرة تأليه نفسه، ثم وضع المخصص الدال على الإله أمام اسمه، كما نراه على لوحة النصر يلبس على رأسه التاج ذا القرون الدالة على الألوهية(3).

---

(1) السواح: **مدخل إلى نصوص الشرق القديم**، ص344، 345.

(2) يُنظر: مهران، محمد بيومي: **مصر والشرق الأدنى القديم**، ج2، القاهرة، دار المعرفة الجامعية، 1999, ص126 .

(3) يُنظر: مهران، محمد بيومي: **تاريخ العراق القديم**، ط1, الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، 2008م، ص134 .

وقد عُرف أحد ملوك بابل قبل حمو رابي باسم "شمس، ايلونا" أي الشمس إلهنا [1]. مما يدلل بوضوح على انتشار هذه الفكرة في الحضارات البابلية .

من الملاحظ أن الآشوريين لم يساهموا بشيء جديد في عبادتهم للقمر بل استمدوا أصولها وطقوسها من الحضارتين البابلية والسومرية، فبقيت آلهة القمر البابلية والسومرية تهيمن على مجمع آلهتهم القمرية .

وهكذا يمكننا القول: إن عبادة القمر في الديانة العراقية القديمةــ بطقوسها وآلهتهاــ قد تميزت بالاستمرارية والتواصل، وذلك بمحافظتها على جوهرها، وتأثيرها الواضح على الديانات التي جاءت بعدها. كما أنها انتشرت بين الأقوام التي جاءت بعدها، مما أكسبها بعداً عالمياً. وهذا يدعو إلى القول: إن الميثولوجيا القمرية العراقية كانت حجر الزاوية الذي قامت عليه الميثولوجيا القمرية العالمية القديمة .

وسار **الفينيقيون** على خطى الرافديين في عبادتهم لمظاهر الطبيعة، وكان المجتمع الفينيقي مجتمعاً زراعياً، وانعكس هذا على عبادتهم، حيث تعايشت فيها العبادة الرسمية مع العبادة الزراعية، فقد كانوا يتوسلون إلى الآلهة كي تمدهم دائما بالخبز والماء والصوف والكتان والزيت والخمر والحليب والعسل [2] لاعتقادهم بقدرتها المطلقة على ذلك .

ربط الإنسان القديم بين القمر من جهة وبين خصب الأرض والمرأة من جهة أخرى، من خلال ملاحظته أن تتابع الفصول، نتاج لدورة القمر، وأن هذا التتابع هو الذي يؤدي إلى اكتمال الدورة الزراعية، وتتوج حركتها بفصل الربيع الذي يحيي الأرض بعد موتها[3] .

وكان للقمر دورٌ كبيرٌ في حساباتهم الزراعية، يتضح ذلك من خلال حساب الفلاح للأيام الملأى والفارغة قبل قيامه بزراعة الأرض، لما يحمله ذلك من أهمية تضمن نجاح موسمه الزراعي، وذلك على النحو التالي: أول خمسة أيام ملأى ثم يعقبها خمسة أيام فارغة

---

[1] زكي، أحمد: **الأساطير, دراسة حضارية مقارنة**، ط2، بيروت، دار العودة، 1979م، ص22 .

[2] يُنظر: مازيل، جان: **تاريخ الحضارة الفينيقية والكنعانية**، ترجمة ربا الخش، ط1، اللاذقية، دار الحلو، 1998م، ص35.

[3] يُنظر: الديك: **الوعل صدى تموز**, مجلة جامعة القدس المفتوحة, 2002 \ 37.

ويعاد أربعة أيام ملأى وأربعة فارغة، ثم ثلاثة أيام ملأى وثلاثة فارغة ويليها اثنان ملأى واثنان فارغة ثم يوم ملآن ويوم فارغ، حتى يُتم أيام الشهر القمري وهي ثلاثون يوماً[1].

يبدو تأثير الديانات السابقة والمجاورة جلياً في معتقدات الفينيقيين، حيث قامت عبادتهم على تقديس الثالوث الأعظم الذي تمثل في القمر والشمس والمبدأ الإلهي في عمل الناس[2] .

ومن الآلهة التي عظمها الفينيقيون، إلهة القمر "عشتروت " زوجة الإله بعل إله الشمس، الذي يظهر غالباً إلى جانبها، كما هو واضح في آثارهم "[3]، حيث أدى ارتباطها بالإله القمر إلى إكسابها هذه المكانة الدينية الكبيرة " فكانت ذات خاصة قمرية، وكانوا يدعونها "ملكات شمائيم "أي ملكة السموات "[4] .

وورد في الميثولوجيا الفينيقية مجموعة من الابتهالات الدينية التي كانت تقدم من قبل الآلهة القمرية للإله بعل (أبو الآلهة والبشر)كي يساعدها على الزواج، وفيها ما يشير إلى الهلال وعلاقته بالخصب والزراعة، ومنها :

" **إنّي أنْشُدُ للآلِهاتِ بَنَاتِ هِلالِ السُّنونو**
بناتِ هلالِ سيِّد المِنْجَل
الّلواتي يَنْزِلْنِ مَعَ النَّباتِ .... مَعَ النَّباتِ
نَعم إنَّ قُوَّتي مَعَ بَعْلِ الرَّحيمِ ذي القَلْبِ الكَبيرِ
وعلى شَفَتي تَعْويذَتُهُم
إنَّها مَهْرُهُ وَمُمْتَلَكاتُهُ" [5].

ومن الواضح ــ في هذه الابتهالات ــ ارتباطها الوثيق بإله القمر، حيث كان من الأسباب الرئيسة التي جعلت عبادتها تنتشر إلى أماكن بعيدة، حيث انتقلت عبادتها كإلهة للقمر إلى مدينة قرطاجة في أسبانيا، وأصبحت مركزاً مهماً لعبادتها .

---

[1] يُنظر: نعمة، حسن: **ميثولوجيا وأساطير الشعوب القديمة**، ص33 .

[2] يُنظر: مازيل: **تاريخ الحضارة الفينيقية**, ص34.

[3] يُنظر: دروزة، محمد عزة: **تاريخ الجنس البشري**، ج4، ط1, صيدا، المكتبة العصرية، 1960، ص98.

[4] الدبس، يوسف: **من تاريخ سوريا الدنيويّ والدينيّ**، ج1، ط1, دمشق، دار الجليل، 1993، ص364.

[5] لابارت وآخرون: **سلسلة الأساطير السورية**, ص513.

ولكن طرأ عليها بعض التغيير بعد انتقال عبادتها إلى قرطاجة، ولا سيما في اسمها الذي أصبح "تينيت"، التي سميت بسيدة النجوم وإلهة القمر[1]، وأعقبه تغيير على اسم زوجها الذي أصبح "بعل هامان" حيث عُبدا معاً، وظلت من الآلهة القمرية ومن آلهة الخصب، وأم لكل حي، وتتفق في العديد من مهامها مع عشتروت[2] .

ولم يختلف جوهر العبادة عند **الكنعانيين** عن غيرهم من الشعوب التي سبقتهم، أو المجاورة لهم، وارتكزت ديانتهم على عبادة قوى الطبيعة المنتجة المولدة وقوى النمو والخصب، وهو ما يميز المجتمعات الزراعية، كما تأثروا مثل غيرهم من الأقوام التي استوطنت سوريا بأديان الحضارات المجاورة، لا سيما حضارة وادي الرافدين ووادي النيل [3].

وتركت عبادة الظواهر الطبيعية أثراً واضحاً في مصدر معيشتهم فكان " لكل وجه من أوجه النشاط الإنساني إله، فكان عندهم آلهة السماء والشمس والبحر والقمر والعواصف والمطر "[4].

فعبدوا القمر، وأخذ عندهم شكلين مختلفين، أولهما أنثوي، متمثلاً بالإلهة "نيكال"، إلهة القمر السومرية التي يرد اسمها على شكل "ننكال" وثانيهما الشكل الذكري متمثلاً بالإله "يرح"ويسمى أيضاً "باريش" [5].

وتدلل تسميتهم لإله القمر "يرح" على مدى اهتمامهم بالتاريخ والوقت. ولعل هذا الاهتمام، يعود إلى كون مجتمعهم مجتمعا زراعيا، يعتمد على التقويم القمري في توقيت مواعيد الزراعة والحصاد، وقد أدى ذلك إلى جعل القمر يلعب دوراً بارزاً في هذا، بسبب تغير شكله كل يوم خلال الشهر القمري[6] .

---

[1] يُنظر: نعمة, حسن: **موسوعة الأديان السماوية والوضعية**, ط1, بيروت, دار الفكر اللبناني, 1994, ص192

[2] يُنظر: تسيركين، يولي بركوفيتش: **الحضارة الفينيقية في اسبانيا**، ترجمة يوسف أبي فاضل، ط1، بيروت, جروس برس، 1988، ص125 .

[3] يُنظر: باقر: **مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة**، ص262 .

[4] العريبي، محمد: **الديانات الوضعية المنقرضة**، ط1، بيروت، دار الفكر اللبناني، 1995، ص182.

[5] يُنظر: الماجدي، خزعل: **المعتقدات الكنعانية**، ط1، عمان، دار الشروق للنشر والتوزيع، 2001، ص177.

[6] يُنظر: الماجدي، خزعل: **الآلهة الكنعانية**، ط1، عمان، أزمنة للنشر والتوزيع, 1999، ص110.

ومارسوا في عباداتهم طقوساً كثيرة موجهة للقمر، أهمها طقوس زواج إله القمر من الإلهة القمرية "نيكال" وقد جسد هذا الزواج في أغنية جميلة وفيها " توجه الدعوة للآلهات الحكيمات لتأمين مستلزمات الزواج الضرورية، ويعلن عن الهدايا الثمينة التي سيؤمنها "ياريخ"كمهر للعروس "[1] ومنها:

" ياريخ يا قِنْديلَ السَّمواتِ، أرْسِلْ مَبْعوثاً إلى "خيرخيب" مَلِكِ الصَّيْفِ

أعطِ نيكالَ أنَّ ياريخَ سيَتَزوَجها

إنّي أُعْطي مَهْرَها إلى أبيها

....

أبوها أَعَدَّ عاتِقَ الميزان

أمّها أعَدَّتْ صَوانيَ الميزان

إخوَتُها رتَّبوا المَعاييرَ

وأخَواتُها اهْتَمَمْنَ بالأَوْزان

......

ما كانَ منْ ياريخَ إلاّ أنْ حَصَلَ على نيكالَ زوجةً لَه" [2] .

وأقاموا ــ كغيرهم من الشعوب ــ الكثير من المعابد والهياكل لممارسة هذه الطقوس " فقد وجد في كل مدينة وكل قرية هياكل وتماثيل، ترمز لأشكال الآلهة كبيرة كانت أم صغيرة، مهمة كانت أو ثانوية "[3].

وكانت مدينة أريحا ــ التي يعني اسمها مدينة القمر ــ مركزاً رئيساً لمعابد اله القمر، التي كانت بدورها مركزاً مهماً لأداء الطقوس الدينية الموجهة إليه .

---

[1] هووك، صموئيل هنري: **منعطف المخيلة البشرية**، ترجمة صبحي حديدي، ط1، اللاذقية، دار الحوار للنشر والتوزيع، 1983، ص76

* ياريخ: هو يرح, إله القمر عند الكنعانيين.

[2] لابارت رينيه, وآخرون: **سلسلة الأساطير السورية**، ص511.

[3] الباش، حسن: **الميثولوجيا الكنعانية والاغتصاب التوراتي**، ط1, دمشق، دار الجليل، 1988، ص39.

ولم تختلف نظرة **المصريين** إلى القمر عن غيرهم من الشعوب القديمة، إلا أنهم كانوا أوسع خيالاً وأعمق نظرة في تعاملهم معه، حيث كان من العناصر المهمة والفاعلة في الديانة المصرية القديمة؛ فطبيعة حياة المصريين القدماء التي اتسمت بسرعة التغيير، والارتباط المباشر مع الطبيعة وتقلباتها، جعلتهم يرجعون كل ظاهرة طبيعية تأثروا بها في حياتهم اليومية إلى قوة أو قدرة خفية تحركها وتتحكم فيها وتسيطر عليها وتؤثر فيها، وهي السبب في وجودها فهناك ظاهرة ظهور الشمس وغروبها، وظهور القمر والنجوم واختفاؤها، وهبوب الرياح والعواصف ونزول الأمطار..., وأطلقوا على هذه القوى اسم "نثرو" أو"نبو" أي معبـــودات أو أربـــاب [1]، حيث ساد اعتقاد عندهم بوجود الأرواح في الأشياء، وانعكس ذلك على العديد من آلهتهم، التـــي تجسدت في مظاهر الطبيعة وفي نباتات وحيوانات عديدة، فكان القمر إلهـــاً والشـــمس أعظـــم الآلهة[2] .

وقد بدا تأثير الديانة العراقية جلياً في ديانة المصريين القدماء، لا سيما فكرة المشابهة بين الأجرام السماوية والعائلة البشرية، فـــقد شابهوا بين السماء بأجرامها السماوية وبين العائلة البشرية على الأرض، فالأسرة تتكون من أب وأم وأبناء لهما، ليتكون ثالوث جدير بالتقدير والعناية، حيث تشابه مع الثالوث في بلاد الرافدين الذي اشتمل على القمر أباً والشمس أماً والزهرة ابنة لهما .

وارتكز جوهر عبادتهم على عبادة إله الشمس "رع "، " وهو الاسم الذي أطلقه المصريون في عصر الأسرات على إلههم الشمسي، الذي اعتقدوا أنه صانع كل ما نشاهده حولنا في العالم المرئي، وخالق السماء وآلهتها والعالم السفلي والكائنات التي تعيش فيه "[3] .

وارتبطت معظم آلهتهم بهذا الإله، بما فيها إله القمر "تحوت"، ووردت في الأساطير المصرية قصة هذا الإله مع رع، فـــ " عندما كان رع يسكن السماء، قال مرة نادوا لي تحوت فاحضروه له في الحال، فتحدث جلالة هذا الإله إلى تحوت قائلاً: فلتكن أنت في السماء في

---

[1] يُنظر: علي، رمضان عبده: **حضارة مصر القديمة**، ج2، ط1, القاهرة، مطابع المجلس الأعلى للآثار، 2004، ص159.

[2] يُنظر: العويدات، حسين: **الموت في الديانات الشرقية**، ط4، دمشق، الأهالي للطباعة والنشر، 1995، ص46 .

[3] بدج، والاس: **آلهة المصريين**، ترجمة محمد يونس، ط1، القاهرة، مكتبة مدبولي، 1998، ص367.

مكاني، إبان تلك الفترة التي أضيء فيها الدنيا السفلى .....، فأنت في مكاني هذا نائبا عني ولسوف يدعوك الناس بنائب رع "[1] .

إنها أسطورة تكوينية يراد منها شرح السبب في أن القمر يهب الضياء ليلاً، ويحل الظلمة على مقام أعداء رع وأرواح العالم السفلي، ويشكل تحوت في الأسطورة إلها قمراً[2] .

وقد تم هذا التكليف و تحوت يقف إلى جانبه على سطح سفينته، و لم يأت هذا التكليف من فراغ، فقد اتصف بصفات أهلته لهذا المنصب، فهو القاضي الذي يحكم في السماء ويقضي في منازعات الآلهة، ويتنبأ للآلهة والبشر بما سيحدث لهم، وهو الذي يشيد المدن ويضع حدودها[3] .

وفضلاً عن كونه الإله المكلف بالحسابات، والمشرف على الحروف، كان يحسب الزمن والسنوات والتقويم، وهو الذي يشرف على تقسيم الزمن، ... وتقول الأسطورة إنه قلب رع ولسانه وجوهر فكره الخلاق، فعندما يتكلم، تتحقق رغبات رع ....، وقد صار راعي السحرة، يعرف جميع النصوص اللازمة لشفاء المرضى[4] .

وقف المصريون القدماء عاجزين أمام الموت، وقادهم ذلك إلى وضع تفسيرات له، كان القمر أساسها، فربطوا بين ظهوره وولادة الإنسان، وبين اختفائه وموته، وتدلل آثارهم على إيمانهم المطلق بوجود حياة جديدة بعد الموت، وهو ما يعزز فكرة الربط بين القمر والموت عندهم .

وكان الميت يحظى ببركة خاصة "فغالباً ما توجد على المداخل الحقيقية للمقابر دعوات للشمس أو للشمس والقمر كان على الميت أن يتلوها في هذه الأماكن "[5].

---

(1) ارمان، أدولف: **ديانة مصر القديمة**، ترجمة عبد المنعم أبو بكر ومحمد أنور شكري، ط1، القاهرة، مكتبة مدبولي، 1995، ص106 .

(2) يُنظر: هووك: **منعطف المخيلة البشرية**، ص61، 62.

(3) يُنظر: ارمان: **ديانة مصر القديمة**، ص93.

(4) يُنظر: إمام، عبد الفتاح إمام: **معجم ديانات وأساطير العالم**، المجلد3، ط1، القاهرة، مكتبة مدبولي، ص319.

(5) ارمان، **ديانة مصر القديمة**، ص387 .

فضلاً عن التكريم السماوي، المتمثل بحفاوة الاستقبال التي يلقاها من الإله تحوت " حيث يأخذ الميت في سفينته بالليل ويجوب السماء[1].

ومن الأعمال التي يقوم بها الميت بعد موته كي يصل إلى الأمان اجتياز " المياه للوصول إلى حقول الأبرار في السماء، وهذه من الأمور الصعبة عليه، فكانوا يأملون في عطف الطيور المقدسة عليه، كصقر حورس وأبي منجل، راجين أن ينقله إلى تلك الحقول :

يا مِخْلَبَيّ حورِس، ويا جَناحَيّ تَحوت، اعْبُرا بِهِ، ولا تَتْرُكاه، دون أنْ يَعْبُر "[2] .

وحورس هنا يمثل رمزاً من رموز السماء عندهم، وقد أخذ شكلين: شكل الطائر أبي منجل، وشكل الصقر, وهي من الحيوانات المقدسة في ديانتهم، ومن المظاهر الدالة على الاهتمام به امتلاء معابدهم برسوماته[3] .

واقترنت عيناه بالشمس والقمر، من خلال جعلهم إحدى عينيه للقمر، والأخرى للشمس، ومثلت أنفاسه المترددة الهواء الذي يملأ الفضاء ما بين السماء والأرض[4] .

وقد ارتبطت العين التي مثلت القمر ارتباطاً وثيقاً به، من خلال أطواره المختلفة، فكانت تصغر رويداً رويداً ثم ما تلبث أن تنمو بشكل عجيب حتى تكتمل[5].

وقد تخيل المصريون القدماء أن هناك كائناً شريراً يعتدي على هذه العين فيجرحها ثم يسارع كائن آخر فيعالجها، وهذا الكائن هو الإله تحوت، الذي يعيد القمر إلى اكتماله بعد اختفائه، أي يعيده فيصبح هو العين الكاملة لحورس[6]، وقد دفعهم هذا إلى أن يطلقوا على القمر أحياناً عين حورس[7].

---

[1] يُنظر: ارمان، **ديانة مصر القديمة**، ص294.

[2] يُنظر: المرجع السابق، ، ص299 .

[3] يُنظر: بدج: **آلهة المصريين**، ص21.

[4] يُنظر: بدوي، أحمد: **في موكب الشمس**، ج1, ط1، القاهرة, مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ص 123.

[5] يُنظر: ارمان: **ديانة مصر القديمة**، ص43.

[6] يُنظر: المرجع السابق، ص43.

[7] يُنظر: كريمر، صموئيل نوح: **أساطير العالم القديم**، ط1, القاهرة, الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1974، ص71.

من الواضح أن الإله تحوت اكتسب أهمية كبيرة في مجمع الآلهة المصري، لا سيما في حقبة سيادة الإله رع، لكنه ما لبث أن فقد هذه الأهمية كإله للقمر بعد أن فقد رع أهميته، وسادت عبادة الإله " آمون رع "، فتحددت مهامه وصلاحياته، فأصبح كاتباً وإلهاً للحكمة[1].

وسرعان ما حل مكانه إله آخر للقمر، لا يقل أهمية عنه، وهو الإله " **خونسو** " الذي "يعني اسمه الملاح، أو الذي يقطع السماء في قارب "[2] .

اكتسب هذا الإله شهرة وأهمية كبيرتين لاسيما في مدينة طيبة، وعُدّ من أشهر الآلهة المحلية فيها، بعد أن تبناه آمون وزوجته ميت[3].

وقد عومل هذا الإله بعناية واحترام شديدين، ولعل ذلك يعود إلى الأثر الكبير الذي تركه في حياتهم السياسية والدينية، حيث كان يمثل في الأصل المشيمة الملكية، ولما كان الملك من أصل مقدس، فإن كل ما يتصل بمولوده، فهو مقدس، وبما أن الملك كان يوحد مع الشمس، فإن ما بعد المولد، إنما كان يوحد مع القمر[4] .

وقد انتشرت شعبيته في كل أنحاء مصر، بوصفه طارداً للأرواح الشريرة التي تسكن الجسد، معتقدين أنها السبب الرئيس للأمراض، فأخذ المرضى يتقاطرون إليه من جميع أنحاء مصر، وحتى من خارجها[5] .

ولأن الصقر اتخذ بعداً دينياً عندهم من خلال تجسيده للإله القمر، فقد صُور " على هيئة رجل برأس صقر، يعلوه قرص داخل هلال "[6] .

واهتموا كغيرهم من الشعوب بإقامة الأعياد، التي اتصلت اتصالاً مباشراً بالقمر, إذ "كانت الأعياد الشهرية في مصر أعياداً قمرية، ارتبطت بمراحل تحوله، ونموه واختفائه، وكان العيدان الشهريان الرئيسان هما عيد ظهور الهلال وعيد اكتمال القمر "[7] .

---

(1) يُنظر: مهران، محمد بيومي: **مصر والشرق الأدنى القديم**، ص379.

(2) السواح، فراس: **موسوعة تاريخ الأديان**، ج2, ط1، دمشق، دار علاء الدين، ص39 .

(3) يُنظر: المرجع السابق، ص40 .

(4) يُنظر: مهران، **الحضارة المصرية القديمة**، ص391.

(5) يُنظر: السواح: **موسوعة تاريخ الأديان**، ج2, ص40.

(6) المرجع السابق، ص40.

(7) الماجدي: **الدين المصري**، ص244.

واكتسبت هذه الأعياد بعداً دينياً، علاوة على الصبغة الملكية التي اكتست بها، من خلال ارتباطها "في وقت مبكر من الحياة المصرية بالملك، فقد كان الفرعون المتوفى عندما يصعد إلى السماء يتصل بالقمر "[1] .

وكان تقديم القرابين للآلهة من أكثر الطقوس الدينية التي مورست في الأعياد، والتي حظي إله القمر بنصيب الأسد منها.

وعبد المصريون إلهاً آخر للقمر، وهو الإله " اوزيريس "، لكن الباحثين في الميثولوجيا المصرية القديمة اختلفوا على طبيعته، فمنهم من عدّه إلهاً للنبات، ومنهم من نسب إليه سيادة العالم السفلي وآخرون عدّوه إلهاً للموت وللقمر معاً، فإذا أعيد إلى جذوره القديمة، فإنه سيد القمر ومن ألقابه"آزر ــ آه" الذي يعني "اوزيريس القمر"[2] .

وورد في إحدى الأساطير الأوزيريسية ــ عن ولادة هذا الإله ــ ما يعزز هذا الرأي، ومما جاء فيها " أن نوت إلهة السماء تزوجت من جيب إله الأرض، دون أن يكون كبير الآلهة رع راضياً عن هذا الزواج، فحكم عليها أن لا تنجب في أي شهر من شهور السنة، ولكن الإله تحوت أشفق عليها من هذه اللعنة، ورغب في مساعدتها، فدعا القمر، الذي يصنع بدورته الشهرية الزمان، ويرتب السنة الشهرية في اثني عشر شهراً، إلى لعبة الداما وربح منه في كل يوم سبعين ثانية، جمعها بعد ذلك في خمسة أيام، أضافها إلى شهور السنة المصرية القمرية، التي كانت تتألف من 360 يوماً فقط، وهذا هو الأصل الميثولوجي للأيام الخمسة الكبيسة التي كان المصريون يضيفونها إلى السنة القمرية في نهايتها، للملاءمة بين التقويم القمري والتقويم الشمسي .وبذلك استطاعت نوت أن تنجب خمسة أولاد في هذه الأيام الكبيسة التي تقع خارج التقويم المصري، دون أن تطالعها لعنة رع، في اليوم الأول أنجبت بكرها "اوزيريس"، وحال ولادته سمع صوتاً ارتج له الكون، يعلن "أن رب العالمين قد جاء إلى الوجود .... "[3] .

---

[1] الماجدي: **الدين المصري**، ص254.

[2] يُنظر: السواح: **لغز عشتار الألوهة المؤنثة وأصل الدين والأسطورة**، ص274.

[3] السواح: **مدخل إلى نصوص الشرق القديم**، ص317.

كان الاعتقاد السائد عندهم بقدرة القمر على التخصيب، حيث ربطوا هذا الاعتقاد برمزه الذي تجسد في صورة القمر "آيس"، الذي يعني الثور المقدس، والذي يعتبر روح اوزيريس الحية على الأرض والذي ولد من بقرة أخصبها شعاع القمر "[1] .

ومن المهام التي كان يقوم بها، الاطلاع على أحوال الناس جميعاً، والمعرفة المسبقة بعدد سنوات حياة كل منهم ووقت مماته، وكل شيء مدون لديه في لوح القدر، الذي تسجل فيه الآجال، ويحدد لكل امرئ نصيبه من الأيام [2] .

وهكذا، انعكس خيال المصري الواسع على عبادته للقمر، ولعل هذا التعدد الكبير لآلهته، وما كانت تتمتع به من احترام وتقديس لأكبر دليل على ذلك. فهذه الحضارة العظيمة التي شيدها ــ والتي أثارت عجب ودهشة القاصي والداني وأحارت علماء الآثار والميثولوجيا القديمة ــ خير دليل على ما تركته من أثر واضح في الحضارة العالمية، والحضارات المجاورة، وبخاصة العبادات الكوكبية .

ولعل وجود الكثير من التساؤلات التي أثارها القمر، كانت من الأسباب الرئيسة التي دعتهم إلى أن يفكروا بجدية كبيرة في التقرب إليه وعبادته، والتي كشفت عن رغبة دفينة لديهم تتمثل في الخوف والرهبة والتعظيم .

ولم يختلف جوهر الديانة **اليونانية** عن الديانات التي سبقتها في ارتباطها بالسماء والظواهر الطبيعية، فاتخذوا من النجوم والكواكب وسطاء بينهم وبين الآلهة فكانت " الكواكب عندهم هي الآلهة نفسها، ولهذه الآلهة من قصص الحب والانتقام والحسد والغيرة والمغامرات الغرامية ما يوجب إدخال النجوم في الحساب "[3] .

وقاموا بإضفاء الشخصية على كل ظاهرة طبيعية، أو ثقافية في عالمهم، فالبحر والجبال والأنهار والقوانين، ونصيب الفرد من مجتمعه وخيراته، كلها نظروا إليها من منظور شخصاني وطبيعاني في الوقت نفسه[4] .

---

(1) السواح: **لغز عشتار الألوهة المؤنثة وأصل الدين والأسطورة**، ص272.

(2) يُنظر: السواح: **مدخل إلى نصوص الشرق القديم**، ص315 .

(3) بدر، عبد الرحيم: **عن العرب والنجوم**، مجلة التراث العربي، العدد 7، دمشق، 1982 \ 14.

(4) يُنظر: السواح: **موسوعة تاريخ الأديان**، ج3, ص13.

لم تكد الحضارة اليونانية تترك مجموعة من المجوهرات النجومية الظاهرة إلا أطلقت عليها اسماً من أسماء الأبطال أو الضحايا أو الحيوانات التي دخلت تلك الأساطير، وأصبح معظم السماء المنظور في نصف الكرة الشمالي مجموعة نجومية معروفة تحمل كلها أسماء الأبطال الأسطوريين "[1] .

وكانت فكرة المشابهة بين الآلهة والبشر شائعة في ديانتهم، وقد انعكست تلك الفكرة على اعتقادهم بتزاوج الشمس والقمر، والذي هو أساس استمرارية الحياة في نظرهم، وقد ورد في أساطيرهم، زواج القمر بالشمس أو زواج الآلهة الشمسية بالآلهة القمرية، وقد اتخذ سكان أثينا أيام اجتماع القمر بالشمس أياماً تقام فيها الأعراس واحتفالات الزفاف[2].

فالأطوار التي يمر بها القمر دفعت اليونانيين للاعتقاد أن حركات القمر وقربه أو بعده عن الشمـــــــس واختفاءه معها ثلاث ليال شهرياً هو زواج سماوي[3] .

وعبدت طائفة من اليونانيين القمر، باعتباره إلهة أنثى، حيث تمثل في إلهتهم القمرية "Arteamis"، التي كانت نتيجة للتزواج بين الآلهة بعضها ببعض، وجاء في الأساطير اليونانية القديمة أن " Arteamis" هي ابنة "Jupiter" وجاء بها سفاحاً من "لاتون"ابنة عمه وهي أخت توأم لـــ "إله الشمس[4].

وكانت لاتون تفخر بابنتها "Arteamis" وابنها "Apollo "، وتتباهى أن ولديها يفوقان الجميع جمالاً وذكاءً وقوةً، ويمثلها فنّهم، إلهة رائعة الجمال، لابسة ثياب الصيد القصيرة، ومسلحة بقوس وجعبة إلى جانبها مملوءة بالسهام وعلى رأسها هلال[5]. وهذا يدلل بوضوح على ارتباطها الوثيق بالقمر، والمكانة الرفيعة التي وصلت إليها بين معبوداتهم الكوكبية .

---

(1) بدر: **عن العرب والنجوم**، مجلة التراث العربي، العدد7، 1982 \ 14.

(2) يُنظر: نيلسون، ديتلف: **التاريخ العربي القديم**، ترجمة فؤاد حسنين علي، ط1, القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، 1958، ص203.

(3) يُنظر: المرجع السابق، ص202 .

(4) يُنظر: وافي: **الأدب اليوناني القديم**، ط1, القاهرة, دار المعارف، 1960، ص19.

(5) يُنظر: غيربر: **أساطير الإغريق والرومان**، ترجمة حسني فريز، ط1, عمان، دار الثقافة والفنون، 1976، ص57.

واتخذت مكانة رفيعة بين الآلهة اليونانية، وقد وصفوها بالكثير من الصفات التي أهلتها لاتخاذ مثل هذه المكانة فهي المدمرة التي تحب أن تطلق السهام .... وكانت إلهة الموت المفاجئ .... وبسبب قدرتها كإلهة للقمر كانت تشرف على ولادة الأطفال[1].

وأدت هذه المكانة التي وصلت إليها، إلى تكليفها بالقيام ببعض المهام الأساسية، وقد ورد في أساطيرهم، قيامها كل مساء برحلة ليلية تمتطي خلالها عربة القمر وتسوق جيادها البيض، وتجتاز السماء، حيث النجوم التي لا تحصى تراقبها وتحبها، بحيث يزداد تألقها لكي تُسر أثناء اجتيازها للسماء [2] .

وكان من عاداتها إذا انتهت من رحلتها الليلية في عربة القمر أن تأخذ قوسها وسهامها وتصطحب وصيفاتها من العرائس وتذهب لتصطاد الوحوش في الغابة" [3] .

وقد أدت هذه القدرة الهائلة التي تمتعت بها إلى جعل اليونانيين يعتقدون بقدرتها على مساعدة النساء عند الولادة، وإشرافها على ولادة الأطفال[4].

وهذا مما ساعد على انتشار عبادتها في جميع أنحاء اليونان[5] .

وقد أبدع الفن اليوناني في تصويرها، وإبراز الجانب القمري من شخصيتها، فقد صورت على القطع النقدية وهي محاطة بالقمر والنجوم، حاملة مشعلاً بيدها [6] .

وورد في الديانة اليونانية اسم آخر لإلهة القمر وهي الإلهة " Seelain "، ولكنها عدت من الآلهة الصغرى، وقد تشابهت في كثير من مهامها مع " Arteamis "، فكانت في مساء كل يوم تبدآ رحلتها بعد أن ينهي أخوها " هيليوس " إله الشمس رحلته، فبعد أن تغسل وجهها

---

(1) يُنظر: السواح: **موسوعة الأديان**، ج3، ص71.

(2) يُنظر: غيربر: **أساطير الإغريق واليونان**، ص59 .

(3) المرجع السابق، ص62.

(4) الأثرم, رجب عبد الحميد: **دراسات في تاريخ الإغريق وعلاقته بالوطن العربي**, ط1, بنغازي, منشورات جامعة قاريونس، (د.ت) ص89 .

(5) السواح: **موسوعة تاريخ الأديان**، ج3, ص71 .

(6) المرجع السابق, ص72 .

الجميل في مياه المحيط ترتدي أثوابها الرائعة وترتفع إلى كبد السماء على متن عربتها التي تجرها خيول مشعة وأحيانا تمتطي حصاناً أو بغلاً أو ثوراً [(1)].

وقد ورد في أساطيرهم القديمة الكثير عنها، ومن أهمها، الأسطورة التي كان يعتقد اليونان من خلالها أن سيلين هي المسببة لأشعة القمر، حيث إنها أحبت"انديمون" الذي كان ملكاً على " إليس" بعد أن رأته يصطاد ذات يوم على جبل لاتوس، وأسرها جماله فاختلست قبلة منه في أثناء نومه فطلب انديمون من زيوس "اله السماء والظواهر الجوية "، أن يمنحه الخلود والشباب الدائم، فوافق زيوس شريطة أن يبقى نائماً إلى الأبد ... كانت تأتي بكل إخلاص ليلة بعد ليلة وبصمت لتتأمل حبيبها النائم، وهكذا أصبحت أشعة القمر العاشق تأتي لتداعب نوم البشر [(2)] .

من الواضح أن اليونان ساهموا بالكثير في الميثولوجيا الدينية القمرية للأمم السابقة، وهذا ليس غريباً في مجتمع شكلت فيه الآلهة والطقوس الدينية جوهر حياتهم .

ولم تأخذ الميثولوجيا الدينية **الإفريقية** القديمة حيزا ًكبيراً في الميثولوجيا العالمية، وظل الغموض يكتنفها فترة طويلة من الزمن، ولكن على الرغم من ذلك نجح بعض الدارسين في جلاء هذا الغموض، وتزويدنا بشيء من المعتقدات الدينية التي سادت عندهم .

وتركت عبادة الكواكب والنجوم أثراً كبيراً في حياتهم، واتخذت حيزاً بين معبوداتهم، لا سيما عبادة النيرين " القمر والشمس "، وقد رسمت لنا الأساطير الإفريقية ارتباطاً وثيقاً بينهما، وكأنهما وجهان لعملة واحدة، فالقمر يأتي ليلاً، فيضيء الظلام ويتراجع، ثم يغرب وتشرق الشمس وتبدد الظلام وتطارده، ولكنه يتوقف فتطعنه بنصلها عندئذٍ يضعف ويخبو ويقول، " أيتها الشمس من أجل أطفالي اتركي لي عمودي الفقري فقط، فتلبي توسلاته، فتترك له عموده الفقري رأفةً بأطفاله، ويمضي بعيداً يتهاوى بصعوبة بالغة حتى يصل دياره مريضاً، فيظن أنه سوف يقضي نحبه، لكن الوقت يمضي وتدب فيه الحياة ثم يصير قمراً جديداً[(3)] .

---

(1) يُنظر: السواح: **موسوعة تاريخ الأديان**، ج3، ص115.

(2) يُنظر: المرجع السابق, ص115.

(3) يُنظر: البيديل، م. ف: **سحر الأساطير**، ترجمة حسان ميخائيل إسحق، ط1، دمشـق، دار عـلاء الـدين، 2005، ص 145.

ومن الواضح في معتقداتهم أن عبادة القمر كانت أكثر انتشاراً من عبادة الشمس، ولعل السبب في هذا يعود إلى طبيعة بلادهم الحارة، فالقمر في البلاد الحارة كان أكثر تأثيراً من الشمس، فبعد سياط شمس النهار اللاهبة تأتي الليلة المقمرة بالبرودة المنتظرة، ويبدأ ضوءه الخافت ببث السكينة في الأرض التي أضناها قيض النهار، ويمنح الراحة للبشر والحيوانات[1] .

وكان "البوشمين" أكثر قبائل إفريقيا تقديساً للظواهر الطبيعية، لاعتمادهم الكبير في معيشتهم على مهنتي الزراعة والصيد، فأصبحت عبادتهم عبادة مهنية، تعتمد في جوهرها على الصلوات والدعوات والطقوس الموجهة إلى القمر والشمس والكواكب الأخرى، طلباً للتوفيق في العمل وتيمناً بالصيد الوفير[2] .

ومن الصلوات الموجهة إلى القمر " **آهِ أيّها القَمر هناك في الأعالي، ساعدني لأَقتُلَ غَزالاً في الغَدّ، أعْطِني لحْمَ غزالٍ آكُلَهُ ... أوهِ أيُّها القَمرُ ! هناكَ في الأعالي، إنَّني أنَقِّب في الأرضِ لأعثرَ على النَّمل، أعْطِني لآكُلَ** "[3] .

وجعلتهم هذه العبادة المهنية ينظرون نظرة تقديس للحيوانات، ومنها الأرنب الذي اقترن عندهم بالقمر، إذ " كان في الأزمنة الغابرة إنسانا، ولكن القمر حوله إلى أرنب، ومع ذلك بقيت لديه قطعة من لحمه البشري"[4] .

وعدّت بعض قبائل السودان الكبش حيواناً مقدساً، وربطوه بالقمر، وقد ورد في معتقداتهم، " أن القمر كان كبشاً ألقوا عليه القبض ووضعوه في قفص لأنه كان يسرق الدخن، ولكن فجأة حل الظلام، بعد ذلك، فنصح بعض عجائز القبيلة بإطلاق سراح الكبش، ولما فعلوا قفز هذا عالياً وتحول إلى هلال "[5] .

---

(1) يُنظر: البيديل، م. ف: **سحر الأساطير**، ص 164 .

(2) يُنظر: توكاريف: **الأديان في تاريخ شعوب العالم**, ص156

(3) المرجع السابق, ص156.

(4) البيديل: **سحر الأساطير**، ص164.

(5) المرجع السابق، ص158.

ومن الأفكار التي سيطرت عليهم ورسخت في معتقداتهم، الإيمان بخلق القمر، والتي قامت على أساس أن خالق الكون، وأثناء قيامه بالخلق رمى بحذائه إلى السماء فخلق القمر بهذه الحركة[1] .

وهذا الخالق هو "تساغن"، تقول الأسطورة على لسانه " أنا تساغن وهذا صندلي يضيء في السماء ليلاً وينير للناس ظلام الليل إلى أن تشرق الشمس، أيها القمر ينبغي عليك أن تموت وتحيا من جديد "[2] .

وتتكشف في هذه الأسطورة قضية مهمة شغلت أفكارهم وأثارت تساؤلاتهم، وهي الأطوار المختلفة التي يمر بها القمر، فلم يكن الأفارقة القدماء على دراية بتفاصيل حركته واكتماله وتناقصه وغيابه، مما حذا بهم إلى وضع تفسيرات لهذه الظواهر، ومما نسجه خيالهم حول هذه الظواهر، أن له زوجتين، إحداهما تريد له الخير وتطعمه كما ينبغي، لذلك يتكامل القمر فيُبدر، أما الأخرى فتميته جوعاً، وهذا هو سبب تناقصه وغيابه المؤقت[3] .

وكانت فكرة تزاوج الكواكب فكرة قديمة، قدم الديانات التي آمنت بها، وقد وجدت في جميع الديانات السامية والرافدية القديمة، لا سيما تزاوج الشمس والقمر، وقد بدا تأثيرها واضحاً في معتقداتهم، واعتبروا الشمس والقمر والكواكب كائنات حية وأن النجوم من نسل الشمس والقمر[4]. وقد ورد في أساطيرهم ما يؤكد هذه الفكرة، ومنها أن " الشمس والقمر اتفقا ذات يوم على قتل أولادهما، ولم تتأخر الشمس عن تنفيذ هذا الاتفاق، ولكن القمر فكر من جديد واعتزم تغيير رأيه، لهذا ليس للشمس أولاد بينما للقمر جميع الأولاد، أي النجوم "[5] .

وأخذت العبادات المرتبطة بالظواهر الطبيعية طريقها بين **الهنود**، وقد آمنوا بهذه الظواهر رغم التعدد الكبير لدياناتهم ومعتقداتهم، وقد دفعهم هذا إلى الإيمان بفكرة خلود الآلهة

---

[1] يُنظر: ديشان، هوبير: **الديانات في إفريقيا السوداء**، ترجمة أحمد صادق حمدي ومحمد عبد الله دراز، ط1, القاهرة، دار الكتاب المصري، 1956م، ص47.

[2] البيديل: **سحر الأساطير**، ص158.

[3] يُنظر: الهاشمي، طه: **تاريخ الأديان وفلسفتها**، ص313.

[4] يُنظر: ديشان: **الديانات في أفريقيا السوداء**، ص43.

[5] الهاشمي: **تاريخ الأديان وفلسفتها**، ص313.

* السوما: معناها بالسنسكريتية القمر.

التي اقترنت بالقمر من خلال الإله " **سوما** " * الذي غالباً ما يرتبط بالقمر عندهم، فهو الذي يجعل الآلهة خالدين، وذلك باحتسائه والآلهة شراب السوما[1] .

وحذت الديانة الهندية حذو الديانات التي سبقتها، في وضع التفسيرات لأصل الكون ونشأته، وهذا واضح في كثير من أساطير التكوين عندهم، والتي وردت في كتابهم المقدس "الفيدا"، ومنها أن " الكون في كليته، إما بقرة أو حصان أو إنسان كوني، خضع منذ الأزل لعملية التضحية والتقطيع، التي أنتجت الجبال والتراب والمخلوقات الحية من كل الأنواع وهذا الإنسان الكوني هو الإله " بورشا " الذي سمح للآلهة بصنع القربان"[2].

ودفعهم هذا إلى وضع كثير من التصورات حول هذا الإله، ومنها أن القمر قد خرج من عقل هذا الإله، ورد هذا في إحدى الترنيمات الدينية :

" **عِنْدَما قَسَّموا بورشا كَمْ جُزْءاً صَنَعوا منه ؟**

البراهمان كان فَمُهُ، ومن ذِراعَيْهِ الاثْنَتَيْن صُنِعَ الرَّاجينا

... القَمرُ تَكَوَّنَ من عَقْلِهِ ومِنْ عَيْنَيْهِ وُلِدَتْ الشَّمْسُ "[3] .

وأطلقوا على الإنسان الذي يصل إلى مرحلة الكمال " براهمناً "، واقترن هذا الكمال بالروح الخالصة والإنسان المخلص، وقد شابهوا بينه وبين القمر، جاء في "الفيدا" أن " الإنسان إذا كان يعيش بضمير وسعى إلى بلوغ الكمال الأخلاقي، فانه قد يولد في واحدة من ولاداته براهماناً، وفي الروح الفاصل بين حياتين تعيش الروح حالة خاصة تسميها التعاليم البراهمينية قمراً "[4].

و حظي القمر بحفاوة كبيرة في أعيادهم الدينية وشعائرهم المقدسة، فأقاموا له شعائر القمر الجديد وشعائر انتصاف القمر، ولا تزال هذه العادة موجودة حتى يومنا في بعض الأماكن في الهند[5] .

---

(1) يُنظر: ميغوليفسكي: **أسرار الآلهة والديانات**، ص107.

(2) السواح: **موسوعة تاريخ الأديان**، ج4, ص14 .

(3) المرجع السابق، ص15.

(4) ميغوليفسكي: **أسرار الآلهة والديانات**، ص146.

(5) يُنظر: البيديل: **سحر الأساطير**، ص166 .

قرن الهنود نجاحهم وفشلهم في الحياة بالقمر في طور الهلال، وكانوا يعتقدون أن " سرّ النجاح المادي هو تقديس الهلال كلما ظهر"[1].

وذكر الشهرستاني أن هناك طائفة في الهند عبدت القمر، وقد سُمّوا "الجندريكينية" أي عبدة القمر، وزعموا أنه ملك من الملائكة يستحق التعظيم والعبادة، وإليه تدبير العالم السفلي، والأمور الجزئية فيه، ومنه نُضج الأشياء المكتوبة وإيصالها إلى كمالها، وبزيادته ونقصانه يعرف الزمان والساعات، وبالنظر إليه تكون زيادته ونقصانه[2] .

وسادت عند **الصينيين** عبادة ظواهر الطبيعة، لكن انتشارها كان محدوداً، ولعل السبب في ذلك يعود إلى " أنهم لم يدركوا أسباب الظواهر الطبيعية مثل الشمس والقمر والجبال والرعد والبرق والأمطار ..., فظهرت عندهم عبادة آلهة الطبيعة، ومنها إله القمر[3] .

وكان وجود الفلسفة الصينية سبباً رئيساً في ظهور عبادته، التي قامت على تقسيم كل ما هو موجود إلى مبدأين متضادين " المبدأ الذكري "إين" والمبدأ الأنثوي "يان" وعُد المبدأ الذكري إيجابياً فربطوه بالشمس وبكل ساطع مضيء قوي، في حين ربطوا المبدأ الأنثوي بالقمر وبكل مظلم كدر ضعيف، وكل ما هو موجود هو ثمرة هذا التفاعل[4] .

ولا تكاد ديانتهم ــ كما الديانات الأخرى ــ تخلو من الربط بين الحيوان والآلهة، ظهر هذا الربط جلياً بين القمر والأرنب في تفسيراتهم لبعض الظواهر السلبية في المجتمع، والتي تُنذر بالشؤم، وكان عقابها النفي إلى القمر، حيث تسكن المرأة الصينية الجميلة "شانغ" التي نفيت إليه منذ أربعة آلاف سنة لأنها سرقت حبة الخلود من زوجها، وكان رفيقها إليه أرنب كبير يقف على قدميه الخلفيتين في ظل شجرة [5] .

---

[1] ديورانت، ول: **قصة الحضارة**, ج3، ص222 .

[2] يُنظر: **الشهرستاني**، أبو الفتح محمد عبد الكريم: **الملل والنحل**، تحقيق عبد العزيز محمد الوكيل، ج3, القاهر، مؤسسة الحلبي، ص104، 103.

[3] يُنظر: وو، فه جاو وآخرون: **تاريخ تطور الفكر الصيني**, ترجمة عبد العزيز حمدي عبد العزيز، ط1، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، 2004، ص32.

[4] يُنظر: ميغوليفسكي: **أسرار الآلهة والديانات**, ص287.

[5] يُنظر: نعمة، حسن: **ميثولوجيا وأساطير الشعوب القديمة**، ص33.

ويتبين مما ورد سابقاً أن نظرتهم للقمر كانت نظرة تشاؤمية، على العكس من باقي الثقافات، فضلاً عن عدّهم له أنثى، على النقيض في معظم الديانات .

وتأثر **اليهود** في عباداتهم بالشعوب التي سبقتهم، " وكان أتباع اليهودية على صلة وثيقة وعلاقات متينة بهذه الشعوب خلال حقبة الألف عام التي جُمعت فيها التوراة، ويبرز هذا التأثر واضحاً في مفاهيم الإله والتكوين والطوفان وتقديم الأضحيات والقرابين، وفي عدد من القصص والروايات المنقولة عن أديان هذه الشعوب وثقافتها "[1] .

وسادت عندهم عبادة الثالوث المقدس المتمثل في إله القمر "يهوه" وإله الشمس" بعل" وإلهة الزهرة عشتروت[3] .

ونفهم من العهد القديم أن الديانة العبرية القديمة قبل السبي كانت توصف بأنها ديانة قمر وشمس وكوكب [4] .

وورد في سفر التثنية في الإصحاح الرابع: "ولئلا ترفع عينيك إلى السماء وتنظر الشمس والقمر والنجوم، كل السماء التي قسمها الرب إلهك لجميع الشعوب التي تحت كل السماء، وتسجد لها وتعبدها " [5] .

كما ورد في سفر أرميا، الإصحاح الثامن " في ذلك الزمان يقول الرب يُخرجون عظام ملوك يهوذا وعظام رؤسائه، وعظام الكهنة، وعظام الأنبياء، وعظام سكان أورشليم من قبورهم، ويبسطونها للشمس وللقمر ولكل جنود السموات التي أحبوها والتي عــبدوها والتي ساروا وراءها " [6] .

وعبدوا القمر باسم "يهوه"، الذي هو في الأصل إله قمري، إذا ما أعيد إلى جذوره، على الرغم من الخلاف الذي ساد بين المؤرخين حول طبيعته[7] .

---

(1) العويدات: **الموت في الديانات الشرقية**، ص93.

(3) يُنظر: نيلسون: **التاريخ العربي القديم**, ص242.

(4) يُنظر:المرجع السابق238 .

(5) **الكتاب المقدس**، العهد القديم، دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، القاهرة، (ر، ت), 4 : 18, ص285.

(6) المرجع السابق، 8:1، ص 1086.

(7) يُنظر: مهران، محمد بيومي: **بنو إسرائيل**، ج4، ط1, الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، 1999، ص416.

ومن الأدلة التي أوردها المؤرخ ديتلف نيلسون على أنه في الأصل إله قمري أن بني إسرائيل قدسوا الليل، لأنه الوقت المقدس الذي يتجلى فيه "يهوه"، وفيه كانت تقام الأعياد، وكانت أعياداً قمرية، مرتبطة بمواطن القمر، كما كان يُحتفل بالهلال والبدر[1] .

وقد ارتبط به أهم حدث في تاريخهم، وهو وقت خروجهم من مصر، وكان هو الوقت الذي يُقرب فيه المصريون بنتاً بكراً، في عيد الفصح في اليوم الحادي عشر من الشهر الأول عندما يصير الهلال بدراً، حين يتجلى "يهوه" في منتصف الليل، ويظهر ويسير فوق مصر، وكان عبورهم البحر في الجزر حتى وقت الهلال، فيعمل الله على تسخير القمر فيسبب المد والجزر، ويجفف قاع البحر في الصحراء[2] .

ربطت العقلية السامية القديمة بين السفلي والعلوي في عباداتها، فأنزلت الآلهة من الأعلى لمساعدة البشر، والوقوف إلى جانبهم في جميع الأحوال، حيث عقدوا علاقة بين القمر في طور الهلال وبين القرنين، فقدسوا ذات القرون كلها واتخذوها رمزاً له لعلاقة الخصب التي تجمع بينهما[3]، حيث كان الثور على رأسها.

وظهر في ديانة اليهود ارتباط وثيق بين الثور المقدس والقمر، فاتخذوه رمزاً له في معابدهم، فضلاً عن وجود قرنين في مذبحه، رمزاً للهلال[4] .

واقتصرت القرابين التي كانت تقدم للإله "يهوه" على الثيران فقط، واقترنت بزيادة القمر ونقصانه، وقد عُرفت بقرابين النار، فقد كان يُضحى له، إذا ما صار بدراً، في عيد فصل الخريف، ففي اليوم الأول يُضحى بثلاثة عشر عجلاً، وفي اليوم الثاني باثني عشر، وفي اليوم الثالث أحد عشر وهلم جرا، وفي اليوم السابع سبعة عجول فقط، وكان هذا الأسبوع يبدأ عادة باليوم الذي يصير فيه الهلال بدراً وينتهي بالربع الأخير من الشهر القمري، وفي اليوم السابع للأسبوع كان يُضحى بسبعة ثيران، ثم يُضحى بأربعة عشر ثوراً في اليوم الرابع عشر من

---

[1] يُنظر: نيلسون: **التاريخ العربي القديم**، ص237.

[2] يُنظر المرجع السابق، ص239، 240.

[3] يُنظر: الديك, إحسان: **الوعل صدى تموز في الشعر الجاهلي**, 2003 \ 38.

[4] يُنظر: مهران: **بنو إسرائيل**، ص416.

الشهر القمري ثم إن عدد الثيران يأخذ بالنقصان تبعاً لنقصانه، وهكذا[1]، ويدل هذا الترتيب في عدد الأضاحي على أن القربان كان يُقدم للقمر في أطواره المختلفة[2] .

وكان تقويمهم تقويماً قمرياً، مرتبطاً بعبادة القمر، ونشأ الاحتفال بعيد السبت تماماً من هذه العبادة وما زال حتى الآن يحتفظ بأهمية كبرى في الديانة اليهودية. ويوم السبت والأعياد الأسبوعية الأخرى كانت متصلة عندهم بأيام المحاق الثلاثة كما تتصل كل شهرين بمواقع القمر[3].

ومن أماكنهم المقدسة، التي اقترنت بالقمر جبل سيناء، الذي " ذُكر في التوراة باسم برية سيناء أي برية إله القمر كما ذ كرت جباله بجبال سيناء أي جبال إله القمر. كما أن ظهور الله في جبل سيناء ارتبط بظهور القمر الجديد في اليوم الثالث من الشهر الثالث [4].

ومن الواضح أن إطلاق اسم سيناء على هذه الأرض لم يكن من قبيل المصادفة. فهو يحمل بين طياته بعداً دينياً كبيراً، إذ ينسب إلى الإله سين، كبير الآلهة السامية، ويذهب الدكتور سيد القمني إلى الربط بين اسم سيناء وبين الإله سين من خلال التقديس الحيواني المرتبط بالثور والتيس حيث يقول: إن برية سيناء من أماكن الرعي المهمة للأغنام، والثيران التي كانت تحرثها، وهذا يعني أن الاسم سين هو الإله التيس أو الثور الذي يدل على القمر[5] .

---

[1] يُنظر: نيلسون: **التاريخ العربي القديم**، ص337 .

[2] يُنظر: سيرغي: **الأديان في تاريخ شعوب العالم**، ص373.

[3] يُنظر: نيلسون: **التاريخ العربي القديم**، ص238.

[4] يُنظر: اندراوس، عزت: **موسوعة تاريخ أقباط مصر**، ط1, القاهرة، دار الشروق، ص399.

[5] القمني, **الأسطورة والتراث**, ص115.

المبحث الثاني

القمر في الموروث العربي القديم

يجد الإنسان نفسه أحياناً أمام وقائع لا بد له أن يتعايش معها، إن كان بإرادته أو فوق إرادته، من هنا فرضت الطبيعة إرادتها على الإنسان العربي، الذي رأى من خلال تجربته معها أن لا بد له من أن يتصالح معها، لعله يستطيع أن يروضها، فأيقن أن أفضل وسائل التصالح معها عبادتها والتقرب إليها، اتقاءً لشرها ورغبةً في خيرها.

من هنا انتشرت عبادة الكواكب والنجوم بينهم، لما لها من تأثير في حياتهم، لأن طبيعة الحياة التي كانوا يعيشونها فرضت عليهم رصدها وعبادتها، فالعربي كثير التنقل والترحال، وهي البادية له في حله وترحاله، وهاديته في أسفاره البعيدة والقريبة، قال تعالى "وَعَلَـٰمَـٰتٍۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ"[1].

وذلك فضلاً عن تأثرهم بالأقوام السابقة لهم، في عبادتهم للثالوث الكوكبي، الذي تمثل بالقمر الأب والزهرة الابنة، والشمس الأم [2] .

وكان القمر أكثرها تأثيراً في حياته، فهو يضيء له مضارب أقدامه في المهامه الموحشة رامياً أشعته الفضية إلى قلب الصحراء، حيث تمتزج رمالها العسجدية، وتنعكس في نفس البدوي أنواراً للطمأنينة، فهو يحدو الإبل في اللّيالي الصحراوية المخيفة[3]، ولعل هذا التأثير كان من الأسباب الرئيسة الكامنة في اكتسابه بعداً دينياً مهماً، تمثل في عبادته وتقديسه .

انتشرت عند العرب كغيرهم من الشعوب السامية، والشعوب الأخرى عبادة القمر والنجوم، وكان الموقع الجغرافي، والتبادل التجاري، بالإضافة إلى الأهمية الدينية المتمثلة بالكعبة التي كانت قبلة كثير من القبائل المجاورة، من العوامل الأساسية التي ساعدت على انتشارها بينهم .

---

(1) **سورة النحل:** آية 16.

(2) يُنظر: عبد الحكيم، شوقي: **الفولكلور والأساطير العربية**، ط1, القاهرة، دار ابن خلدون، ص95.

(3) يُنظر: داود، جرجس: **أديان العرب قبل الإسلام**، ط1، بيروت، المؤسسة الجامعية، 1981، ص339.

كما كانت العرب على قدر كبير من العلم بالكواكب والنجوم، ومواقعها وأنوائها، حيث نسبوا إليها كثيراً من أمور حياتهم المعيشية، يقول الدكتور يحيى الجبوري نقلاً عن صاعد الأندلسي " كان للعرب معرفة بأوقات مطالع النجوم ومغاربها، وعلم بأنواء الكواكب وأمطارها، على حسب ما أدركوه بفرط العناية وطول التجربة، لاحتياجهم إلى معرفة ذلك في أسباب المعيشة "[1] .

والقمر والنجوم من عناصر الليل التي كان لها اثر عظيم في حياتهم، إذ تعلقت بها قلوبهم وأبصارهم وارتبطت بها حياتهم، فوجدوا أنه لا بد لهم من عبادتها والتقرب إليها, وكانوا يُقرون بأثرها الذي تتركه في الزرع والإنسان، وهي من الأمور التي أبطلها الإسلام ودعا إلى التبرؤ منها بوصفها من أمور الوثنية [2].

فعبدت طائفة من العرب الكواكب والنجوم كالشمس والقمر والزهرة، وكواكب أخرى كالدبران والعيوق والثريا والشعرى والمرزم وعطاء وسهيل، فكنانة كانت تعبد القمر والدبران، وجرهم كانت تسجد للمشتري، وطيء عبدت الثريا والمرزم وسهيل، وبعض قبائل ربيعة عبدت المرزم، وطائفة من تميم عبدت الدبران، وبعض قبائل لخم وخزاعة وقريش عبدت الشعرى العبور[3].

وكان اليمنيون من أول الشعوب العربية التي بدا تأثير الديانات الأخرى جلياً في عباداتها، لاسيما العبادة الكوكبية، التي أثرت بدورها في نظام الحكم فيها، وقام على أساس هذا الثالوث الكوكبي، (الإله، الحاكم، الشعب)[4].

---

[1] الجبوري، يحيى: **الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه**، ط8، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1997، ص95.

[2] يُنظر: عبد الرحمن، إبراهيم: **الشعر الجاهلي، قضاياه الفنية والموضوعية**، ط1، بيروت, دار النهضة العربية, 1980, ص45.

[3] سالم، السيد عبد العزيز: **دراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام**، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، مصر، (د، ت) جزء1، ص426 .

[4] يُنظر: الموسوعة اليمنية، **مؤسسة العفيف الثقافية**، صنعاء، الجمهورية اليمنية، ط1، بيروت, تنفيذ دار الفكر المعاصر، 1999، ص459.

وقد كشفت البحوث التي قام بها علماء الآثار، انتشار عبادة الشمس والقمر في أرجاء الدولة اليمنية، إلا أنهم كانوا يقدمونه على الشمس، باعتباره زوجاً وأباً [1] .

وكان **السبئيون** أول الأقوام اليمنية التي انتشرت في ديانتها عبادة الكواكب والنجوم، لاسيما عبادة الثالوث (الشمس، والقمر، والزهرة)، وفي القرآن الكريم ما يدلل على عبادتهم لها، من خلال قصة سليمان والهدهد، قال تعالى: فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ" [2] .

ولم تختلف نظرتهم إلى القمر عن نظرة سابقيهم، فعبدوه تحت اسم "المقة"، وقد امتاز هذا الإله بميزات خاصة، جعلته يتبوأ مكانة عظيمة في ديانتهم، فاعتبروه إلههم الكبير، والمقدم عندهم على سائر الآلهة، وقد كان الملوك يتقربون له بالأدعية، والهدايا، وإليه يتوسلون في كل ملمة تنزل بهم [3] .

ومن خلال هذه الخصوصية، لعب هذا الإله دوراً كبيراً في توطيد العلاقة بين الحاكم والشعب، فكانت الدولة السبئية يُعبر عنها من خلاله، كربّ لحاكم سبأ، وكان بمثابة الأب للجميع، فقد أطلق على الملوك ولد المقة[4] .

وكان ملوكهم يستمدون شرعيتهم من خلاله، وكان لا يتم الاعتراف بسلطة الملك، ولا يكتسب شرعيته إلا بزيارة معبده[5] وانتشرت معابده في أرجاء دولتهم، وكانت من أكبر المعابد

---

[1] خان، محمد عبد المعيد: **الأساطير العربية قبل الإسلام**، ط1, القاهرة, مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر 1937 ، ص110.

[2] **سورة النمل:** آية 24 ــ 22.

[3] يُنظر: علي، جواد: **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، ج6, ط3، بيروت، دار العلم للملايين، (د.ت), ص 296.

[4] **الموسوعة اليمنية**، ص459.

[5] المرجع السابق، ص461.

التي عرفتها الجزيرة العربية، وعدت أفضل الأمكنة التي تمّ فيها الاتصال بالآلهة، فأقاموا فيها كثيراً من طقوسهم الدينية[1].

وكان معبد صرواح الكبير من أهم المعابد التي أقيمت له، في القرن الثامن قبل الميلاد، ويعد من أهم آثار اليمن القديمة[2] .

و قد أحاطوا معابده بقداسة خاصة، فقد كان لهم في دخولها شرائع وقوانين لا يمكن تجاوزها أو التغاضي عنها، ويعاقب من يتجاوزها، فعلى سبيل المثال لا يجوز للنجس أن يدخله، وإذا دخله، يُعد مساساً بقدسيته، وورد في نصوصهم:

" أن امرأة دخلت معبده بثوب نجس، ثم ندمت على صنيعها هذا، وأنبها ضميرها على ارتكابها هذا الخطأ، فقدمت كفارة لإلهها راجية منه غفران ذنبها ذلك "[3].

وعدّ ملوكهم الاهتمام بمعبده واجباً مقدساً، يتوارثه بعضهم بعضاً، " وكان من عاداتهم التقرب إليه، بتعمير معبده و تزيينه وتجميله وترخيم ما يطرأ على بنائه من خلل، فإذا عزموا على القيام بمثل هذا العمل، وضعوا في أسفل العمل، كتابة تنصّ على نوع العمل الذي قام به الملك وحدوده ومقداره واسمه واسم أبيه، ليقف عليه الناس "[4] .

واتخذوا الثور رمزاً له، ويبدو أنهم تأثروا بالشعوب السامية ولا سيما اليهود، الذين اتخذوا الرمز نفسه لإله القمر "يهوه" .

ويتضح ذلك من خلال الأسماء والألقاب التي خلعوها عليه، فقد سُمي " المقة شـــهون، وثهون المتكلم والمقة ثور بعل "[5] .

ومن الممكن أن يكون اتخاذ الثور رمزاً له، إنما قُصد به إظهار القوة التي يتصف بها هذا الإله، لأن الآلهة غالباً ما كانت توصف بذلك، هذا فضلاً عن الشبه الكبير بين القمر في

---

[1] يُنظر: نيلسون: **التاريخ العربي القديم،** ص177.

[2] يُنظر: إسماعيل، حلمي محروس: **الشرق العربي القديم وحضاراته،** ط1, الإسـكندرية، مؤسسـة شـباب الجامعـة، 1997، ص224 .

[3] علي، جواد: **المدونات العربية لما قبل الإسلام،** مجلة المجمع العلمي العراقي، مج31، جزء3، بغداد, 1980، ص225.

[4] جواد: **المفصل،** 6/ 132.

[5] علي، جواد: **دراسات في تاريخ الجزيرة العربية،** مطابع جامعة الملك سعود، الرياض، السعودية، 1984، ص108

طور الهلال وقرني الثور، حيث رمز الفن العربي إلى القمر بهلال نحت أو نقش على الأحجار والخشب والمعادن، كما أشير إليه برأس ثور ذي قرنين [1] .

وقد اتخذوا من القرابين وسيلة تقربهم منه، وقد دللوا من خلالها على التواصل الروحي بين العابد ومعبوده واستعداده لتقديم نفسه وكل ما يملك في سبيل إرضائه والتقرب منه، واتقاء غضبه وشره، وكانت في معظمها تقتصر على الثيران[2].

وظهر في نصوصهم إلهٌ آخر للقمر، وهو "هوبس"، ومعناه الجاف أو اليابس وهو وصف للقمر، حيث ظهر منفرداً أحياناً، وأحياناً مع المقة، ولكنه لم يحظ بالأهمية التي حظي بها المقة، ولم يورد المؤرخون إلا القليل عنه [3].

ولم يختلف أساس العبادة عند **المعينيين** عن الأقوام السابقة لهم، وظلت الطبيعة جوهرها، والقمر أساساً لها وقد عُبد تحت اسم "ود"، " ومعنى اللفظ حب و"رضى" أي (رحمة) و"سعد" وحكم أي (حكمة) وصادق وعدل" [4].

وعمت عبادته جميع أنحاء الدولة المعينية والمناطق الخاضعة لها، وقد عدوه رمزاً دالاً على ترابط الدولة وقوتها، وانضوى الشعب المعيني برمته تحت لوائه .

وكما سمى السبئيون أنفسهم أبناء المقة، سمى المعينيون أنفسهم أبناء ود[5]. ويبدو أن تسمية الناس أنفسهم بأبناء إله القمر، كانت من الأمور المستحبة التي درجت عند اليمنيين، وهذا يجسد ما وصل إليه هذا الإله من القداسة والتعظيم، بما تنطوي عليه من دلالات التميز، والهيمنة على مجمع آلهتهم، حيث كان الإله الأوحد الذي تسمّوا باسمه .

ومن الأدلة القاطعة على انتشار عبادته، وروده في القرآن الكريم ــ في سياق حديث سيدنا نوح مع قومه ــ مقدماً على غيره من الآلهة التي ورد ذكرها في الآيات، قال تعالى:

---

[1] يُنظر: جواد: **المفصل**, 6 \ 174 .

[2] يُنظر: عبد الرحمن، إبراهيم: **التفسير الأسطوري للشعر الجاهلي**، مجلة فصول,عدد3، مج1, القاهرة، 1981\ 131.

[3] يُنظر: علي: **المفصل**، 6 / 298 .

[4] نيلسون: **التاريخ العربي القديم**، ص188.

[5] الشيخ، حسين: **العرب قبل الإسلام**، ط1, الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، 1993، ص201.

"وَمَكَرُواْ مَكۡرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرًا"[1] .

وكان من عاداتهم التوجه إليه بالدعاء والسؤال والشكر، ويتجلى ذلك في إحدى الترنيمات الموجهة إليه، وقام الدكتور أحمد كمال زكي بإعطائها شكل الشعر المرسل للإيحاء بأنه كان ينشد:

" وَدٌ إلهُنا الحَكَمْ

رَبُّ الخَلائق والأَفاعي وَالمَنَاجِدِ والبُهُمْ

أنْ يَمْلِكْ ... فَلَهُ الحَيَاةُ

نَسْأَلُهُ فَلا مَضَضْ

في البيد والقِفارِ والأَجَمْ

ولا رَمَضْ

الرَّعْدُ وَرَبَّةُ الأَثَرْ "[2]

يتضح من هذه الترنيمة، أنه رب كل المخلوقات، وسلطته أقوى من سلطة الملك، فهو المسيطر على البشر، والمتحكم بالظواهر الطبيعية، وذلك فضلاً عن مخاطبتهم له بالرب ولم يكن ورود الأفعى في الترنيمة من باب المصادفة، فقد كانت رمزاً للإله "ود" في معين، وجدت على النقوش وعلى الأدوات والنقود والمباخر، وعلى أعمدة المعابد رسومات للهلال وللنجم، ولرؤوس حيوانات خرافية، ولثعابين متشابكة[3] .

وكان له العديد من الأسماء التي تدل على اقترانه بها عند المعينيين، ومنها (وَدّ بَنْحَسْ طِبّ)، ونحس بمعنى نحش أي الحية وطب بمعنى طيب، فيكون المعنى الأفعى الطيبة، والحية رمزاً لـــ "ود"[4].

---

[1] سورة نوح، الآية 22-23. (يغوث: صنم لِمَذْحِج. يعوق: صنم لهمدان. النّسر: اسم صنم لبني الكُلاع) .

[2] زكي، أحمد كمال: **الأساطير دراسة حضارية مقارنة**، ص 197. (رمض: شدة الحر. الأجم: مفردا أجمة,وهي المكان الكثيف الشجر) .

[3] يُنظر: **الموسوعة اليمنية**، ص460.

[4] يُنظر: علي: **المفصل**، 6 / 295.

إن اقتران الأفعى بالقمر له ما يبرره، فهو يتجدد باستمرار، كذلك الأفعى تبدل جلدها بين حين وآخر، وفي ميثولوجيا الشعوب القديمة عدّت الحية موزعة للخصب، وتجدد الخلق عن طريق تجدد جلدها، كما أنها شكلت مع القمر أهم رموز الخصب المقدسة لدى الإنسان القديم[1].

وعامله المعينيون باحترام وعناية شديدتين، باعتباره طارداً للأرواح الشريرة، وحامياً للأطفال، ويتضح ذلك من خلال التعويذات والتمائم التي كانت تعلق في رقاب الأطفال، فقد وُجد اسمه محفوراً على أشياء ذات ثقوب تُعلق على عنق الأطفال لتكون تميمة وتعويذة يُتبرك بها[2].

ارتبطت ديانة **الحضرميين** بالسماء، كالديانات السابقة لها، فظهرت عندهم عبادة الثالوث، وكان القمر المعبود الرئيسي فيها ويبدو تأثير البابليين واضحاً في تسميتهم لإله القمر، فقد أطلقوا عليه اسم " سين"، وكان الإله الرئيس الذي توجهوا إليه بالعبادة والتقديس، و ذلك فضلاً عن كونه الإله القومي لهم[3] .

وكانوا حريصين كل الحرص على إرضائه، وتجنب غضبه، تمثل ذلك بما ورد في أحد نقوشهم القديمة، التي يقول فيها صاحبها " أن نفسه وروحه وأولاده ومقتنياته ونور عينيه وما يفكر في قلبه هو لسين إله حضرموت " [4] .

ووصفوه بكثير من الصفات، التي دللت على ما وصل إليه من القداسة والتعظيم، وأهلته إلى احتلال هذه المكانة، ومن أهمها، " ذوعلم " أي ذو العلم بمعنى العالم، المطلع على كل شيء[5] .

كما تأثروا بالسبئيين والمعينيين بفكرة انتسابهم إلى إله القمر، الذي عُد أباً في الثالوث، فـــ "سموا أنفسهم أبناء سين "[6].

---

(1) يُنظر: نعمة: **ميثولوجيا وأساطير الشعوب القديمة**، ص39.

(2) يُنظر: علي: **المفصل**, 6 / 54.

(3) يُنظر: سوسة، أحمد: **مفصل العرب واليهود في التاريخ**، ط5، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، 1981، ص279.

(4) دروزة: **تاريخ الجنس العربي**، جزء 1، ص87.

(5) يُنظر: علي: **المفصل**، 6 / 301.

(6) الشيخ، **العرب قبل الإسلام**، ص202 .

ويرى بعض المؤرخين أن ديانات جميع الساميين الغربيين والعرب الجنوبيين تتصل بعبادة القمر، فهو الإله الرئيس الذي ينفرد بالكثرة المطلقة من الأسماء والألقاب [1] التي يتبين من خلالها أنها ترمز إلى الأبوة الإلهية في هذه الديانات، يقول الدكتور إبراهيم عبد الرحمن: أنها أسماء تعكس صفات خاصة بالأبوة، حيث كانوا يحسون بحاجتهم إليه كحاجة الأبناء إلى آبائهم[2] .

وهكذا يتبين من هذا التشابه في نظرة الشعوب اليمنية إلى القمر، أنه عُد المعبود الرئيس، والإله الأب الذي لا غنى لهم عنه في تسيير حياتهم والتحكم في مصائرهم. وإذا نظرنا إلى الشعوب السامية ــ التي يُعد اليمنيون جزءاً منها ــ نجد شيوع هذه النظرة، فهم يرون أن القبيلة والشعب عائلة واحدة، ترجع إلى أب واحد، وذلك الأب الأسطوري هو إله القبيلة أو إله الشعب، وفي العصر الذهبي لعبادة الأفلاك كان أبو القبيلة هو القمر[3] .

وكانت علاقة **العرب الجاهليين** بالطبيعة علاقة متينة، وقد أحسوا بها إحساساً عميقاً، مما ولّد عندهم صراعاً خفياً كان له الأثر الأكبر في مجريات حياتهم، حيث غدا " المصدر الحقيقي لفكر العصر وسلوكه ونظامه الاجتماعي وطبيعة العلاقات بين أفراده " [4]، كما أنه كان أهم المرتكزات الأساسية التي غذت في نفوسهم غريزة التغلب على الحياة ومقاومة قسوتها. ولكن وبالرغم من ذلك كان الخوف من الطبيعة هو الشعور العام المسيطر على نفوسهم، تجسد في التقرب منها بالعبادة والتقديس، لعلهم بذلك يتجنبون سطوتها ويكتسبون عطفها .

ومثلت فكرة التثليث جوهر العبادة عند عرب الجاهلية، ويؤلف هذا الثالوث الإلهي عائلة صغيرة، يلعب فيها القمر غالباً دور الأب والشمس دور الأم، والزهرة دور الابن أو الابنة أحياناً أخرى[5] .

---

(1) يُنظر: المطلبي، عبد الجبار: **قصة ثور الوحش وتفسير وجودها في القصيدة الجاهلية**، ع2, مجلة كلية الآداب، بغداد، العراق، 1969 \ 231 .

(2) يُنظر: عبد الرحمن، إبراهيم: **الشعر الجاهلي, قضاياه الفنية والموضوعية**، ص 42 .

(3) يُنظر: نيلسون: **التاريخ العربي القديم**، ص210.

(4) العشماوي، محمد زكي: **قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث**، ط1, بيروت، دار النهضة العربية للطباعة، 1984، ص179.

(5) يُنظر: عبد الرحمن، إبراهيم: **التفسير الأسطوري للشعر الجاهلي**، مجلة فصول، العدد: 3, 1981\ 129.

وكان القمر من أكثر أركان هذا الثالوث عبادةً وتقديساً عندهم، لما تركه من تأثير ملموس في حياتهم، المعتمدة في الأساس على الرعي والصيد والتنقل في الصحراء القاحلة، والتي كانت في معظمها لا تتم إلا ليلاً، فأنسوا به، لأنهم" يجلسون فيه للسمر ويهديهم السبل في سرى الليل في السفر، ويزيل عنهم وحشة الغاسق، وينم على المؤذي والطارق" [1].

وهذا كله يأتي بعد أن تكون الشمس قد صبت عليهم حممها المحرقة طوال النهار، التي عبدوها وقدسوها، من أجل اتقاء حرارتها الشديدة، لما تركته من تأثير سلبي على حياتهم، وحياة أنعامهم .

كانت للإله القمر عند الجاهليين مكانة عظيمة، لتتناسب ومستوى هذا التأثير، فعُد " الإله الرئيس، الذي ينفرد بالكثرة المطلقة من الأسماء والألقاب في الأساطير وفي الحياة اليومية وفي الطقوس الدينية وفي التقويم، وفي أسماء الأعلام نجده ظاهراً قوياً مهيمناً على سائر نواحي الحياة السياسية والدينية "[2] .

وعُرف عندهم بأسماء عديدة، مثل: ورخ وسين وشهر، فهذه الأسماء غالباً ما نجدها في مختلف النقوش سواءً كانت في جنوب بلاد العرب أو بلاد الحبشة، أو في شمال البلاد العربية[3]، ودعي أيضاً بالاسم السامي المعروف " إيل " أي الله؛ وهناك صلة وثيقة بينه وبين القمر، وذلك من خلال أعلام جنوبية كثيرة منها "أل ذرخ"أي إيل يضيء " وإل شرح" أي إيل يتلألأ " وإل يبع" أي إيل يشع[4].

وأشهر هذه الأسماء التي عُرف بها شهر[5]. وهو الاسم الشائع في الكتابات الجاهلية، يقول ابن منظور: "الشهر هو القمر, سُمي بذلك لشهرته وظهوره, وقيل إذا ظهر وقارب الكمال"[6]، وظل اسم شهر متداولاً إلى يومنا هذا، ليدلل على الثلاثين يوماً التي يقطعها من ظهوره حتى اختفائه .

---

(1) التيفاشي، أبو العباس أحمد بن يوسف: **سرور النفس بمدارك الحواس الخمس**، تحقيق: إحسان عباس، ط1، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1980، ص72.

(2) نيلسون: **التاريخ العربي القديم**، ص207.

(3) يُنظر: المرجع السابق، ص209.

(4) يُنظر: السواح: **موسوعة الأديان**، ج 2، ص310.

(5) يُنظر: علي: **المفصل**، 6 / 53.

(6) ابن منظور، جمال الدين أبو الفضل: **لسان العرب**، ط3، بيروت، مؤسسة التاريخ العربي، 1993 ، مادة شهر.

كما ورد باسم (أرخ) ــ بمعنى ولد البقرة ــ رمزاً للإله القمر في أشعارهم، مما يؤكــد وبجلاء ــ ما أوردناه سابقاً ــ وثوق العلاقة بين الإله القمر والثور، يقول أمية بن أبي السلط : (الوافر)

وَمَا يَبْقَى عَلَى الحِدْثَانِ عُفْرٌ بِشَـــــاهِقَـــةٍ لَهُ أُمٌّ رَؤُومُ
تَبِيتُ اللَّيْلَ حَانِيَةً عَلَيـــــــهِ كَمَا يَخْرَمِّسُ الأَرَخُ الأَطُومُ[1]

ووصفوه بصفات عديدة، نتبين من خلالها أنها لا تليق إلا بإله، ومنها "كهلن" أي الكهل، وتعني القدير والمقتدر، ونُعت أيضاً بــ " حكم وحاكم " و "صدق وصادق" و"علم وعالم وعلام " وبنعوت أخرى من هذا القبيل، وهي من نوع الأسماء الحسنى لله عند المسلمين[2]. ولعل سبب هذا الوصف يعود في الأساس إلى مكانته الدينية بوصفه الإله الأب، والإله الأكبر في تعظيمهم له واكتسابه مكانة دينية عالية بينهم، لهذا تحاشوا ذكر القمر باسمه في أكثر نصوصهم الدينية بصفة خاصة إذ اكتفوا بالإشادة بصفاته العديدة التي كانوا يكنون بها عنه، فضلا عن اتخاذهم له العديد من الأصنام التي تعبدوا لها [3] .

ولم يكن مجمع الآلهة الجاهلي بمعزل عن آلهة الحضارات المجاورة، فقد نقلوا إليه كثيراً من آلهة تلك الحضارات، لا سيما الآلهة اليمنية، وأشهرها إله القمر "ود" إله معين القومي، وقد عمت عبادته جميع أنحاء الجزيرة العربية حتى مجيء الإسلام، ويذكر ابن الكلبي في كتابه الأصنام " أن عمرو بن لحي دفعه إلى عوف بن عذرة بن كلب بن قضاعة، فدفعه إلى وادي القرى، فأقره بدومة الجندل، وسمى ابنه عبد ود، فهو أول من سُمي به، وهو أول من سمى عبد ود، ثم سمت العرب به بعده، وجعل عوف ابنه عامراً سادناً له، وكان أبوه يبعثه إليه باللبن ليسقيه فيشربه " [4]، وتدلل رواية ابن الكلبي على شيوع عبادته بينهم .

---

[1] أمية بن أبي الصلت: **الديوان**, تحقيق: سجيع جميل الجبيلي, ط1, بيروت, دار صادر, 1998, ص125.(العفر: ولد الوعل. الأرخ: ولد البقرة. يخرمس:يُذِلُ ويُخْضِع. الأطوم: الضمّام بين الشفتين).

[2] يُنظر: علي: **المفصل**، 6 / 54 .

[3] يُنظر: عبد الرحمن: **التفسير الأسطوري للشعر الجاهلي**، 3 / 129.

[4] ابن الكلبي، هشام بن محمد: **الأصنام**، تحقيق أحمد زكي، ط1, القاهرة، الدار القومية، 1965، ص68.

ومما يدلل على شعبيته بين القبائل، انتساب بعضهم إليه، وقد وردت الإشارة إلى ذلك في بيت عنترة : (الطويل)

فَدُونَكَ يَا عَمْرُو بنُ وُدٍّ وَلا تَحُلْ   فَرُمْحِيَ ظَمْآنٌ لِدَمِّ الأَشَاوِسِ[1]

ومبالغة في تعظيمه ظهرت عندهم قبائل تسمت باسمه وانتسبت إليه، وقد تجلى ذلك في بعض أشعارهم، يقول حاتم الطائي : (البسيط)

إنَّ بَنِي عَبْدِ بنِ وُدٍّ كُلَّمَا وَقَعَتْ   إِحْدَى الهِنَاتِ أَتُوهَا غَيْرَ أَغْمَار[2]

ويقول القتال الكلابي : (الطويل)

هُمْ أَدْرَكُوا مِنْ عَبْدِ وُدٍّ دِمَاءَهُمْ   غَدَاةَ بَنَاتِ القَيْنِ وَالخَيْلُ جُنَّـــحُ[3]

وأخذ هذا الإله قسطاً لا بأس به من التقديس والعبادة، مع باقي الأصنام الأخرى، وكعادتهم، لم يتعبدوا له بصورة مباشرة بل " اتخذوا له صنماً على عجل يجره أربعة وبيد الصنم جوهرة، ومن دينهم أن يسجدوا له ويعبدوه، وان يصوموا النصف من كل شهر، ولا يفطروا حتى يطلع القمر، ثم يأتون صنمه بالطعام والشراب واللبن، ثم يرغبون إليه، وينظرون إلى القمر ويسألونه حوائجهم ...، وفي نصف الشهر إذا فرغوا من الإفطار أخذوا في الرقص واللعب بالمعازف بين يدي الصنم والقمر[4].

ويتبين من ذلك أنهم ــ كما الديانات السامية القديمة ــ اتخذوا الثور رمزاً للقمر، بعد أن لاحظوا التشابه الكبير بين قرنيه وبين صورته عندما يكون هلالاً، وقد ورد ت صورته رمزاً للقمر في نصوصهم الدينية، حيث سموا القمر فيها بالثور [5].

يقول المؤرخ (جورج غيرستر): إن الثور كان في بعض الحقب التي سبقت الإسلام معبودا لأنه يمثل الثراء والقوة، فقد كانت قرونه تمثل القمر النامي [6] .

---

[1] عنترة: **شرح الديوان**, شرح وتحقيق: عبد المنعم عبد الرؤوف شلبي، القاهرة، مؤسسة فن الطباعة، (د.ت), ص102.

[2] حاتم الطائي: **الديوان**, تحقيق: فوزي عطوي, ط1, بيروت, دار صعب, 1980, ص91. (الهنات: الأمور العظيمة).

[3] القتال الكلابي: **الديوان**, تقديم وتحقيق: إحسان عباس, ط1, بيروت, دار الثقافة,1961, ص82.

[4] الألوسي، محمود شكري: **بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب**، ج2, ط1, بيروت، دار الكتب العلمية، ص216.

[5] يُنظر: علي, جواد: **تاريخ العرب قبل الإسلام**, ج5, ص143.

[6] يُنظر: غيرستر, جورج: **الصحراء الكبرى**, ترجمة: خيري حماد, ط 1, بيروت, المكتب التجاري,1961, ص64 .

ومما يدلل ــ أيضا ــ على هذا الارتباط، وجود صور للثور في معابدهم، قدمها عابدوه كقرابين للإله القمر أو نذورا كانت عليهم له [1] .

وربط بعض الباحثين بين القمر وصورة الثور الوحشي الذي يظهر مع قدوم الليل ـــــ باعتباره رمزاً للقمرـــــ، محتمياً من الريح والمطر بشجرة الأرطى، وهي صورة توحي بالأصل الذي نبعت منه، فالقمر الذي يظهر، في بداية الليل يتعرض في ليل الشتاء للسحاب المظلم فيحجبه، فيتصور ذهن الجاهلي من خلال هذه الظواهر الطبيعية الشريرة، بأن هناك عدواناً على الإله [2] .

وقد استطاعوا من خلال الربط بينهما، أن يجسدوا للثور في أذهانهم بعداً دينياً، انعكس فيما بعد على بعض أمور حياتهم. واتخذوا من هذا الرمز وسيلة تقربهم منه، وذلك بتسمية أبنائهم باسم ثور، ومن هذه الأسماء التي تسمت به " ثور بن مالك بن معاوية بن بكيل "[3].

وكان من تقاليدهم تسمية الأماكن بأسماء أول الأشخاص الذين يسكنونها، ومنها مكانهم المقدس جبل مكة، حيث سُمي باسم ثور نسبة إلى أول من سكنه وهو ثور بن عبد مناة [4].

كما أن القمر بمنازله المتغيرة قد ارتبط ــ عند الجاهليين ــ منذ وقت مبكر بطقوس الزراعة والخصب واستنزال المطر، فرأوا الهلال كقرون الثور، لما يتصف به من قوة الإخصاب [5]. ومن الظواهر الشائعة بين العرب الجاهليين، تسمية قبائلهم وبعض بطونهم باسم القمر، تيمناً وتبركاً به " فكان من أحيائهم بنو قمر ومن بطونهم بنو قُمير" [6].

وقد ورد ذكر بني قُمير في شعر مالك بن حريم الهمذاني، بعد أن قتل سيد بني قمير آخذاً بثأر أخيه الذي قتله بنو قمير غيلةً، فقال مفتخراً : (المنسرح)

---

(1) يُنظر: عبد الرحمن: **الشعر الجاهلي قضاياه الفنية والموضوعية**، ص47.

(2) يُنظر: البطل، علي: **الصورة في الشعر العربي حتى نهاية القـــرن الرابـــع الهجـــري**، ط3، بيـــروت، دار الأنـــدلس، 1983، ص130.

(3) السهلي، محمد توفيق، والباش حسن: **المعتقدات الشعبية في التـــراث العربـــي**، ط1, دمشـــق، دار الجليـــل، (د.ت)، ص278 .

(4) ابن بنين: **اتفاق المباني واختلاف المعاني**، تحقيق الدكتور يحيى جبر، ط1, دار عمار، عمان، 1985، ص82.

(5) يُنظر: الشوري, مصطفى عبد الشافي: **الشعر الجاهلي تفسير أسطوري**, ط1, القاهرة, الشركة العالمية للنشـــر, 1996, ص120.

(6) الحوت، محمود سليم: **في طريق الميثولوجيا عند العرب**، ط1، بيروت، مطبعة دار الكتب، 1995، ص97.

بَنِي قُمَيْرٍ قَتَلْتُ سَيِّدَكُمْ   أَثْوَابُهُ مِنْ دِمَائِه رِدَعُ[1]

وأدى إيمانهم بالأجرام السماوية إلى نسج الكثير من الخرافات، لا سيما المتعلقة بالقمر، والذي انعكس على بعض معارفهم، يتمثل ذلك فيما كانوا يُؤمنون به في قدرته على ختن المواليد[2]، فقد كانت العرب في الجاهلية تزعم أن الغلام الذي يولد في القمراء يختنه القمر، يقول ابن أبي الحديد " يجوز عندنا أن يكون ذلك من خواص القمر، كما أن من خواصه إنتان اللحم وإبلاء الكتان " [3] .

وكان الإنسان الجاهلي على معرفة بعلم الفلك، نتج عنها ملاحظته لحركة الثالوث الكوكبي، مما دفعه إلى الاعتقاد بفكرة زواج القمر والشمس، فقد لاحظ سير القمر في السماء كل شهر، فوجد أنه يمشي مسرعاً في سيره بخلاف الشمس، حتى إذا ما جاء وقت النقصان استطاع أن يلحق بها، وفي الوقت نفسه يأخذ في الاختفاء تدريجياً، حتى يغيب بعد أن يلحق بها ثلاث ليالٍ، ويظهر بعدها هلالاً ثانياً، ومن ثم يأخذ في الزيادة ثانيةً، ويبتعد عنها، فحركاته وقربه أو بعده منها، واختفاؤه ثلاث ليالٍ شهرياً حمله على الاعتقاد بأن ذلك زواج سماوي **[4]**. وأبطل القرآن الكريم ما كانوا يعتقدون حول هذه الظواهر، قال تعالى: "وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ " [5].

وجاء في تفسير هذه الآيات أن " المنازل ثمانية وعشرون منزلاً ينزل القمر كل ليلة منها بمنزل ... فإذا صار القمر في آخرها عاد إلى أولها فيقطع الفلك في ثمان وعشرين، ثم يستتر، ثم يطلع هلالاً فيعود في قطع الفلك على المنازل ... والشمس لا تدرك القمر لتبطل

---

[1] القالي، أبو عليّ إسماعيل بن القاسم: **الأمالي**، ج3، بيروت، دار الآفاق الجديدة، 1980، ص123.

[2] يُنظر: جبر، يحيى: **التكون التاريخي لاصطلاحات البيئة والفلك**، ط1، نابلس، الدار الوطنية، 1996 ، ص12.

[3] يُنظر: الجارم، محمد نعمان: **أديان العرب في الجاهلية**, ط1، القاهرة، مطبعة السعادة، 1923، ص121.

[4] يُنظر: نيلسون: **التاريخ العربي القديم**، ص202.

[5] **سورة يس:** الآيات 38 ــ 40 .

معناه، أي لكل واحد منهما سلطان على فلكه فلا يدخل إحداهما على الآخر فيُذهب سلطانه، فإذا طلعت الشمس لم يكن للقمر ضوء وإذا طلع القمر لم يكن للشمس ضوء [1] .

ويبدو أن هذه النظرة إلى القمر قد أثرت تأثيراً كبيراً في جعله أحد معبوداتهم الرئيسة، إذ انعكس دور الأب في العائلة العربية على دور القمر في العائلة الفلكية، فمن المعروف أن العائلة العربية عائلة أبوية يمثل فيها الأب السلطة المطلقة، فهو الآمر والناهي يلتزم أفراد العائلة بكل ما يصدر عنه، فالحاجة الشديدة للقمر كأب للآلهة وحام للإنسان، تتشابه مع الحاجة الشديدة للأب كحام ومعيل للعائلة، " وعلى هذا النحو نستطيع أن نفهم معنى أسمائه ود، وأب، وعم "[2].

وارتبط الزمن ــ في فكر الجاهليين ــ بالقمر، إذ كانوا يستخدمون اختلاف منازله واختلاف نوره وظلامه في قياس الوقت[3]، لا سيما الشهور، إذ أنها كانت مبنية على مسير القمر، ومستخرجة من حركاته المختلفة، وكانت اوائلها مقيدة برؤية الأهلة[4] .

وعن القمر ومنازله يقول ابن كثير" به تعرف الشهور، وبالشمس تعرف الليالي والأيام، وبذلك تعرف السنين والأعوام "[5] .

وأدى القمرــ أيضاً ــ دوراً أساسياً في التقويم الجاهلي، وذلك من خلال سيطرته المطلقة على مواعيدهم وتقويمهم، حيث أصبح التقويم قمرياً بالمطلق، ولعل السبب يعود إلى أن التقويم القمري يتطلب دقة في الحساب ... وهو لا يحتاج إلى تصحيح مستمر، حيث تبين لهم ما يتمتع به من قدرة كبيرة على تقسيم دورة الأرض إلى اثنتي عشرة ساعة، وعلى كفاءة عالية في قياس الزمن[6] .

---

(1) القرطبي: **الجامع لأحكام القرآن**، ج15, ط1, بيروت, دار الكتاب العربي، 1985، ص31, 32.

(2) عبد الرحمن: **الشعر الجاهلي قضاياه الفنية والموضوعية**، ص42.

(3) يُنظر: المرزوقي، أبو علي الأصفهاني: **الأزمنة والأمكنة**، ج2, ط1، حيدرأباد، مطبعة مجلس دائرة المعارف، 1332هـ، ص45.

(4) يُنظر: الخوارزمي، أبو الريحان محمد ابن احمد البيروني: **الآثار الباقية عن القرون الخالية**، ط1، بغداد، مكتبة المثنى، (د. ت)، ص5 .

(5) ابن كثير، أبو الفداء الحافظ الدمشقي: **البداية والنهاية**، ج1, ط2، بيروت، مكتبة المعارف، 1977م، ص 34.

(6) يُنظر: زكي: **الأساطير، دراسة حضارية مقارنة**، ص104 .

وقد انعكس ذلك على معبوداتهم، فظهرت عندهم أسماء معبودات قمرية ذات صلة بالتقويم، فقد ورد " في النقوش العربية الجنوبية "ورخن" وهو يدل على الهلال، واستعملت ــ في اللغات السامية كلها تقريباً ــ ألفاظٌ مشابهة لهذه اللفظة لما تحمله من معان متصلة بالهلال منها: "يرح" بالعربية، و"يرحا"بالسريانية والآرامية، و"أرخو" بالآشورية، و"أرخ" بالبابلية، و"ورخ" بالعربية اليمنية والحبشية وكلها بمعاني القمر والهلال والشهر، ومنها جاء الفعل أرخ بالعربية الفصحى، أي حسب الأيام والشهور على دورة القمر "[1] .

ويقول ابن منظور " التأْريخ هو تعريف الوقت "[2].

وقد جاء في القرآن الكريم ما يقطع الشك باليقين على الدور الذي لعبه القمر في مواقيتهم، قال تعالى: "يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ "[3].

ويقول العلماء في تفسير هذه الآية إن " أحوال الأهلة في زيادتها ونقصانها هي مواقيت للناس والحج، أي هي مواقيت وقت يحتاج الناس إلى مقاديرها في صومهم وفطرهم وعدة نسائهم ومحل ديونهم وحجهم، فبين سبحانه أن وجه الحكمة في زيادة القمر ونقصانه ما تعلق ذلك من مصالح الدين والدنيا، لأن الهلال لو كان مدوراً أبداً مثل الشمس لم يكن التوقيت به ...، لأنه سبحانه نصّ على أن الأهلة هي المعتبرة في المواقيت والدلالة على الشهور [4] .

واقترب إله القمر من لفظ الجلالة الله أو إله في شمال الجزيرة العربية فــ " إل أو "إله" في العصر التاريخي، والتي ترجع إلى عصر تعدد الآلهة، كان يُنظر إليه كإله قمري" [5].

---

(1) مهران: **مصر والشرق الأدنى القديم،** ج 7, ص342 .

(2) ابن منظور: **باب أرخ.**

(3) **سورة البقرة:** آية 189

(4) الطبرسي، أبو علي الفضل بن الحسن: **مجمع البيان في تفسير القــرآن،** ج1, ط1, صــيدا، مطبعــة العرفــان، 1935، ص284

(5) نيلسون: **التاريخ العربي القديم،** ص214 .

وتتضح من خلال هذا اللفظ العلاقة القوية بين الأيل ــ الحيوان المقدس ــ والقمر" فهي مكونة في أصلها من أداة النداء أي واسم الإله الأكبر" إل" حيث قلبت الهمزة ياء وأدغمت في الأولى. وكان الإنسان القديم يتوجه إلى ربه وإلهه "إل" بالاستعانة والدعاء مستخدماً أداة النداء للقريب للتعبير عن قربه من إلهه [(1)] .

وقد ذهب الدكتور إحسان الديك إلى أبعد من ذلك، حين أكد وجود صلة بين الاسم الحيواني ونظيره الإلهي (الوعل \ البعل، والأيل \ أيل)، فالعلاقة بين اسمي هذا الحيوان هي العلاقة نفسها بين اسمي الإلهين "بعل وأيل"، وأنها جميعاً حيوانات مقدسة، وآلهة معبودة، أرضية وسماوية، سفلية وعلوية، اتحدت مع بعضها بعضاً لتدلل على الإله الأكبر "إل" إله القمر [(2)] .

وقد ورد في نقوشهم النظر إليهما كما لو أنهما زوجان، وان القمر هو المذكر والشمس هي الأنثى، وثبت من تلك النقوش أيضاً أن "اللات" أو" إلهة " اسم من أسماء الشمس، لذلك من الجائز أن يكون "إل" أو "إله" اسم من أسماء القمر " [(3)].

وتؤكد الأساطير التي وردت في تاريخ الأديان أن الله اسم من أسماء القمر:

" **ثلاثةُ أيّامٍ وثَلاثُ لَيالٍ**

كان اللهُ في خُصومَةٍ مع الشَّمسِ

هَزَمَتْ الشَّمسُ القَمَرَ

بِحَجَرٍ فَضِيّ

وهذه الخصومة التي تدوم ثلاثة أيام إنما تشير إلى الأيام التي يتصل فيها القمر بالشمس، بدليل ذكر لفظ قمر عِوضاً عن الله " [(4)] .

وهيمن القمر على مجمع الآلهة الجاهلي، وقد تفوقت عبادته على عبادة أشهر الآلهة الجاهلية " مناة واللات والعزى " وقد ذهب بعض الباحثين إلى أبعد من ذلك حيث زعموا " أن

---

(1) الديك: **الوعل صدى تموز**, ص42.

(2) المرجع السابق, ص43.

(3) نيلسون: **التاريخ العربي القديم**, ص215.

(4) المرجع السابق، ص215.

بنات الله الثلاث مناة واللات والعزى إنما هي آلهات القمر، فمناة القمر المظلم، واللات القمر المنير، والعزى الاثنان معاً " [1] .

وقد يبدو هذا الزعم صحيحا, فاتخاذهم للقمر أباً في العائلة الكوكبية, يحمل بين طياته دليلا أكيداً على هذه الهيمنة المطلقة, إذ أن الأب في العصر الجاهلي كان هو المسيطر على شؤون الأسرة, وهذا ما انعكس بدوره على القمر في العائلة الكوكبية.

سادت في كثير من الأديان فكرة التقرب للمعبودات، بتقديم الأضاحي والقرابين وأداء الطقوس الدينية، متخذين منها وسيلةً لإيصال رغباتهم إلى عالم السماء، والتوسل إليها لدفع الأضرار وجلب الخير، من هنا قام الإنسان الجاهلي ـــــ كغيره من الشعوب ـــــ بالتقرب إلى الآلهة، لاسيما إله القمر، من خلال تقديم القرابين، وأداء الطقوس والشعائر الدينية في معبده.

وبقيت آثار عبادة القمرـــــ على قلة انتشارها بعد الإسلام ــ قائمةً، ومن هذه الآثار، اتخاذ المسلمين شعار الهلال على المآذن، وهو من الرموز الجاهلية والسامية للقمر، فـــــ "قد أشار العرب القدماء للقمر والشمس بهلال أفقي ودائرة، وينقل الدكتور أحمد زكي عن الهمذاني في الجزء الثامن من الإكليل أن رئام المقدس فوق جبل إتقان من أرض همذان، كان منتجعاً للحجيج، وفيه قلعة أمام بابها الضخم حائط نُقشت عليه دائرة الشمس، وأُضيف إليها الهلال " [2].

وما تزال بعض المعتقدات حول القمر مرعية في بعض الأقطار، وخاصة فيما يتصل بذبح بعض الحيوانات، أو فلاحة البساتين، والأمر الذي ينظمها هو تغيرات القمر [3] .

وارتبط القمر في بعض المعتقدات بالمد والجزر وانعكاسهما على المولود الجديد" فولادة الطفل والقمر باهت, أي في أخريات دورته أو أثناء الجزر، نذيرٌ بالمرض، لأن الحياة ينبغي أن تجري مع المد وتذهب مع الجزر" [4] .

---

(1) الحوت، محمود سليم: **في طريق الميثولوجيا عند العرب**، ص97.

(2) زكي: **الأساطير**، ص 77 .

(3) يُنظر: العنتيل: **الفلكلور ما هو**، ص127.

(4) المرجع السابق، ص125.

ومن الأدلة الواضحة التي وردت في القرآن الكريم، والتي تثبت انتشار عبادة الثالوث الكوكبي بين العرب والأقوام السابقة، قصة إبراهيم عليه السلام، فعلى الرغم من أنه نبيّ بُعث للدعوة إلى عبادة الله إلاّ أن هذا الثالوث لفت نظره وهمّ بعبادته، لولا هداية الله وعنايته. قال تعالى: "فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَـٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَـٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَـٰذَا رَبِّى هَـٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَـٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ" [1].

بينت هذه الآيات عبادة قوم إبراهيم لهذا الثالوث المقدس، إلى درجة أنه كاد أن يقع في عبادتها فقد " رأى الكوكب فأعظمه وأعجبه نوره وحسنه وقد كان قومه يعبدون الكواكب، فقال هذا ربي على سبيل الفكر، فلما أفل علم أن الأفول لا يجوز على الإله، فاستدل على ذلك أنه مُحدَث مخلوق، وكذلك كانت حاله في رؤية القمر والشمس فإنه لما رأى أفولهما قطع على حدوثهما واستحالة إلهيتهما "[2] .

وزيادة على ذلك، نتبين أمراً هاما في هذه الآيات، ألا وهو تذكير القمر من خلال قوله " فلما أفل"، فمن المعروف أن العرب والأقوام السابقة عدّوا القمر إلهاً مذكراً، وهذا دليل آخر على عبادته .

بقيت هذه المنظومة الدينية منتشرة في معظم أنحاء الجزيرة العربية، إلى أن جاء دين التوحيد، الذي أخرج الناس من الظلمات إلى النور، داعياً إلى ترك عبادة الأرباب وعبادة ربّ الأرباب، ناهياً عن السجود للشمس والقمر. قال تعالى: "وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ" [3]. وهذه الآية كذلك دليل آخر على انتشار عبادة النيرين الشمس والقمر .

---

[1] **سورة الأنعام**: الآيات 76 ــــ 78.

[2] الطبرسي: **مجمع البيان في تفسير القرآن**، ج3, ص323 .

[3] **سورة فصلت**: الآية 37.

وهكذا، فإن العرب لم يكونوا بمعزل عما يحيط بهم من أحداث ـــ كونهم جزءاً لا يتجزأ من الحضارة العالمية ـــ خاصة فيما يتعلق بالمعتقدات والآلهة، فقد ظهرت عندهم عبادة الكواكب والنجوم, لما تركته من أثر كبير في حياتهم, وبخاصة هذا الكوكب المميز في هذه الصحراء الكبيرة التي لا يرى فيها غيره في حله وترحاله، فمن الطبيعي أن يتوجه إليه بالعبادة والتقديس، وإقامة المعابد والرموز له تعبيراً عن الطاعة والخضوع .

ونخلص إلى القول: إنّ بيئة الإنسان المحيطة هي مصدر المعتقدات والآلهة، ومنبع الأساطير والميثولوجيا التي سادت عند كثير من الشعوب، وإن اختلفت الأسماء والألقاب التي وسموا بها آلهتهم، وقد ارتكز معظم هذه العبادات على تقديس الثالوث المعروف (الشمس، والقمر، والزهرة)، ومن الواضح في هذه الديانات أن القمر كان أكثرها تقديساً، من خلال اعتباره أباً وزوجاً، فضلاً على التأثير الكبير الذي تركه في حياة الشعوب التي عبدته، ومن الثابت أيضاً أن معابده ـــ التي انتشرت على طول بلدان هذه الشعوب وعرضها ـــ كانت أكبر معابد الآلهة وأكثرها قدسيةً، وهذا ما شهد به الباحثون والمؤرخون، الذين سلطوا الأضواء وما زالوا يسلطون على ميثولوجيا الشعوب التي عبدته ومعتقداتها .

الفصـــل الثـــاني

مواضع ورود القمر في الشعر الجاهليّ

المبحث الأول: القمر والغزل

المبحث الثاني: القمر والرثاء

المبحث الثالث: القمر والمدح

المبحث الرابع: القمر والهجاء

المبحث الخامس: القمر والحرب

المبحث السادس: القمر والفخر

المبحث السابع: القمر والحيوان

الفصل الثاني

مواضع ورود القمر في الشعر الجاهليّ

لفت القمر بأطواره المختلفة نظر الشعراء الجاهليين، فأثار دهشتهم، وسَحرهم بفتنته وجماله، فهيمن على إحساسهم، وفجر فيهم مشاعر غامضة، تموج بالإعجاب والإثارة .

فتعاملوا معه باعتباره جزءًا مهمًّا من الطبيعة، وعنصراً متميزاً من عناصرها، ومكوناً أساسياً من مكونات وجودها .

وقد شكل القمر ــ بكل ما يحمله من دلالات ومعانٍ ــ ملاذاً واسعاً يُبرز من خلاله الشاعر الجاهلي كل ما يدور في نفسه من عواطف ومشاعر وأحاسيس، كما غدا مرتبطاً بحياته ارتباطاً مباشراً، في حله وترحاله .

والقمر في التجربة الشعرية الجاهلية، يتلون بانفعالات الشاعر ورؤيته، فيصبح حضوره حضوراً متعدد الألوان والسمات، وذا دلالات نفسية متنوعة، حيث تبدلت ملامحه وتغيرت واختلفت دلالاته وتباينت صوره، تبعاً لتنوع المشاعر والمواقف عند الشاعر .

وعند تتبعنا مواضع ورود القمر في الشعر الجاهلي، وجدت أنه لم يحظ بقصائد شعرية كاملة، إذ لم أعثر فيما وقع بين يدي من مصادر الأدب على دراسة متخصصة تولي عنصر القمر في أشعار الجاهليين اهتماماً واضحاً، وإنما ورد في ثنايا القصائد، كأبيات متفرقة، لكنها زاخرة بالمعاني والدلالات التي تعبر عن موقف الشاعر وتجربته الشعورية .

وقد حرصت في هذا الفصل على تبيان المواضع التي ورد فيها القمر في شعر الجاهليين، مرتبة حسب كمّ الأبيات في كل موضع:

المبحث الأول

القمر والغزل

أدى عشق المرأة دوراً مهماً في حياة الرجل الجاهلي, وهو من العواطف الإنسانية الخالدة التي استطاع الشاعر الجاهلي من خلالها أن يرسم صورة مثالية لمحبوبته، ويعكسها في قصائده .فكل من يقرأ أشعارهم يلاحظ أنها استحوذت على حيز كبير منها. فقد أفرغوا فيها رغبتهم الملحة في إظهار محاسن جسدها، وأبرزوا من خلالها حالتهم النفسية ومواقفهم الشعورية تجاهها، لأنها تعد " بمثابة اللذة الكبرى " [(1)] في حياتهم .

فوجد الشعراء الجاهليون في المرأة عنصراً أساسياً، أودعوها كل مشاعرهم الرقيقة، وعبّروا من خلالها عن إحساسهم بالجمال، وكشفوا عن لوعتهم وذكرياتهم، فاعتنوا بها أشد العناية، وحرصوا أشدّ الحرص على جعلها مثالاً .

ومن المؤكد أن المرأة العربية كانت ذات تأثير ساحر على عقل الشاعر وقلبه، وعواطفه ومشاعره، وكل ما يمر به من صعاب وأهوال، وركوب للمغامرات هو نتيجة طبيعية لهذا التأثير[(2)].

ومما لا شك فيه أن ميزة الذوق الجمالي التي تميزت بها قصائدهم الغزلية كانت وليدة تلك العلاقة القوية التي نشأت بين الشاعر الجاهلي والمرأة. فذلك الإحساس المرهف وتصوير ما يجول في نفسه من حب غامر، خير دليل على ذلك .

وحب المرأة من العواطف الإنسانية الراسخة في حياتهم، لما تحمله من دلالات الخصب والعطاء المقترنة بالأمومة، فهو يعد أساسا لما" تثيره الطبيعة في النفس من إلف الـذكر للأنثـى تخليدا للنوع "[(3)] .

---

(1) جيدة, عبد الحميد: **مقدمة لقصيدة الغزل العربية**, ط1, بيروت, دار صعب, 1992, ص8.

(2) يُنظر: خفاجي، محمد عبد المنعم: **الشعر الجاهلي**، ط3، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1980، ص252 .

(3) نوفل, سيد: **شعر الطبيعة في الأدب العربي**, ط2, القاهرة, دار المعارف, (د. ت), ص10.

وقد رسم الشاعر الجاهلي صورة مثالية للمرأة التي أحب، استمدها من البيئة المحيطة به، التي مثلت ينبوعاً غزيراً تدفقت منه قصائده بكافة أغراضها، لا سيما شعر المرأة، فقد شبهها بالقمر والشمس والمها ....

ولفت القمر بأطواره المختلفة نظر الشاعر الجاهلي، واستوحى من خلاله الكثير من التشبيهات التي وصف بها المرأة، وكان طوره بدراً ــ بكل ما يحمله من صفات الاكتمال والبياض والوضوح ــ أكثرها استخداماً في هذا الوصف، فقد استطاع استثماره في إبراز الجوانب الجمالية للمرأة التي أحب .

ويأتي عنترة في طليعة هؤلاء الشعراء الذين قرنوا جمال محبوباتهم بجمال البدر، ويبدو أن هذه المكانة لم تكن غريبة وطارئة على شاعر مثل عنترة، والذي أخذت محبوبته عبلة حيــزاً كبيراً في قصائده الغزلية وغير الغزلية، إذ شكل جمال البدر مقترنا بصفات جمالية أخــرى, لا سيما جمال أسنانها المتسمة بالبياض الشديد, منبعًا غزيرًا استقى منه الكثير من الصــفات التــي قرنها بها. فها هو يصف جمالها وحسن إطلالتها، بعد أن بدت له خارج خبائها، بظهور البــدر، فيقول: (الكامل)

وَبَدَتْ فَقُلْت البَدْرُ لَيْلَةَ تِمِّـــــهِ قَدْ قَلَّدَتْهُ نُجُومَها الجَوْزاءُ

بَسَمَتْ فَلاحَ ضِياءُ لُؤْلُؤِ ثَغْرِها فيهِ لِداءِ العاشقينَ شِفاءُ

سَجَدَتْ تُعَظِّمُ رَبَها فَتَمايَلَـــتْ لِجَلالِها أَرْبابُنا العُظَمــاءُ [(1)]

فقد شكل تمام البدر عنصراً مهماً في إظهار جمال عبلة، وذلك فضلاً عن حرصه على استحضار عنصرين آخرين من عناصر الجمال البارزة، هما نجم الجوزاء والنجوم الأخرى المحيطة به، ليضفيا بضوئهما الساحر مزيداً من الجمال.

كما أن الشاعر عمد إلى إحاطة محبوبته بهالة من التقديس والتعظيم, حين وصل بها إلى مكانة الأرباب, بل جعل الأرباب تتمايل تعظيمًا لجلالها, في إشارة واضحة إلى علو مكانتها عند الشاعر.

---

(1) عنترة: **شرح الديوان**، ص5. (التِّم: الشيء التام)

ويتحدث عنترة عن مواساته لنفسه بالدموع حين يمر طيف عبلة في المنام,كمـــا يبـــين اللوعة والحسرة اللتين ألمتا به خوفاً على عبلة من عيون الآخرين واصفاً جمالها بالبدر في طور اكتماله، وذلك في إشارة إلى أنه يشكو غيرته عليها، فتغدو مطمعاً للآخرين، وليس هذا حطّاً من قدرها، ولكنه تعبير عن حالة القهر والحرمان التي كان يعيشها. وهذا يشي برغبته الملحة فـــي تجاوز القهر والحرمان اللذين كان يعيشهما نتيجة لسواده، فما لم ينله في الواقع نالـــه بالـــدموع والشكوى، فيقول: (الوافر)

أتاني طَيْفُ عَبْلَةَ في المَنَـــامِ فَقَبَّلَني ثَلاثًا فـــي اللّثـــــــامِ

وَوَدَّعَني فَأَوْدَعَني لَهيبـــــــا أُسَتِّرُهُ ويُشْعِلُ في عِظـــامِـــــي

ولَوْلا أنَّني أَخْلو بِنَفْسِـــــــي وأُطْفِئُ بِالْدُّمُوعِ جِــوَى غَرَامِـــــي

لَمُتُّ أَسَىً وكَمْ أَشْكُو لأَنِّـــــي أَغارُ عَلَيْكِ يا بَـــــدْرُ التَّـــــمامِ [1]

وشكلت مقاييس الجمال الحقيقية محوراً جوهرياً في اهتماماتهم بمن أحبوا، لا سيما النفسية والعاطفية، وتمثلت تلك المقاييس في عدة عناصر جمالية، منها: اعتدال قامتها، وحور عينيها، وطول جيدها، وجمال وجهها، مقترناً بجمال ثغرها وأسنانها الذي شكل مرتعاً خصباً للإبداع، فهذا ربيعة بن مقروم الضبّي يصف جمال أسنان محبوبته سعدى، الشديدة البياض وقد بدت كما يبدو البدر من بين السحاب، وهو لم يذكر أسنانها مباشرة وإنما تفهم ضمنا من خلال الأبيات. وهذا من شأنه أن يكسبها بعداً جمالياً أكبر من ذكره بصورة مباشرة، فيقول:

(الكامل)

دارٌ لِسُعْدَى إِذْ سُعادُ كَأَنَّهَـــا رَشَأٌ غَرِيرُ الطَّرْفِ رَخْصُ المَفْصِلِ

شَمَّاءُ واضِحَةُ العَوَارِضِ طَفْلَةٌ كَالْبَدْرِ مِنْ خَلَلِ السَّحابِ المُنْجَلِـــي [2]

---

[1] عنترة: **شرح الديوان**, ص168.كان عنترة يفخر بسواده أمام من عابوه, فكان يرد عليهم بالفخر به, فيقول في القصيدة نفسها: " شرح الديوان", ص168.

وإنْ عابت سَوادي فَهُوَ فَخْري لأنّي فارسٌ من نَسْلِ حامِ

[2] ربيعة بن مقروم الضبي: **شعره**، جمع وتحقيق: نوري حمودي القيسي، مجلة الآداب، عدد11 , جامعة بغداد، 1968\ 381، ويُنظر القيسي، نوري حمودي: **شعراء إسلاميون**، ط2، بيروت، عالم الكتب، 1984م، ص266.

ويصور الشماخ الذبياني جمال ثغر محبوبته يوم رحيلها، وقد بدا كالبدر يوم اكتماله، حيث لم يمنعه الم الفراق من التعبير عن ميل قلبه لحبها، فيقول: (الكامل)

فَتَعَرَضَتْ فَأَرَتْكَ يَوْمَ رَحِيلِـهَـا عَذْبَ المــذَاقَةِ بارِداً رَقْــرَاقَا

فِي واضِحٍ كَالْبَدْرِ يَوْمَ كَمَالِـهِ فَلِمِثْلِها رَاعَ الفُؤَادُ وَرَاقَــا (1)

والمتأمل للبيتين السابقين يلمس ظاهرة, تم فيها الربط بين جمال أسنانها وعذوبة ريقها, فريقها المشابه للماء البارد العذب, يتناسب هنا مع جمال ثغرها المشابه لجمال البدر في طورا الاكتمال, في إشارة إلى ريق المحبوبة الذي يداعب أسنانها بلا انقطاع, لتبقى الطبيعة وعلى رأسها القمر المصدر الأول في جمال ثغرها.

ويجمع عنترة كثيراً من عناصر الجمال في محبوبته، فيتحدث عن جمال ثغر محبوبته عبلة، وعيونها، ويقرن هذا كله بجمال القمر، حيث جعله يبدو في غاية الخجل أمام جمالها، فيقول: (المنسرح)

تُرِيكَ مِنْ ثَغْرِهَا إِذَا ابْتَسَمَتْ كَأْسَ مُدَامٍ قَدْ حُفَّ بِـالدُّرَرِ

أَعَارَتِ الظَّبْيَ سِحْرَ مُقْلَتِهَـا وَبَاتَ لَيْثُ الشَّرَى عَلَى حَذَرِ

خُـودٌ رِدَاحٌ هَيْفَـاءُ فَاتِنَةٌ تُخْجِلُ بِالحُسْنِ بَهْجَةَ القَمَـرِ(2)

ويتملك الحرج البدر في حديث رؤبة بن عمرو بن ظهير الثعلبي عن جمال فتاته ليلى، فهو يظهر في أبهى صوره في الليالي الصافية التي لا غيوم فيها، ولكنه يشعر بالحرج أمام جمالها، فيرهن جماله عنده، فيقول: (الوافر)

يُهَيِّجُنِي لِذِكْرَى آلِ لَيْـلَى حَمَامُ الأَيْكِ مَا تَضَعُ الغُصُونَـا

كَأَنَّ البَدْرَ لَيْلَةَ لاَ غَمَـامَ عَلَى أَنْمَاطِهَا حَرِجَـاً رَهِينَا

كَأَنَّ المِسْكَ دُقَّ لَهَا فَصِيغَتْ عَلَيْهِ يَوْمَ كَانَ النَّاسُ طِينَـا (3)

---

(1) الشماخ بن ضرار الذبياني: **الديوان**، شرح وتقديم: قدري مايو، دار الكتاب العربي، ط1, بيروت، 2004، ص82. (واضح: ثغر صقيل مستوٍ ناصع البياض).

(2) عنترة: **شرح الديوان**، ص90. (خود: فتاة حسنة الخلق شابة, أو الجارية الناعمة) .

(3) الآمدي, أبو القاسم الحسن بن بشر, **المؤتلف والمختلف في أسماء الشعراء**, ط2, بيروت, دار الكتب العلمية, 1982, ص122.

ومن الملاحظ في الأبيات السابقة، أن الشاعرين سارا على عكس المألوف في الشعر الجاهلي، من خلال إسقاطهما صفة الخجل على البدر، وهو مذكر، والخجل غالباً ما توصف به المرأة، ولعل ذلك يعود إلى رغبتهما في جعلهما متميزتين في كل صفاتهما عن سائر نساء الأرض.

ويصف الشاعر الأسود بن يعفر النهشلي النساء اللواتي شاركنه مجلس الشراب بالنعومة والبياض والترف، واستخدم البدور ليدلل على مثل هذه الصفات، فقال: (الكامل)

وَلَقَدْ لَهَوْتُ وَلِلشّــــــبَابِ لَذَاذَةٌ بِسُلافَةٍ مُزِجَتْ بِمَاءِ غَوَادِي

وَالْبِيضُ تَمْشِي كَالْبُدُورِ وَكَالدُّمَى وَنَواعِمٌ يَمْشِــينَ بِالإِرْفَــادِ

وَالبِيضُ يَرْمِينَ الْقُلُــــوبَ كَأَنَّه أُدْحِيٌّ بَيْنَ صَرِيمَةٍ وَجَمَــادِ [(1)]

وعمد الشاعر إلى تشبيههن ببيض النعام المتميز بلونه الناصع البياض، بسبب التشابه الكبير بينه وبين البدر في الشكل واللون، كما أن الرغبة في الاستمرار في اللذة جعلت من البدر مصدراً للتشبيه حرص الشاعر على استحضاره.

ويجعل عنترة جمال محبوبته مساوياً لجمال البدر عند طلوعه، وذلك من خلال طلب البدر منها إبداء جمال وجهها المشابه له في الكمال والسعادة، حيث يشي ذلك برغبة الشاعر في إبراز مدى تفاؤله بوجهها، فلا فرق عنده بين الكوكبين، السماوي (البدر) والأرضي (المحبوبة) فيقول: (الطويل)

مُهَفْهَفَةٌ وَالسِّحْرُ مِنْ لَحـــــــظَاتِهَا إِذَا كَلَّمَتْ مَيْتَاً يَقُومُ مِنَ اللّــــحدِ

أَشَارَتْ إِلَيْهَا الشَّمْسُ عِنْدَ غُرُوبِهَــا تَقُولُ إِذَا اسْوَدَّ الدُّجَى فَاطْلَعِي بَعْدِي

وَقَالَ لَهَا البَدْرُ المُنِيــــرُ أَلا اسْفِرِي فَإِنَّكِ مِثْلِي فِي الكَمَالِ وَفِي السَّــعْدِ

فَوَلَّتْ حياءً ثُمّ أَرخَـــــتْ لِثامَهَـــا وَقَدْ نَثَرْت مِنْ خَدِّها رَطِبَ الــــورَدْ[(2)]

---

(1) الأسود بن يعفر النهشلي: **الديوان**، جمع وتحقيق نوري حمودي القيسي، ط1, بغداد, وزارة الثقافة والإعــلام، مطبعــة الجمهورية، 1970، ص29. (بسلافة: الخمرة. أدحي: بيض النعام. الصريمة من الرمل: قطعة ضخمة تنصرم عن سائر الرمل. الجماد: الأرض اليابسة التي لم يصبها المطر) .

(2) عنترة: **شرح الديوان**، ص72.

ومن الواضح في الأبيات السابقة, أن الشاعر استطاع أن يشكل صورة نمطية لمحبوبته,يحتل فيها البدر مكانة أساسية إذ اعتمد في بنائهما على البدر والشمس, ولجأ إلى ربطهما بصفة هامة من صفات محبوبته ألا وهو الحياء الممتزج بالجمال, ولذلك يبدو البدر هنا عنصرًا مهمًا من عناصر جمال المحبوبة .

وتتكرر الصورة مرة أخرى عند عنترة، ولكنه بالغ فيها بوصف حسن محبوبته، حيث جعل جمال البدر متواضعاً أمام جمالها، وذلك فضلاً عن اقترانه برشاقة قوامها الذي يفوق الغصن تناسقاً و رشاقة، فيقول: (الوافر)

فَمَا للْبَدْرِ إنْ سَفَرَتْ كَمَالٌ وَمَا لِلْغُصْنِ إنْ خَطَرَتْ قَوَامُ[1]

ومن الواضح في هذا البيت، أن الشاعر عمد إلى دمج الجمال السماوي المتمثل بالبدر، مع الجمال الأرضي المتمثل بالغصن، وهي قيمة جمالية عودنا عليها الشاعر الجاهلي في وصف جمال المرأة، وذلك لإعطاء صورة مبالغ فيها للمحبوبة .

ويبدو أيضاً، أن الجمال الأرضي غالباً ما كان يتمثل بالشجرة وأجزائها، والتي كانت تمثل رمزاً من رموز الخصب عند الجاهلي، والتي ارتبطت بالمرأة في أشعارهم .

ويتكرر هذا المزج عند الشاعر نفسه، فيصفها هذه المرة بالترف، ويصف حياتها المنعمة، مشبهاً إياها بالهلال الثابت الذي يعلو غصن شجرة البان المتحرك، وقد استحضر هذه الصورة ليدلل على حرصه في إظهار تميزها عن غيرها من النساء، فيقول: (الطويل)

كَأَنَّ الثُّرَيَّا حِينَ لاحَتْ عَشِيَّةً عَلى نَحْرِهَا مَنْظُومَةٌ بِالقَلائِدِ

مُنَعَّمَةُ الأَطْرَافِ خُودٌ كَأَنَّهَا هِلالٌ عَلَى غُصْنٍ مِنَ البَانِ مائِدِ [2]

وما يلفت النظر في البيتين السابقين أيضاً حديثه عن جمال نحرها، من خلال تصوير الثريا ومجموعة الكواكب التابعة لها بالقلادة وقد زينت رقبتها، والثريا ــ كما يقول ابن منظور ــ هي من الكواكب، سميت بذلك لكثرة كواكبها [3].

---

[1] عنترة: **شرح الديوان**, ص164.

[2] المرجع السابق, ص73.

[3] ابن منظور: مادة ثري.

ويصور الشاعر ابن إسرائيل، محبوبته بالبدر في سيرها بخيلاء، إذ جمع بين نحافة جسمها ونحافة الغصن الذي يتمايل برقة إذا لامسه الهواء، ليدلل من خلال هذا التصوير على جمالها المميز، ورغد العيش والنعيم المحيطين بها، فيقول: (الكامل)

تَخْتَالُ بَيْنَ البَدْرِ مِنْهَا وَالنَّقَا غُصْنٌ يَمِيسُ بِهِ النَّعِيمُ مُهَفْهَفُ (1)

ويصف الشاعر عبد الله بن العجلان النهدي* جمال زوجته بعد ندمه على تطليقها، حيث يشبه بياض صورتها ببياض صورة الهلال، فاستخدم اللون الأبيض وربطه بالهلال ليدلل على جمال هذه الصورة، فيقول: (المنسرح)

قدْ طَالَ شَوْقِي وَعَادَنِي طَرَبِي مِنْ ذِكْرِ خودٍ كَرِيمَةِ الحَسَبِ
غَرَّاءُ مِثْلُ الهِلالِ صُورَتُهــا أَوْ مِثْلُ تِمْثَالِ صُورَةِ الرَّهَبِ (2)

ويتضح من الأبيات السابقة، مقدرة الشاعر على رسم صورة بديعة ومميزة لإمراته، وذلك من خلال المزج بين الجمال الأرضي (امرأته) والسماوي(الهلال)، على الرغم من عدم ذكره وجه الشبه بينهما، لكن يفهم من المعنى العام أن المقصود هو جمال صورتها وشدة بياضها، كما يضفي عليها هذا الوصف قداسة وطهراً يزيدان من جمالها وجلالها ويجعلانها أكثر مكانة عنده.

ويرسم النابغة الجعدي لمحبوبته صورة متقاربة مع صورة ابن العجلان، واصفاً نورها وبياضها بالليلة الصافية القمراء التي يهتدي بها السائر، فيظهر بذلك نورها موازياً لنور القمر، فيقول: (المنسرح)

غَرَّاءُ كَالَّليْلَةِ المُبَارَكةِ القَمْــــــ رَاءِ تَهْدِي أَوَائِلَ الظُّلَمِ(3)

ويبدو انه استوحى هذا التشبيه من الحاجة الملحة للإنسان الجاهليّ لليلة القمراء، بما تحمله بين طياتها من دلالات الوضوح والإنارة، فمن المعروف أنهم كانوا يقومون ببعض أعمالهم فيها، كالتنقل والسهر والصيد وزيارة ديار المحبوبة.

---

(1) مقداد، عبد الله جبريل: **شعر يهود في الجاهلية وصدر الإسلام**، ط1، عمان، دار عمار، 1999، ص395.

(2) الأصفهاني, أبو الفرج, **الأغاني**, ج22, ط1, دار صعب, بيروت, (د. ت), ص236. (غرّاء: شديدة البياض. الرهب: الرهبة) .

*عبد الله بن العجلان النهدي: شاعر جاهلي من قضاعة, من العشاق المتيمين. مات أسفاً على تطليق زوجته بعد أن أكرهه أبوه على تطليقها لأنها لم تلد له ولداً بعد سبع سنين من الزواج.

(3) النابغة الجعدي: **شعره**، ط1، دمشق, منشورات المكتب الإسلامي، 1964، ص151.

ويرفع عمرو بن قميئة من قيمة محبوبته وقدرها، فقد تحدث عن جمال وجهها، حيــث أثار حيرة الناظرين وتساؤلهم، فكان جمالها بمثابة المفاجأة غير المتوقعة لدرجة أنهم ظنوا مـــا رأوه هلالاً، مما يشير الى أنها كانت محط أنظار الجميع، فيرقبون ظهورها كما يرقبون ظهــور الهلال، فيقول: (المتقارب)

وَوَجْهٌ يَحَارُ لَهُ النَّاظِرُون يَخَالُونَـهَمْ قَدْ أَهَلُّوا هِلالا [(1)]

إن الكلمة الدالة على الجمال في هذا البيت هي الهلال,إذ يعدّ علامة من العلامات التـــي توحي بالجمال, مما يمنح المحبوبة خصوصية لا يتمتع بها غيرها.

ويرى عمرو بن كلثوم أنه لم ير في معد امرأة أجمل من محبوبته، حيث يصور حسنها المتكامل بجمال الهلال وإشراقه، حيث يظهر دور الهلال الرئيس هنا، وكأن حسنه حــلّ عليــه فأصبحت مساوية له في الجمال، فيقول: (الوافر)

ولَمْ أَرَ مِثْلَ هَالَةَ فِي مَعَدٍّ أُشَبِّهُ حُسْنَهَا إلا الهِلالا [(2)]

ويفاضل حسان بن ثابت بين جمال محبوبته وجمال الأخريات، مستخدماً البدر في هــذه المفاضلة، فيتحدث عن تميزها عن سائر النساء بتميز البدر عن سائر الكواكب، واصفاً ظهورها بين النساء كظهور البدر بين الكواكب، إذ يغلب نوره على نورها ولو كثرت، فيقول:

(الكامل)

بَيْضَاءُ لَوْ مَرَّتْ بِذِي نُسُــكٍ يَتْلُو البَيَانَ يَلُوحُ فِي الزُّبُرِ
مُتَبَتِّلٍ عَنْ كُلِّ فَاحِــــشَةٍ سكَنَ الصَّوَامِعَ رَهْبَةَ الوِزرِ
لَرَأَيْتَهُ حَرَّانَ يَذْكُــرُهَــــــا يَجْتَازُ رُؤْيَتَهَا عَنْ الذِّكــــْرِ
بَذَّتْ نِسَـــاءَ العَالَــمِينَ كَمَا بَذَّ الكَوَاكِبَ مَطْلَعُ الـــبَدْرِ [(3)]

ومن الواضح في أبيات حسان، أنه استطاع استثمار صورة الناسك المتعبد في وصف جمالها، ولعل ذلك يعود إلى أنه ربط بين تميز الناسك عن سائر الناس في شدة إيمانه، وانقطاعه

---

(1) عمرو بن قميئة: **الديوان**، تحقيق: حسن كامل الصيرفي، مجلة معهد المخطوطات العربية، عدد11، القــاهرة، مطبعــة دار الكتاب العربي، 114 \ 1965.

(2) عمرو بن كلثوم: **الديوان**، جمع وتحقيق وشرح: إميل بديع يعقوب، ط1، بيروت، دار الكتاب العربي، 1991، ص50.

(3) حسان بن ثابت: **الديوان**، تحقيق: سيد حنفي حسنين، ط1، القاهرة، دار المعارف، (د. ت)، ص190. (الوزر: الإثم).

للعبادة والذكر في صومعته البارزة والمميزة عن غيرها من الأبنية، وبين تميز البدر عن الكواكب، وذلك فضلاً عن رغبته في إبراز تأثير حسنها على من يراها من خلال افتتان الناسك بها وانشغاله عن التعبد بانتظار رؤيتها .

وأبدع الشعراء في وصف جسد المحبوبة، فوصفوا وجهها وشعرها وأسنانها، ولم ينسوا نحرها الذي عدوه مظهراً من مظاهر حسنها، فكيف إذا اقترن بالبدر، كما عند الشـاعر عمـرو ابن كلثوم، حيث يبدو نحرها تاماً كالبدر، يستمد نوره وشدة بياضه منه، إلى درجة أنـه يـرى بوضوح في الليالي المظلمة، فيهتدي به الذين يسيرون ليلاً، فيقول: (الوافر)

وَنَحْراً مِثْلَ ضَوْءِ البَدْرِ وافٍ بِإِتْمامٍ أُنَاساً مُدْجِنِينَا [1]

ويلجأ عنترة إلى وسيلة مغايرة لإبراز جمال عبلة، فيعمد إلى جعل البدر لصاً يسرق حسنه من حسنها، وجعل الظباء تستعير جمال عيونها منها، في إشارة ضمنية إلى أنها تفوق الاثنين معاً سحراً وجمالاً، فيقول: (الخفيف)

سَرَقَ البَدْرُ حُسْنَهَا واسْتَعَارَتْ سِحْرَ أَجْفَانِهَا ظِبَاءُ الصَّرِيمِ [2]

ويصور الشاعر وزير بن المهاجر الأسدي طلوع محبوبته من مخدعها بطلوع الهلال، مشبهاً صورة اكتمال جمالها بصورة اكتمال الهلال، فهي تبرز من سترها شيئا فشيئا حتى تبدو كاملة الحسن، وفي ذلك إشارة إلى ضنّها في الظهور، هذا إلى جانب حرصه على إظهار صفاتها الجمالية الأخرى، وحشد بعض الألفاظ التي تبين هذه الصفات، مما أكسبها بعداً جماليا خاصاً، فيقول: (الطويل)

وَرَبْعَةٌ في الدُّنْيا عَلَيْها مَلاحَةٌ لَها قَصَبٌ خَدْلٌ وَعَيْنُ غـزَالِ

وَثَغْرٌ كَثَغْرِ الأُقْحُـوانِ إِذا بَدَا وَتَطْلُعُ مِنْ سِتْرٍ طُلُوعَ هِـلالِ [3]

---

(1) عمرو بن كلثوم: **الديوان**, ص90. (مدجنينا: حلَّ عليهم الظلام).

(2) عنترة: **شرح الديوان**، ص161.

(3) السنديوني، وفاء فهمي: **شعر قبيلة بني أسد وأخبارها**، ط1، الرياض، دار النشر العلمي والمطابع، 2004 ، ص636. ويُنظر: الآمدي: **المؤتلف والمختلف**, ص111. (القصب: عظام اليدين والرجلين. الخدل: العظيم الممتلئ الساق والذراع).

ولعل الشاعر أراد من استحضار صورة الهلال، تجسيد شوقه المستمر لرؤيتها، ورغبته الدفينة في إبراز تميزها، مما يجعلها امرأة مثالاً في جمالها ورفاهيتها ونعومتها .

شكل ظلام الليل عنصر أمان في تجربة الشـــاعر العاشـــق، فكـــان الوعـــاء الزمنـــي لمغامراته مع النساء، وزياراته لمعشوقاته، ففيه تضرب المواعيد بين العاشقين، وفي ظلامه يتم اللقاء بعيداً عن أعين الواشين [1]، وكثيراً ما كانوا يتسللون تحت جنح ظلامه إلى حي المحبوبة، لا سيما في ليالي غياب القمر، فكانوا يتطيرون من ضوئه، لما يشكله من عائق أمـــام تســـللهم، ووسيلة لفضح أمرهم، فيصف الأعشى مغامرته المحفوفة بالمخاطر في الوصول إلى صاحبته، إذ أصبح ضوء القمر يشكل عائقاً كبيراً أمامه، يمنعه من الوصول إليها، وظـــل طائفـــاً بـــالحي يترقب غيابه، خشية فضح أمره، فإذا ما غاب، شرع يمشي بحذر كي لا يعرف، فيقول:

(مجزوء الكامل)

وَلَقَدْ أَطَفْتُ بِحـــاضـــرٍ حَتَّى إذا عَسَلَتْ ذِئابُهْ

وَصَغَا قُمَيْرٌ كان يَمْـــــ ـنَعُ بَعْضَ بِغْيَةٍ ارْتِقَابُهْ

أَقْبَلْتُ أَمْشِي مِشْيَةَ الـــ حَشْيَانِ مُزْوَرّاً جِنَابُهْ [2]

ويظهر من الأبيات السابقة أن شعوراً بعدم الأمان قد نشأ بين الشاعر والقمر، وذلك بعكس ما هو مألوف، فمن المعروف أن ضوء القمر كان من عناصر الأمان الرئيسة التي يحتاجها الساري كي يأنس ولا يضل الطريق .

ويرسم لبيد بن أبي ربيعة صورة مغايرة للصورة التي رسمها الأعشى، فصور نفســـه بالبـــدر أثناء تسلله إلى ديار المحبوبة، كما لم ينس الشاعر أن يذكر كيف بدأت عيناه بالبكاء أثناء توجهه إلى الديار، فيقول: (الطويل)

---

[1] يُنظر: إبراهيم، نوال مصطفى: **الليل في الشعر الجاهلي**، ط1، عمان، دار اليازوري العلمية للطباعة والنشـــر، 2009، ص104 .

[2] الأعشى, ميمون بن قيس: **شرح الديوان**، تحقيق: كامل سليمان، ط1، بيروت، دار الكتاب اللبناني، (د. ت), ص76.
(عسلت: اضطربت. صغا: مال للغروب. بغية: حاجة. مزورا: معوجّ الزور وهو الصدر. جنابه: جانبه. حشيان: ضـــيق النفس. مزوراً: مكبلاً).

غَشيتُ دِيَارَ الحَيِّ بالسَّبُعانِ   كَما البَدْرُ فَالعَيْنَانِ تَبْتَدِرانِ [1]

وتطير بعض الشعراء من القمر في طور المحاق، حيث نظروا إليه نظـرة تشـاؤمية، اقترنت في مجملها برحيل المحبوبة وتفرق المحبين، ويبين خفاف بن ندبة السلمي أنه لـم يـر محبوبته أسماء إلا زمناً قصيراً، فقد شكل المحاق زمن انقطاع الوصل وانقضاء أوقات السـعادة بينهما، فيقول: (الطويل)

وَلَمْ أَرَها إلاَّ تَعِلَّةَ ساعَـــةٍ   عَلى ساجِرٍ أَو نَظْرَةً بِالمُشَرَّقِ

وَحَيْثُ الجَميعُ الحابِسونَ بِراكِسٍ   وَكانَ المُحاقُ مَوْعِدَاً للتَّفَرُّقِ [2]

ويشي هذان البيتان بعمق الحسرة التي ألمت به، مما يعمق الإحساس بألم الفراق، ويزيد من إصراره على حبها، وحتى لو بدا هذا مستحيلاً .

ويذكر الشاعر الأقرع بن معاذ القشيري يوم فراق محبوبته، ويصفه باليوم الحزين، جاعلاً القمر والشمس يشاركانه حزنه عليها، مبيناً ما طرأ عليهما من تغير كبير يتمثل في غيابهمـا فـي وقتين يضيئان فيه، وهما يوم الحر الشديد ويوم تمام البدر، فيقول: (الطويل)

سَـلامٌ عَـلى مَـنْ لا يُمَـلُّ كَـلامُهُ   وَإِنْ عاشَرَتْهُ النَّفْسُ عَصْراً إلى عَصْرِ

فَمَا الشَّمْسُ وافَتْ يَوْمَ دَجْنٍ فَأَشْرَقَتْ   وَلا البَدْرُ وافَـى أَسْعُـداً لَيْلَـةَ الـبَدْرِ

بِأَحسنَ منها أو تزيدُ ملاحـــةً   على ذاكَ أو راءَى المحـــبُّ فما أدْري[3]

نجد في هذه الأبيات, أن المحبوبة أكثر جمالا وإشراقا من القمرين, وهذا من شـأنه أن يكسبها بعداً جماليا مميزاً, مما يعمق الحسرة بالفراق والبعد, ويجسد مشاعر الشـاعر الصـادقة تجاه محبوبته, فالشاعر في هذا التشبيه قد بالغ في وصفه محبوبته, ليبين عِظَـمَ الفـراغ الـذي سيخلفه بعدها في حياته.

---

(1) لبيد بن أبي ربيعة: **الديوان**، شرح الطوسي، ط5، بيروت، دار الكتاب العربـي، 2004، ص266, (تبتـدران: بـدأتا بالبكاء) .

(2) الأصمعي, أبو سعيد عبد الملك بن قريب: **الأصمعيات**، تحقيق: أحمد شاكر وعبد السلام هـارون، ط5، القـاهرة، دار المعارف، 1979، ص22.(ساجر: اسم ماء يجتمع من السيل. المُشَرَّق: المصلَّى) .

(3) الأقرع بن معاذ القشيري: **حياته وما تبقى من شعره**، جمع وتحقيق: هلال ناجي، مجلة المورد، عدد3، مج7، بغـداد، 1978 \ 194. (يوم دجن: يوم مظلم).

ويصور امرؤ القيس نفسه بالهلال، من خلال الحديث الذي دار بين صاحبته وبعــض جليساتها حول مصيره بعد أن أوقعته في حبائلها، وقضى معها ليلة كاملة، وأجمعن في النهاية على أنه كالهلال لا يمكن أن يغيب طويلاً، فيقول: (الطويل)

أَلا رُبَ يَوْمٍ قَدْ لَهَوْتُ بِدَلِّهـــــا   إِذا ما أَبُوها لَيْلَةً غَابَ أَوْ غَفَــلْ

فَقَالَتْ لأَتْرابٍ لَهَا قَدْ رَمَيْـــــتُهُ   فَكَيْفَ بِهِ إِنْ مَاتَ أَوْ كَيْفَ يُحْتَبَلْ

أَيَخْفَى لَنَا إِنْ كَانَ فِي اللَّيلِ دَفْنُهُ   فَقُلْنَ وَهَلْ يَخْفَى الهِلالُ إِذَا أَفَــلْ [(1)]

ونلحظ في هذه الأبيات، أن المرأة هي التي تتغزل بالرجل وتصفه بالهلال على عكس ما ألفناه في الغزل الجاهلي، وهي ظاهرة نادره في شعرهم .

وتتكرر هذه الظاهرة عند الفارعة بنت ثابت في غزلها بعمارة بن الوليـــد المخزومـــيّ، واصفة جمال وجهه بجمال البدر، كما أنها تأنس بوجوده كما تأنس بوجود البدر فـــي الظـــلام. فالبدر ــ بما يضفيه من الألفة، والضوء الساحر، والصمت الحاني ــ الشـــاهد الوحيـــد علـــى حبهما، فتقول: (المديد)

كَيْفَ تَلْحُونِي عَلَى رَجُلٍ   مُؤْنِسٍ تَلْتَذُّهُ كَبِـــــدِي

مِثْلُ ضَوْءِ البَدْرِ صُورَتُهُ   لَيْسَ بِالزَّمِيلَةِ النَّــكِدِ [(2)]

ويحول عنترة اللون الأسود ــ الذي طالما كان سبباً في القهر الاجتماعي الذي تعـــرض له ــ إلى لون جميل في حديثه عن ديار محبوبته ونسائها، فهو يصف جمالهن بالبدور شـــكلاً ولوناً، وقد ضاعف من هذا الجمال الشعر الشديد السواد، ويبدو أنـــه حـــاول أن يســـاوي بـــين اللونين، من خلال حمل البدور لهنّ، كما أنه جمع بينهما في وصف جمال عيـــون محبوبتـــه، ولعله أراد بذلك أن يبرز أمرين، الأول: أن البدر أكثر ما يكون جمالاً وبياضـــاً فـــي الليـــالي الحالكة السواد، والثاني ــ وهو الأهم ــ أن لونه الأسود لا يعيبه، إنما يزيده إصـــراراً علـــى التمسك بحب عبلة والتغزل بها، فلعله بذلك يحقق بعض ما يصبو إليه، فيقول: (المنسرح)

---

(1) امرؤ القيس: **الديوان**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، القاهرة، دار المعارف، 1958، ص155 . (دلّها: حســن حديثها . يُحتبَل: يقع في الشرك. أفل: غاب).

(2) صقر، عبد البديع: **شاعرات العرب**، ط1، بيروت، منشورات المكتب الإسلامي، 1967، ص111. (تلحوني: تلـــومني. الزّميلة: الضعيف).

مَنازِلُ تَطْلُعُ البُدُورُ بِهـــا مُبَرْقَعاتٍ بِظُلْمَةِ الشَّـــعَرِ

بيضٌ وَسُمْرٌ تَحَمِي مَضارِبَهَا آسادُ غَابٍ بالبيضِ والسُّمْرِ

صَادَتْ فُؤَادي مِنْهُنَّ جــارِيَةٌ مَكْحُولَةُ المُقْلَتَينِ بالْحـــوَرِ [1]

ويبقى الشاعر سحيم عبد بني الحسحاس مصرًّا على جمال محبوبته، على الرغم مـن مرضها، فيصف جمالها بالقمر، حيث يظهر دور القمر الرئيس هنا لأن جماله لا يتغير، مهمـا طال عليه الزمان أو قصر وانعكس هذا على وجهها، فلم يغير المرض ــ رغم شـدته ــ مـن حسنها، بل زاده، فيقول: (المنسرح)

ماذا يُرِيدُ السّـــــقامُ مِنْ قَمَـرٍ كُلُّ جَمَالٍ لِوَجْهِهِ تَبَـعُ؟

ما يَرْتَجي ــ خابَ ــ من مَحاسِنِه أَمَا لَهُ في القِباحِ مُتَسَعُ؟

غَيَّـــرَ مِنْ لَوْنِهَـــا وَصُـــفْرَتِهَا فَزِيدَ فِيهِ الْجَمَالُ وَالْبِدَعُ [2]

فالقمرــ في هذه الأبيات ــ جاء ليعمق الإحساس بجمال المحبوبة، ويشي بحاجة الشاعر الملحة إلى إبراز جمالها وتعلقه الشديد بها، ولعل تساؤله السابق أوضح دليل على هذا .

وهكذا يظل القمر عنصراً مهماً وفاعلاً في تجربة الشاعر الجاهليّ مع المرأة ــ لا سيما أنه اقترن بقيمها الجمالية، وأصبح معياراً مهماً في تقييمه، وملاذاً واسعاً يبوح فيه العاشق ما يختلج في نفسه من شوق وحب وحنين، وذلك على الرغم من اكتسابه بعض الأبعاد المتناقضة والدلالات المتغايرة، التي لا تخلو من أن تحمل بين طياتها ذكريات تسبب للشاعر المعاناة والألم وتبعث في نفسه الحزن والأسى، فغدا متذبذباً بين كونه مقياساً للجمال، وكونه مصدراً للخوف والقلق أمام تقدمهم نحو ديار المحبوبة، وكون أحد أطواره رمزاً للفراق عند بعضهم .

---

[1] عنترة: **شرح الديوان**, ص89.

[2] سحيم عبد بني الحسحاس: **الديوان**، تحقيق: عبد العزيز الميمني، ط1, القاهرة، الدار القومية للطباعة والنشر، 1965، ص54.

المبحث الثاني

القمر والرثاء

اتخذ الشعراء الجاهليون من القمر وسيلة لإبراز قيمة المتوفى الذي كان كثيراً ما يوصف بصفات حسنة، ترفع من قدره بين البشر، كالكرم والشجاعة والإقدام وإغاثة الملهوف، فضلاً عن إظهار الفراغ الذي تركه بعد موته، وقد لجأ بعضهم إلى ربط القمر بها، ليكسبها مزيداً من الدلالات النفسية والرمزية كي تتوازى مع عمق الفاجعة، وغالباً ما اقترن شعر الرثاء بالبكاء وإظهار الجزع على المتوفى، وغدا البكاء الخيط الذي يلف هذا الحزن، حتى أصبح مثاراً لانسياب العواطف والأشجان .

وقد بدا هذا جلياً في رثاء لبيد بن أبي ربيعة لأخيه أربد الذبياني، حين لجأ إلى ذكر بعض مآثره ومحامده، واصفاً كرمه العميم بضوء البدر الذي لا يبخل على الناس بنوره مهما كانت الظروف، وكان كرمه أكثر ما يكون في أيام الشتاء الباردة التي يقل فيها الرزق، لاسيما الأيام المقمرة التي تتصف بشدة برودتها، وهو أعلى درجات الكرم عند العرب، فيقول:

(الكامل)

أَبْكِي أَبَا الخَرَّازِ يَوْمَ مَقامــَةٍ ... لِمُناخِ أَضْيافٍ وَمَأْوَى مُقْتِرِ

وَالحَيُّ إِذْ بَكَرَ الشِّتاءُ عَلَيْهِمُ ... وَعَدْت شَآمِــيَةٌ بِيَومٍ مُقْمِرِ

وَتَقَنَّعَ الأَبْرامُ في حُجُراتِهــِمْ ... وَتَجَزَّأَ الأَيْسارُ كُلَّ مُشَــهَّرِ

أَلْفَيْتَ أَرْبَدَ يُسْتَضاءُ بِوَجْهِهِ ... كَالبَدْرِ غَيْرَ مُقَتِّرٍ مُســْتَأْثِرِ [1]

وتتكرر صورة المرثي واقترانه بالقمر مرة ثانية عند الشاعرة نائلة بنت الفَرافِصَةَ في رثاء زوجها، فتبكيه، وتطلب من أقاربها أن يشاركوها بكاءه، فبغيابه غاب الكرم والفضل، حيث كان سخاؤه ظاهراً ظهور البدر في السماء، فتقول : (الطويل)

وَمالِي لا أَبْكِي وَتَبْكِي قَرَابَتِي ... وَقَدْ غُيِّبَتْ عَنَّا فُضُولُ أَبِي عَمْرِو

أَمْ جِئْتَهُ يَوْمَاً تَرَجَّى نــَوالَهُ ... بَدَتْ لَكَ سِــيماهُ بِأَبْيَضَ كَالــبَدْرِ [2]

---

(1) لبيد: **الديوان**، ص95. (الأبرام: مفردها بَرَم, وهو الفقير لا يشترك في الميْسِر).

(2) صقر: **شاعرات العرب**, ص440 . (نواله: عطاؤه).

ويعاهد الشاعر لقيط بن زرارة التميمي نفسه بالحزن والبكاء المستمر على أخيه مادام حيّاً، ويكمن سبب ذلك في أن أخاه أكثر جمالاً وكمالاً من البدر، في إشارة واضحة إلى ما كان يتميز به أخوه من صفات، جعلته يبكيه بصدق، مما ولد لديه حالة انفعالية ووجدانية، أدت به إلى المبالغة في تجسيد صفاته، والتي تفوقت على صفات البدر، فيقول: (الطويل)

وَحُزْنٌ عَلَيْهِ ما حَيِيتُ وَعَبْرَةٌ عَلى مِثْلِ ضَوءِ البَدْرِ أَوْ هُوَ أَعْجَبُ[1]

وتصور الخنساء جزعها على فقد أخيها، وتذكر شمائله، وتشبه كرمه وفضله بالبدر الذي لا يختبئ في الليل من أمام القصاد، فحاجة المحيطين به كحاجة الساري ليلاً إليه، فتقول مخاطبة عينها: (البسيط)

جَمٌّ فَواضِلُهُ تَنْدَى أَنامِلُهُ كَالبَدْرِ يَجْلو وَلا يَخْفَى عَلى السـَّاري[2]

وتكرر المعنى نفسه في حديثها عنه، فتصف انتشار صيته وفضائله بانتشار نور الهلال على العالم, فتقول: (البسيط)

وأبْكي أَخَاً كَانَ مَحْموداً شَمائِلُهُ مِثْلَ الهِلالِ مُنيراً غَيْرَ مَغْمورِ[3]

وغير بعيد عن الصور السابقة، يعبر الشاعر بشر بن أبي خازم عن حزنه العميق على موت أخيه، مشبهاً إياه بالبدر عند دفنه، وقد بدا وكأنه يحسد القبور على احتوائها رجلاً بمثل صفاته، واقترن ذلك بإيمان الشاعر بالموت ونهاية الأعمار، فيقول: (المنسرح)

للهِ دَرُّ القُبورِ ما حُشِيَتْ أَرْوَعَ شِبْهاً للبَدْرِ إِذْ سَطَـعَا[4]

ويبقى ضوء القمر مصدراً خصباً للشعراء في ذكر محاسن موتاهم، وعاملاً مهماً في إبراز صفاتهم، من هنا لجأت الشاعرة برة بنت عبد المطلب بن هاشم إلى وضع أبيها في منزلة موازية لمنزلة القمر، لإظهار مكانته في قومه، فتقول: (المتقارب)

وَذي الحِلْمِ وَالفَضْلِ في النَّائِباتِ كَثيرِ المَكارِمِ جَمُّ الفَخَرْ

---

[1] جاد المولى، محمد,وآخرون: **أيام العرب في الجاهلية**، ط2، القاهرة، مطبعة عيسى البابي الحلبي، 1994، ص230.

[2] الخنساء وليلى الأخيلية: **ديوان الباكيتين**، شرح: يوسف عيد، ط1، بيروت، دار الجيل، 1992، ص92.

[3] المرجع السابق، ص92 .

[4] بشر بن أبي خازم: **الديوان** تحقيق: عزة حسن، بيروت، دار الشرق العربي، 1995، ص148.

لَهُ فَضْلُ مَجْـــــــدٍ عَلى قَوْمِهِ   مُنيرٌ يَلوحُ كَضَوءِ القَمَرْ [(1)]

ويصف الشاعر عامر بن الحارث (أعشى باهلة) أخاه لأمه المنتشر بن وهب بالشهاب المضيء، مستحضراً صورة القمر الذي يضيء ظلام الليل لتشبيهه به، وقد اقترن ذلك بشجاعته في الحروب وكرمه في الملمات، في إشارة واضحة إلى الفراغ الكبير,والذي تركه بعد وفاته، ولا يمكن لأحد ملؤه من بعده، فيقول: (البسيط)

أَخُو حُروبٍ وَمِكْسابٌ إذا عَدِمُـــوا   وَفي المَخافَةِ مِنْهُ الجِدُّ وَالحَذَرُ

مَرْدَى حُروبٍ شِهابٌ يُسْتَـضاءُ بِهِ   كَما أَضاءَ سَوادَ الطَّخْيَةِ القَمَرُ [(2)]

ويصف أبو زبيد الطائي ابن أخته اللّجلاج ــ بعد موته بالكرم لا سيما في سنوات الجدب، حيث تكون الأنظار متجهة إليه، فكان كالبدر الذي أشد ما يكون سطوعاً في السنوات التي يقل فيها المطر، فيقول: (الخفيف)

أَصْلَتِيٌّ تَسْمُو العُيُونُ إِلَيْهِ   مُسْتَنيرٌ كَالبَدْرِ عَامَ العُهُودِ [(3)]

وتظهر الجيداء بنت زاهر الكلبية جزعها بمقتل زوجها على يد عنترة بن شداد، واصفة سقوطه عن فرسه ميتاً بسقوط البدر بعد تمامه من السماء، مبرزة بذلك شجاعته وفروسيته، وموته في ريعان الشباب، ومكانته العالية في قومه، وتتذكره بصورة أقرب إلى الغزل منها إلى الرثاء، فتقول: (الخفيف)

يا لَقَوْمي قَدْ قَرَّحَ الدَّمْعُ خَدِّي   وَجَفاني الرُّقادُ مِنْ عُظْمِ وَجْدي

كانَ لي فارِسٌ سَقاهُ المَنايـــا   عَبْدُ عَبْسٍ بِجَوْرِهِ والتَّحَـــدِّي

بَدْرُ تِمٍّ هَوَى إلى الأَرْضِ لَمَّا   رَشَقَتْهُ السِّهامُ مِنْ كَفِّ عَبـــْدِ [(4)]

وما زاد من حزنها ــ كما هو واضح في الأبيات السابقة ــ انه مات على يد عبد أسود لا قيمة له، مقارنة بقيمة زوجها.

---

(1) النعانعة، إبراهيم: **شعر غطفان في الجاهلية وصدر الإسلام**، ط1، عمان، دار جرير، 2007، ص604.

(2) القرشي: **جمهرة أشعار العرب**، ص572 . (مِكساب: صيغة مبالغة من الفعل كسب بمعنى كثير الكسب. مردى حروب: به تُصدم الحروب. الطخية: سحابة مستديرة رقيقة تسدّ ضوء القمر وتخفيه) .

(3) القيسي: **شعراء إسلاميون**، ص601. (أصلتيّ: سريع. عام العهود: العام المجدب).

(4) صقر: **شاعرات العرب**، ص55 . (الرقاد: النوم. وجدي: شدة شوقي).

وتصف الخنساء شدة جمال وجه أخيها، ولم تجد أكثر بياضاً من البدر وأصفى من الخمرة لتبرز هذا الجمال، فلجأت إلى المزج بينهما، في محاولة منها لإظهار تميز صفات البدر وصفات الخمرة لتظهر صفاءه وخلو وجهه من الندب التي هي علامة على القبح، فتقول:

(البسيط)

يا لَهْفَ نَفْسي عَلى صَخْرٍ إِذا رَكِبَتْ　　　خَيْلٌ لِخَيْلٍ تُنادي ثُمَّ تَضْطَّرِبِ

قَدْ كَانَ حِصْناً شَدَيدَ الرُّكْنِ مُمْتَنِعاً　　　لَيْثاً إِذا نَزَلَ الفِتْيانُ أَوْ رَكِبُوا

أَغَرُّ أَزْهَرُ مِثْلُ البَدْرِ صُورَتُهُ　　　صَافٍ عَتيقٌ فَما في وَجْهِهِ نُدَبُ [1]

ومن الملاحظ أن الشاعرة، تعمدت إحاطته بجو من الشجاعة والإقدام موحية بكماله وتميزه، لأن الجمال وحده لا يكفي لهذا، لما يحمله من صفات للمرأة، وهي بذلك ترسم له ملمحاً بطولياً تعتز به .

كما أنها لجأت إلى استحضار اللون الأبيض ــ بما يحمله من دلالات القدسية والطهارة والنقاء ــ وقرنته بالبدر، والذي يشي برغبتها الملحة في إحاطة أخيها بهالة من القدسية والصفاء ولم ينس الشعراء ــ في حديثهم عن مكانة موتاهم ــ ظاهرة المفاضلة بين القمر والكواكب الأخرى، ونلمح هذا واضحاً في وصف الخنساء لأخيها عند حديثها عنه، فتقول: (البسيط)

كُنَّا كَأَنْجُمِ لَيْلٍ وَسْطَهَا قَمَرٌ　　　يَجْلُو الدُّجَى فَهَوَى مِن بَيْنِنَا القَمَرُ

يا صَخْرُ ما كُنْتَ في قَوْمٍ أُسَرُّ بِهِمْ　　　إلاَّ وَإِنَّكَ بَيْنَ القَوْمِ مُشْتَهَرُ [2]

فهي تشبه مكانة أخيها في قومه بمكانة القمر بين الكواكب متخذة من المقارنة بين ضوءيهما عنصراً رئيساً في ذلك، فمن المعروف أن ضوء القمر أبرز من ضوئها، وقدرته على إجلاء الظلام أكبر من قدرتها، فغياب القمر(الظُّلْمة) تُرغم الوعي على تَفقُد العنصر الغائب(صخر), وهذا يعطي انطباعاً بأنه كان يتبوأ مكانة عظيمة.

وتتكرر صورة ربط مكانة المرثي بمكانة القمر بين الكواكب عند الشاعرة أمّ بسطام بن قيس الشيباني، كما هو الحال في الصورتين السابقتين، ولكنها شبهته بالهلال هذه المرة، ولعل

---

(1) الخنساء وليلى الأخيلية: **ديوان الباكيتين**، ص91.

(2) المرجع السابق، ص100. (يجلو الدجى: يزيل الظلام).

ذلك يعود إلى بروزه عن بقية الكواكب الأخرى، وربما خصته من منازل القمر لأنه أشد ما يكون رقة ولمعاناً في هذه الحال، فتقول: (الطويل)

لِتَبْكِ ابْنَ ذِي الجِدَّيْنِ بَكْرُ بنُ وَائِلٍ فَقَدْ بَانَ مِنْهَا زَيْنُهَا وَجَمَالُهَا

إِذَا مَا غَدَا فيهَا غُدُوًّا كَأَنَّهُمْ نُجُومُ سَمَاءٍ بَيْنَهُنَّ هِلاَلُهَا(1)

وتجمع الشاعرة جنوب بنت العجلان الهذلية بين القمر ليلا والشمس نهارًا، من خلال استثمار ضوءيهما، لرسم صورة بديعة لأخيها عمرو حين رثته، فقد أحلته مكانهما لإضاءة الكون، لتجسد من خلال ذلك ما يتمتع به أخوها من الرفعة وعلو المنزلة، فتقول : (المتقارب)

وكُنْتَ النَّهَارَ بِهِ شَمْسَهُ وَكُنْتَ دُجَى اللَّيْلِ فيهِ الهِلاَلاَ (2)

فعلى الرغم من أنهما عنصران جماليان، متناقضان في دلالتهما على الليل والنهار، إلا أنها استطاعت أن تعبر عن مدى أهميتهما في حياتها، حيث جسدت بذلك عمق الفاجعة، فكأنها بفقده قد أضلت الطريق التي يعتبر النيران عماد الهداية فيها في الليل والنهار .

وتصف الخنساء أخويها بالنيرين، لتدلل على مكانتهما الرفيعة بين أصحابهما، عند اجتماعهما للتشاور في الأمور العظيمة في نادي القبيلة ومجلسها، حيث يكون بروزهما كبروز النيرين في السماء، فتقول : (الكامل)

أَسَدَانِ مُحْمَرَّا المَخَالِبِ نَجْدَةٌ بَحْرَانِ في الزَّمَنِ الغَضُوبِ الأَنْمَرِ

قَمَرَانِ في النَّادِي رَفِيعَا مَحْتِدٍ في المَجْدِ فَرْعَا سُؤْدَدٍ مُتَخَيَّرِ(3)

ويتضح من قولها، أنهما لم يكتسبا هذه المكانة والشهرة من باب المصادفة، بل ورثاها كابراً عن كابر، كما أنها لم تكتف بهذه الصفة وحسب، بل قرنتها بالكرم والشجاعة، وكأنها تريد القول: إن من تجتمع فيه هذه الصفات يستحق هذه المكانة المتميزة التي قلما تجتمع في أحد .

---

(1) ابن الأثير، عز الدين بن الحسن: **الكامل في التاريخ**، مج1, ط1، بيروت، دار صادر، 1982 ، ص616، وينظر: التميمي، أبو عبيدة معمر بن المثنى: **أيام العرب قبل الإسلام**، جمع وتحقيق: عادل جاسم البياتي، ط1، بيروت، مكتبة النهضة العربية، 1987, ص387.

(2) الهذليون: **الديوان**، القاهرة، الدار القومية للطباعة والنشر، 1965، ص123.

(3) الخنساء وليلى الأخيلية: **ديوان الباكيتين**، ص106. (محمرًا المخالب: كناية عن الشجاعة والإقدام. الأنمر: ما فيه نقطة بيضاء وأخرى سوداء).

برزت في شعر الجاهليين ظاهرتا الخسوف والكسوف، لاسيما في شعر الرثاء، حيث اقترنتا في فكرهم بموت عزيز أو سيد عظيم في قومه، ولعل الشعور النفسي الذي تولده هذه الظواهر الطبيعية كان أساس هذا الربط، من حيث غياب الميت وحجب الشمس والقمر .

وكان من طبيعة الشاعر الجاهلي " أن يمزج بين حاله النفسية وبين الطبيعة، التي تبـــدو حزينة إذا كان حزيناً، ومبتهجة إذا كان مبتهجاً، فليس لها كيان في نفسه إلا بمقدار ما تـــنعكس على صفحة إحساسه" [1] .

ويصف عنترة ما صاحب موت الملك زهير بن جذيمة من فوضى كونية، حيث خســـف القمر وتوارى نوره وتهاوت النجوم وغابت عن الأنظار ليعم الظلام، في إشارة واضحة إلـــى هول وقع الخبر على نفس عنترة فيقول: (الخفيف)

خُسِفَ البَدْرُ حِينَ كَانَ تَمَامــَا وَخَفَى نُورُهُ فَصَارَ ظَلاَمــَا

وَدَرَارِي النُّجُومِ غَارَتْ وَغَابَتْ وَضِيَاءُ الآفَاقِ صَارَ قَتَامــَا

حينَ قَالُوا زُهَيْرُ وَلَّى قَتِيلاً خَيَّمَ الحُزْنُ عِنْدَنَا وَأَقَامــَا [2]

وتتكرر الصورة السابقة ثانية في رثائه مالك بن زهير العبسي، إذ جعل القمر والشمس والنجوم تتشاطر الحزن على وفاته، ويرى أن تهاويها وغيابها خير دليل على ذلك، فيقول عنترة: (الطويل)

تُرَى هَلْ عَلِمْتَ اليَوْمَ مَقْتَلَ مَالِكٍ وَمَصْرَعَهُ فِي ذِلَّةٍ وَهَــوَانِ

فَإِنْ كَانَ حَقَّاً فَالنُّجُومُ لِفَقــــــدِهِ تَغِيبُ وَيَهْوِي بَعْدَهُ القَمَرَانِ[3]

وفي السياق نفسه تتحدث الخنساء عن عدم انتظام أطوار القمر بعد موت أخيها، وكأنه أعلن الحداد على موته، فتقول: (مجزوء الكامل)

وَالشَّمْسُ كَاسِفَةٌ لِمَهْــ لَكِه وَمَا اتَّسَقَ القَمـــــَرْ [4]

---

[1] عبد الصبور، صلاح: **قراءة جديدة لشعرنا القديم**، ط1, بيروت، دار النجاح، 1973، ص65.

[2] عنترة: **شرح الديوان**، ص166. (ودراري النجوم: النجوم اللامعة).

[3] عنترة: **شرح الديوان**، ص177.

[4] الخنساء وليلى الأخيلية: **ديوان الباكيتين**، ص289. (اتَّسق:انتظمت أطواره).

ومن الواضح في الأبيات السابقة, أن خسوف القمر عكس الحالة النفسية السيئة التي مرّ بها الشعراء, والتي تشي بالمأساة والحزن,لأنهم يعيشوا مأساة الفقد والضياع,لذلك لا يمكن أن يكون الخسوف الذي خُصّ به القمر إلاّ علامة من علامات الحزن التي تكشف عن أن الخسوف لا يقتصر على المظهر الخارجي وإنما هو ـ في بعض الأحيان ـ انعكاس للداخل.

ويبدو الشاعر أوس بن حجر متأثراً جداً بموت صاحبه فضالة بن كلدة، من خلال تساؤله عن سبب كسوف القمر والشمس والكواكب، ويعزو ذلك لأمر جلل، فيقول: (المتقارب)

أَلَمْ تُكْسَفِ الشَّمْسُ والبَدْرُ وَالـ ... كَوَاكِبُ للجَبَلِ الوَاجب

لِفَقْدِ فُضَالَةَ لا تَسْتَوِي الـ ... فُقُودُ وَلاَ خَلَّةُ الذَّاهِبِ (1)

وكأن الشاعر في هذه الأبيات يعتبر تغير القمر أمراً طبيعياً، وهذا يعكس الإحساس بالفراغ الكبير الذي تركه الميت, إذ لا يستطيع أحد ملأه.

وترى الخنساء أن البدر قد أظلم ومال إلى الكسوف بعد مقتل زوجها مرداس بن أبي عامر، ولم يقتصر الأمر على ذلك وحسب، بل إن كل ما عليه من مواد ظاهرة وباطنة قد بكت حزناً عليه، فتقول: (الطويل)

لَمَّا رَأَيْتُ البَدْرَ أَظْلَمَ كَاسِفَاً ... أَرَنَّ شَوَاذٌ بَطْنُهُ وَسَوَائِلُهْ

رَنِيَناً وَمَا يُغْنِي الرَّنِينُ وَقَدْ أَتَى ... بِمَوْتِكَ مِنْ نَحْوِ القُّرَيَّةِ حَامِلُهْ (2)

وعندما جاء الإسلام أبطل هذا الاعتقاد، وبين أن لا علاقة بين خسوف القمر وبين الموت. قال صلى الله عليه وسلم: " **إنَّ الشَّمسَ والقمرَ لا يُكسفان لموت أحدٍ ولا لحياته, وإنما هما آياتُ الله عزّ وجلّ فإذا رأيتموهما فافزعوا إلى الصَّلاة** " (3).

واتخذ الشاعر الجاهلي من اللون الأسود رمزاً للحزن على الميت، لما يحمله من دلالات تشاؤمية تجسدت في ذهنه منذ زمن بعيد، كما جعله وسيلة جوهرية ساهمت في التعبير عن المعنى

---

(1) أوس بن حجر: **الديوان**، ص10. (الواجب: السّاقط الذّاهب. خَلّة: الفرجة التي ترك بعده من الخلل الذي أبقاه في أموره) .

(2) الخنساء وليلى الأخيلية: **ديوان الباكيتين**, ص164 .

(3) النيسابوري، أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري: **الجامع الصحيح**، (نسخة مصورة من طبعة استانبول المحققة المطبوعة عام 1329 هـ), ج3, القاهرة، دار التحرير، 1883 هـ, ص36 .

وتعميقه، وبدا هذا جلياً عند الشاعرة أم ندبة، يوم فجعت بنبأ موت ابنها، حيث اتخذت من الليــل عنصراً رئيساً في إبراز التأثير المأساوي للخبر عليها، كما أنها لجأت إلى إضفاء اللون الأســود على البدر ليبقي الليل مستمراً، وكأن النهار لا يأتي أبداً، في إشارة منها إلى استمرارية حزنها، فتقول: (الوافر)

فَيَا يَوْمَ الرِّهَانِ فُجِعْتُ فِيهِ بِشَخْصٍ جَازَ عَنْ حَدِّ الصِّفَاتِ

وَلاَ زَالَ الصَّبَاحُ عَلَيْكَ لَيْلاً وَوَجْهُ البَدْرِ مِسْوَدَّ الجِهَــاتِ (1)

وهكذا، فإن اقتران صورة المرثي بصورة القمر، صورة مألوفة في الشعر الجــاهلي، ولعل ما يحمله القمر من صفات ودلالات تتلاءم مع المرثي، كان من الأســباب الكامنــة وراء ذلك، حيث غدت خير ممثل لما يختلج في نفسه من مشاعر وعواطف جياشة تجاه المرثي .

---

(1) صقر: **شاعرات العرب**، ص446.

المبحث الثالث

القمر والمدح

احتل شعر المديح في العصر الجاهلي مكانة بارزة بين أغراض الشعر الأخرى، وتعود هذه المكانة إلى كونه مصدراً أساسياً لكسب المال عند الشعراء، كما أنه كان وسيلة سهلة توصل الشاعر إلى ممدوحه الذي يبدو أنه كان متعطشاً لمثل هذا المدح، كي يعلو صيته وترتفع مكانته، من هنا راح الشعراء يسقطون على ممدوحيهم كثيراً من المزايا والصفات التي كانت في معظمها تتسم بالمبالغة الشديدة، والخروج عن المألوف، محاولين من خلالها جعل ممدوحيهم "مثالاً للكمال، ورمزاً لمعان إنسانية عليا، يطرب لها، ويعتز بها، فهو شعر أقرب إلى الحلم بوجود عالم مثالي، يحاول الشاعر أن يخلقه خلقاً " [1]، وقد حظي الملوك وزعماء القبائل بحصة الأسد منه .

وجد الشاعر الجاهلي في الظواهر الطبيعية، وعناصرها المحيطة به مصدراً خصباً يستلهم من خلاله صفات ممدوحه، فنراه مقترناً بالشمس أو القمر أو بالنجوم أو بالبدر، وهي عناصر تحمل في طياتها معاني السطوع والبريق والإشراق والسيادة وشرف الأصل وعراقته .

واستطاع الشاعر الجاهلي ــ من خلال ما يملكه من خبرة، وحس مرهف ــ أن يستثمر ما يتصف به القمر، ويجعله وعاء يغترف منه ما لذ وطاب من الصفات التي ترضي غرور ممدوحه، وتشعره بالنشوة والتميز .فيصف النابغة الذبياني الملك النعمان بن المنذر بالفارس المحارب الذي يتسم بالقوة والشجاعة إلى جانب الكرم وعلو المنزلة، ويلجأ إلى ربط هذه الصفات بخلقته الجميلة التي تشبه القمر، فيقول: (البسيط)

أَخْلاقُ مَجْدِكَ جَلَّتْ مَا بِهَا خَطَرُ ... فِي البَأْسِ وَالجُودِ بَيْنَ العِلْمِ وَالخَبَرِ

مُتَوَجٌ بِالمَعَالِي فَوْقَ مَفْرَقِــــهِ ... وَفِي الوَغَى ضَيْغَمٌ فِي صُورَةِ القَمَرِ [2]

فالشاعر يمنح الممدوح صفة الأسد, ولكنه حتى يظهر جمالية هذا الوصف وتميزه, يصفه إلى جانب القمر.

---

[1] الشرقاوي، عفت: **دروس ونصوص في قضايا الأدب الجاهلي،** ط1, بيروت, دار النهضة العربية، 1979، ص321.

[2] النابغة الذبياني: **الديوان،** تحقيق: كرم البستاني، ط1, بيروت، دار صادر، 1963، ص74 .(ضيغم: أسد) .

كما أن هذا الربط ــ في البيتين السابقين ــ بين الحسن والشجاعة, يحمل بين طياته من الدلالات والإيحاءات التي يسبغها على الممدوح, والتي تتناغم في إيقاع جمالي مميز, مما جعل الشاعر يبدع في وصف ممدوحه, إذ كشفت عن صورته, وبينت خصاله وفضائله.

ولجأ بعض الشعراء إلى الجمع بين القمر وبعض الكواكب الأخرى ــ لا سيما الشمس ــ لخلق صورة في غاية الإبداع والروعة، تليق بممدوحيهم. فهذا الشاعر حُجَيَّة بن المُضَرِّب الكنديّ يجمع بين القمر والشمس في وصفه للملك يَعْفُرُ بن زرعة، ووصف مكانته الرفيعة في قومه، فيبين أن اكتسابه للصفات التي أهلته لهذه المنزلة العظيمة لم تأت من فراغ، إنما ورثها عن أجداده منذ الأزل، واصفاً نسبه فيهم بأنه أشد وضوحاً من نور الشمس والقمر، في إشارة واضحة إلى أن نسبه قد نشأ قبل أن ينشأ النيران، وهو مستمر باستمرارهما، وعريق كعراقتهما، فيقول: (الطويل)

سَمَوْا فِي المَعَالِي رُتْبَةً فَوْقَ رُتْبَةٍ	**أَحَلَّتْهُمُ حَيْثُ النَّعَائِمُ وَالنَّسْرُ**
أَضَاءَتْ لَهُمْ أَحْسَابُهُمْ فَتَضَاءَلَتْ	**لِنُورِهِمُ الشَّمْسُ المُنِيرَةُ وَالبَدْرُ** [(1)]

ويبالغ عنترة في مدح الملك كسرى أنو شروان، حيث يرى أن أقل صفة من صفات صورته موازية لتمام البدر، وقد ازداد جمالاً بوجود النجوم من حوله، فيقول: (الوافر)

جَوَاهِرُهُ النُّجُومُ وَفِيهِ بَدْرٌ	**أَقَلُّ صِفَاتِ صُورَتِهِ التَّمَامُ** [(2)]

ويعود البدر عند عنترة للظهور مرة أخرى في سياق مدح الملك كسرى أنو شروان، فيرى أنه كريم معطاء، يقصده أصحاب الحاجة فلا يخذلهم، فهو كالبدر الذي يعد ملاذاً للسائرين ليلاً، مبيناً أنه يتساوى معه في العطاء وعلو المنزلة، فالملك يجود بماله والبدر يجود بضوئه، فيقول: (الكامل)

يَا أَيُّهَا المَلِكُ الَّذِي رَاحَاتُهُ	**قَامَتْ مَقَامَ الغَيْثِ فِي أَزْمَانِهِ**
يَا قِبْلَةَ القُصَّادِ يَا تَاجَ العُلاَ	**يَا بَدْرَ هَذَا العَصْرِ فِي كِيوَانِهِ**

---

(1) القالي، أبو علي إسماعيل بن القاسم: **الأمـالي**، ج1, ط1, بيروت، دار الآفاق الجديدة، 1980، ص 54. (النعائم: من منازل القمر, ثمانية كواكب: أربعةٌ صادرة (خارج المِجرَّة), وأربعة واردة (في المِجَرَّة)). النَّسر, (النسران) : كوكبان في السماء معروفان على التشبيه بالنسر الطائر).

(2) عنترة: **شرح الديوان**، ص169 .

يا مُخجِلاً نَوْءَ السَّماءِ بِجودِهِ   يا مُنْقِذَ المَحْزُون من أحْزانِهِ[1]

إن الجانب الجمالي الذي يحققه البدر هنا يوحي بأن البدر لا يتوقف عند دلالته الخاصة, وإنما يمتزج مع الصفات الأخرى, والتي لا تقل أهمية عنه, إذ منحها جمالاً على جمالها.

ويجعل كعب بن زهير من القمر أباً ومن الشمس أماً لممدوحه، ليدلل على عراقة أصله، وصفاته الكريمة الموروثة من آبائه وأجداده، فيقول: (الطويل)

فَتَىً لَمْ يَدَعْ رُشْدَاً ولَمْ يَأْتِ مُنْكَرَاً   وَلَمْ يَدْرِ مِنْ فَرْطِ السَّمَاحَةِ مَا البُخْلُ

بِهِ أَنْجَبَتْ لِلْبَدْرِ شَمْسٌ مُنِيرَةٌ   مُبَارَكَةٌ يَنْمِي بِهَا الفَرْعُ وَالأَصْلُ [2]

ويمدح الأعشى هَوْذَة بن علي الحَنَفيّ، فيقول إن القمر والشمس مسخران لطاعته والامتثال لأوامره، ولا يكتفي بهذا، بل جعله يوقف القمر عن السير، والشمس عن الإنارة بمجرد مناداتهما, فيقول: (الطويل)

وَمَا كَانَ فِيهَا مِنْ ثَنَاءٍ وَمِدْحَـــــــةٍ   فَأَعْنِي بِهَا أَبَا قُدَامَةَ عَامِدَا

فَتىً لَوْ يُنَادِي الشَّمْسَ أَلْقَتْ قِنَاعَهَا   أَوْ القَمَرَ السَّارِي لأَلْقَى المَقَالِدَا [3]

من الواضح ــ في البيتين السابقين ــ أن استحضار الشاعر للنيرين مكّنــه مــن رســم صورة مثالية للممدوح, إذ إن قدرة الممدوح طغت على قدرة النيرين.

وقد يلجأ الشاعر إلى ذكر أعضاء جسم الممدوح، ويقرنها بالقمر والكواكب الأخــرى، مما يخيل لنا أن الشاعر يصف امرأة، ويتغزل بها، يقول الشاعر ابن عنقاء الفزاري فــي مــدح عميلة الفزاري: إنك عندما تراه تظن أن القمر ملتصق بخده، والثريا بنجومها المختلفة في عنقه، والشعرى اليمانية اللامعة على أنفه، في إشارة إلى أن الخير والــنعم باديــة عليــه، وصــفاته المحمودة واضحة كوضوح القمر والكواكب: (الطويل)

غُلاَمٌ رَمَاهُ اللهُ بِالْخَيْرِ مُقْبِلاً   لَهُ سيمِياءٌ لاَ تَشُقُّ عَلَى البَصَـــرْ

كَأَنَّ الثُّرَيَّا عُلِّقَتْ فَوْقَ نَحْرِهِ   وَفِي أَنْفِهِ الشِّعْرَى وَفِي خَدِّهِ القَمَرْ[4]

---

[1] عنترة: **شرح الديوان**, ص171.

[2] كعب بن زهير: **الديوان**، تحقيق وتقديم وشرح: علي فاعور، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، 1987, ص80 .

[3] الأعشى: **شرح الديوان**، ص103. (ألقت قناعها: ذهب حسنها ونورها. ألقى المقالدا: أقرَّ له بالحُسن) .

[4] النعانعة: **شعر غطفان في الجاهلية وصدر الإسلام**، ص542. (سيمياء: علامة. الشعرى: نجم في السماء) .

وتبرز قدرة الشاعر في البيتين السابقين من خلال تحويل الممدوح إلى صـــورة بديعـــة مشحونة بطاقات دلالية أعمق من الدلالات الحرفية, إذ يـــتمكّن الشـــاعر مـــن تحويـــل الكواكب والقمر, لتكون دلالات تحمل بين طياتها أبعاداً وظيفية أكثر ممـــا تحمـــل مـــن صور بصرية تراها العين.

ويظهر إصرار الأعشى على التأكيد بأن ممدوحه علقمة بن علاثة معروف، مشـــهور لا يستطيع أحد أن ينكر جوده، كما لا يخفى على أحد، فهو كالقمر فـــي نـــوره، وكالشـــمس فـــي ضوئها، ولا يستطيع أحد أن ينكر ضوءهما، فيقول: (المتقارب)

وَإِنْ فَحَصَ النَّاسُ عَنْ سَيِّدٍ   فَسَيِّدُكُمْ عَنْهُ لاَ يُفْحَصُ

فَهَلْ تُنْكَرُ الشَّمْسُ فِي ضَوئِهَا   أَوْ القَمَرُ البَاهِرُ المُبْرِصُ[1]

وتبرز قدرة الشاعر في هذين البيتين من خلال تحويل النيرين إلى معادل موضوعي للممدوح,مما يجعل هذا الوصف مليئا بالطاقات الإيحائية والدلالات العميقة, لتحمل بين ثناياها معاني كثيرة, أراد الشاعر أن يصبغها على الممدوح.

لقد اقترنت قيمة الكرم بالقمر عند الشاعر الجاهلي، وكان العربي يفخر بهذه القيمة ويعدها من أسس السيادة، حيث " كان لها مغزى سياسي واجتماعي كبير عند سيد القوم، من خلال استغلالها لدعم سلطته "[2]، وقد استثمرها الشعراء في المدح، وربطوها بقرى الضيف والشجاعة والبطولة .

وأصبحت الأيام العصيبة والسنوات القاحلة مقياساً للجود والكرم، حيث تكون فيه الحاجة أعظم، والإنسان فيه أعوز للمساعدة، من هنا، لجأ الشعراء إلى القمر لإبراز مكانة الكريم، وقيمة الكرم والجود كفضيلة من الفضائل التي تستحق المدح والثناء، لا سيما في أوقات القحط والجدب والبرد الشديد، فكانت حاجة العرب إلى الكريم وقت الشدة كحاجتهم إلى القمر في الليلة الظلماء, فهذا مالك الهذليّ يمدح زهير بن الأغر، ويصفه بالقمر الذي يضيء الليالي

---

[1] الأعشى: **شرح الديوان**، ص48. (المبرص: الأبيض على التشبيه بالمُصاب بالبرص) .

[2] يُنظر: دلو، برهان الدين: **جزيرة العرب قبل الإسلام**، ج1, ط1، بيروت، دار الفارابي، 1989، ص 157 .

الشديدة الظلمة، لأن حاجة الناس تكون للقمر أشد في تلك الليالي، ليدلل على جوده في الأيام الصعبة التي يقل فيها الطعام، فيقول: (الوافر)

فَتىً مَا ابْنُ الأَغَرِّ إِذَا شَتَوْنَا وَحَيْثُ الزَّادُ في شَّهْرَيّ قِمَاحِ

أَقَبُّ الكَشْحِ خَفَّاقٌ حَشَـــاهُ يُضِيءُ اللَّيْلَ كَالقَمَرِ اللِّيَاحِ (1)

ويجعل زهير بن أبي سلمى بيوت قبيلة هرم بن سنان ملاصقة للقمر، لما أظهروا لـه من مروءة، وكرم، وحسن استقبال، بعد أن استطاع هرم بن سنان إيقاف الحرب بين قبيلتيّ عبس وذبيان وهم يفخرون بهذه الفضائل ويعتزون بوصولهم لهذه المنزلة، فيقول: (البسيط)

هَلْ تُبْلِغَنِّي إلى الأخيارِ ناجيـــةٌ تَخْدي كَوَخْدِ ظَليمٍ خاضبٍ زَعَرِ

في يَوْمِ دَجْنٍ يُوَالِي الشَّدَّ في عَجَلٍ إلَى لِوَى حَضَنٍ مِنْ خِيفَةِ المَطَرِ

حَتَّى تَحُلَّ بِهِمْ يَوْماً وَقَدْ ذَبَلَـــتْ مِنْ سَيْرِ هَاجِرَةٍ أَوْ دُلْجَةِ السَّحَرِ

قَوْماً تَرىَ عِزَّهُمْ بِالفَخْرِ إنْ فَخَرُوا في بَيْتِ مَكْرُمَةٍ قَدْ لُزَّ بِالقَمَـرِ(2)

ويتحدث الشاعر قيس بن الحدادية عن ممدوحه أسد بن كرز، وقد حلّ ضيوف عنده بعد يوم شاق، فأكرمهم وأزال التعب عنهم، فهو كالبدر الذي يزيل ظلام الليل بنوره، فيقول: (البسيط)

وَقَدْ حَلَلْنَا بِقَسْرِيٍّ أَخِي ثِقَةٍ كَالبَدْرِ يَجْلُو دُجَى الظَّلْمَاءِ وَالأُفُقَا (3)

وتتكرر هذه الصورة عند الشاعر حذافة بن غانم يمدح بني شيبة الحمد، فيصف النور الذي يسطع من وجوههم بنور البدر الذي يزيل الظلام، في إشارة ضمنية لكرمهم وحسن استقبالهم للضيوف، فيقول: (الطويل)

بَنِو شَيْبَةَ الحَمْدِ الَّذِي كَانَ وَجْهُهُ يُضِيءُ ظَلاَمَ اللَّيل كَالقَمَرِ البَدْرِ(4)

---

(1) الهذليون: **الديوان**، ج2،ص6 . (شهريَ قماح: شهرا الشتاء فيهما البرد الشديد. أقبُّ الكشح خفاق حشاه: ضامر البطن. اللياح: الأبيض) .

(2) زهير بن أبي سلمى: **شرح الديوان**، تحقيق: فخر الدين قباوة، ط1، بيروت، دار الآفاق الجديدة، 1982، ص 232. (دلجة السَّحر: آخر الليل).

(3) الأصفهاني: **الأغاني**، ج14, ص151. (قسريٌّ: شجاع) .

(4) النعانعة، إبراهيم: **شعر بني كنانة في الجاهلية وصدر الإسلام**، ، ط1، عمّان، دار جرير، 2007، ص389. (شيبة الحمد: عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشيّ, جدّ النبيّ عليه الصلاة والسلام) .

وأراد بعض الشعراء لممدوحيهم مكانة أعلى من القمر، في صورة مشبعة بالمبالغة والخروج عن المألوف، هدفوا من خلالها إلى خلق شعور نفسي تشيع فيه علامات الرضى والارتياح عند الممدوح .

فيبالغ زهير بن أبي سلمى في الثناء على ممدوحه هرم بن سنان، لما كان يتمتع به من الفضائل والسجايا الحميدة، فيرى أنه لو لم يخلق بشراً، لكان مكان البدر، ينير السماء بدلاً منه، في إشارة واضحة إلى أنه في نظر الشاعر أعلى مكانةً من البدر، فيقول: **(الكامل)**

أُثْنِي عَلَيْكَ بِمَا عَلِمْتُ وَبِمَـــا سلَّفْتَ في النَّجْدَاتِ وَالذِّكْرِ

لَوْ كُنْتَ مِنْ شَيْءٍ سِوَى بَشَـــرٍ كُنْتَ المُنَوِّرَ لَيْلَةَ البَدْرِ [1]

من الملاحظ في هذين البيتين, أن الشاعر استحضر عنصر القمر بما يوحيه من دلالات الإنارة, ليدلل على مكان الممدوح الذي استطاع أن يوقف رحى الحرب التي دارت بـين عـبس وذبيان, فهذه الدلالات توحي بما تحمله نفسية الممدوح من نواحٍ مشرقة.

ويرسم الأعشى صورة مماثلة لممدوحة الملك هَوْذَة بن عليّ، حيث جمع بعض الصفات العظيمة للهلال، وأضفاها على الملك، مع حرصه على التأكيد أن صفات الملك تسمو على هذه الصفات، فيقول: **(المتقارب)**

إِلَى مَلِكٍ كَهِلالِ السَّمَـــا ءِ أَزْكَى وَفَاءً وَمَجْداً وَخَيْـــرَا

طَوِيلِ النِّجَادِ رَفِيعِ العِمـــا دِ يَحْمِي المُضَافَ وَيُعْطِي الفَقِيرَا [2]

ويمدح الشاعر جبل بن جوال الثعلبي اليهوديّ سعد بن معاذ وقومه، وقد ربط شهرة مجدهم بالبدر، و يصفه بأنه أكثر ثباتاً، وأوسع انتشاراً من نور البدور، حيث أن نورها برغم قوته لا يستطيع تغييبه، فيقول: **(الوافر)**

وَكُلُّ الكَاهِنِينَ وَكَانَ فِيهِـــمْ مَعَ اللِّينِ الخَضَارِمَةِ الصُّقُورُ

وَجَدْنَا المَجْدَ قَدْ ثَبَتُوا عَلَيْهِ بِمَجْدٍ لا تُغَيِّبُهُ البُدُورُ [3]

---

[1] زهير: **شرح الديوان**، ص82 .

[2] الأعشى: **شرح الديوان**، ص26. (خيرا: الكرم. طويل النجاد: النجاد: حمائل السيف, وهذه كناية عن طـول قامتـه. رفيع العماد: العماد, أعمدة البيت, وهذه كناية عن علو المنزلة والشرف. المُضاف: المستجير الّلاجئ) .

[3] مقداد: **شعر يهود في الجاهلية وصدر الإسلام**، ص392.

وإذا قارنا بين ممدوح زهير وممدوح الأعشى وجبل الثعلبي، نرى أن ممدوح الأعشى أعلى مكانة من ممدوح زهير، على الرغم من أن مكانة الاثنين أعلى من مكانة القمر، حيث إن ممدوح زهير يتفوق على القمر بصفة واحدة، وهي الإنارة، أما ممدوح الأعشى فيتفوق عليه بأكثر من صفة، وأما ممدوح جبل الثعلبي فهو أعلى من الاثنين معاً، ويبدو ذلك من خلال استخدامه صيغة الجمع (البدور) بدلاً من صيغة المفرد التي استخدمها الشاعران، وهذا يدل على قوة الوضوح والتواصل والثبات .

ويوضح الأعشى أن يديّ ممدوحه ــ قيس بن معد يكرب ــ تفيض بالعطاء والكرم، وكأنه البدر إشراقاً وهيبةً، إن قال تمّ على قوله وأوفاه، ليدلل على أن كرمه يبرز للناس كما يبرز الهلال في السماء، ولا يمكن إخفاؤه، فيقول: (مجزوء الكامل)

مُتَحَلِّبُ الكَّفَيْنِ مِثْـــ لِ البَدْرِ قَوَّالٍ وَفَاعِلْ[1]

فالأعشى أراد بهذه الصفات التي اصبغها على ممدوحه, والتي لا تليق إلاّ بملك, أن يبين مكانته وقدره ليجعله يصل إلى مكانة البدر, وهي إشارة توحي بتمييز الممدوح عن غيره .

ويمزج حسان بن ثابت بين المدح والفخر في وصفه للمِرْقال قَيْس، ويقرنه بالهلال، مبيناً فخره بوجوده المميز بينهم، وكأنه الهلال في جماله وطلعته، فيقول: (الوافر)

وَنَحْنُ الحَاكِمُونَ بِكُلِّ أَمْرٍ قَدِيماً نَبْتَنِي شَرَفَ المَعَالِي

وَلا يَنْفَكُّ فِينَا مَا بَقِينَا مُنِيرَ الوَجْهِ أَبْيَضَ كَالهِلالِ[2]

ومن الواضح أن اقتران صفات الهلال بصفات ممدوح حسان، جعلها تحمل من الدلالات ما يوحي بالاستمرارية والتميز والجمال .

ذهب الشاعر زبَّان بن سيَار الفزاري إلى المقارنة بين ظهور ممدوحه وظهور الهلال، فيرى أن الناس ينتظرون عطاءه كما ينتظرون ظهور الهلال، فإذا ظهر أغدق على الناس من عطاياه كما يبعث القمر نوره على كل الدنيا، فيقول: (الوافر)

---

(1) الأعشى: **شرح الديوان**، ص143. (متحلب الكفين: كناية عن الكرم) .

(2) حسان: **الديوان**، ص277.

تَغَيَّبَ عَنْكَ هَذَا الشَّهْرُ حَتَّى   أَتَاكَ لِلَيْلَةٍ مِثْلُ الهِلالِ [1]

واقترن تعظيم الملك عند بعض الشعراء بالهلال، ولعل لمكانته الدينية في حياتهم وحاجتهم إليه، علاقة بهذا الربط، من حيث القيام للقمر وطاعة الملك، وقد بدا هذا جلياً عند الأعشى في مدحه للملك الأسود بن المنذر اللخمي، رابطاً بين قيام القوم للملك تعظيماً وإجلالاً، وقيامهم عند رؤية الهلال، فيقول: **(الخفيف)**

أَرْيَحِيٌّ صَلْتٌ يَظَلُّ لَهُ القَوْ   مُ رُكُوداً قِيَامَهُمْ لِلْهِلالِ [2]

ويبدو أن الربط النفسي والشعوري بين الملك والقمر هو الذي أضفى علي الملك هالــة من القدسية، كما سنرى عند دراسة البعد الميثولوجي لصورة القمر .

وهكذا فان ارتباط القمر بالممدوح لم يكن وليد الصدفة، بل كانت له مبرراته ودوافعه عند الشاعر الجاهلي، متمثلة فيما يشكله القمر من أهمية في حياته يعكسها على الممدوح: فنوره الحاني الذي يضيء ظلمة الليل، جعل قلوبهم وأبصارهم تتعلق به، لما تركه من أثر كبير في حلهم وترحالهم، كما أنه ارتبط في عقليتهم بمفهوم الزمن من خلال الأطوار المختلفة التي يمر بها، والتي تساعدهم في تحديد كثير من الأوقات المهمة في حياتهم، إضافة إلى بعده الديني، من خلال نظرتهم له كمعبود .

فقد تمكن الشاعر الجاهلي من استثمار هذه الصفات، وصياغتها بأسلوب فني بارع، وعكسها على الممدوح، لتغدو متنفساً واسعاً يجسد من خلالها ما يختمر في نفسه من مشاعر جياشة وعواطف صادقة تجاهه.

---

[1] النعانعة: **شعر غطفان في الجاهلية وصدر الإسلام**، ص393.

[2] الأعشى: **شرح الديوان**، ص26. (أريحي: يرتاح للمعروف. صلت: ماض قاطع) .

المبحث الرابع

القمر والهجاء

كما اتخذ الشعراء الجاهليون من القمر رمزاً للمدح، اتخذوا منه رمزاً للهجاء، من خلال صياغة بعض صوره لخدمة هذا الغرض، مستخدمين أفكاراً جديدة حققت لهم غرض التعبير الفني المتنوع، وغرض الانتقاص من قدر المهجو، والرد عليه بما يحقق تفوقهم .

وكان في طليعة هؤلاء الشعراء حسان بن ثابت في هجائه لأعدائه وأعداء قومه، وكان ممن هجاهم وأقذع في هجائهم، بنو شجع، وبخاصة زعيمهم، فهو ضعيف جبان، لأنه ينتمي إلى قبيلة تتصف باللؤم والجبن، مؤكداً شهرة هذا اللؤم وانتشاره بين الناس كشهرة طلوع القمر ومعرفة الناس له، فيقول: (البسيط)

وَأَنْتَ عَبْدٌ لِقَينٍ لا فُؤَادَ لَهُ   مِنْ آلِ شَجْعٍ هُنَاكَ اللُّؤْمُ وَالخَوَرُ

وَقَدْ تَبَيَّنَ في شَجْعٍ وِلادَتُكُمْ   كَمَا تَبَيَّنَ أَنَّى يَطْلُعَ القَمَـــــرُ[(1)]

ويلجأ حسان ــ في هجائهم هذه المرة ــ إلى أسلوب المفاضـــلة بـــين القمـــر والكواكـــب الأخرى، حيث يصف علو كلمة قومه على كلمتهم بعلو القمر على باقي الكواكب، وبروز نـــوره على نورها، ليدلل على ضعف حجتهم أمام حجة قومه، فيقول: (البسيط)

قَوْمٌ لِئَامٌ أَقَلَّ اللهُ خَيْرَهُـــمُ   كَمَا تَنَاثَرَ خَلْفَ الرَّاكِبِ البَعْرُ

كَأَنَّ رِيحَهُمُ في النَّاسِ إِذْ خَرَجُوا   رِيحُ الكِلابِ إِذَا مَا بَلَّهَا المَطَرُ

قَدْ أَبْرَزَ اللهُ قَوْلاً فَوْقَ قَوْلِهِمُ   كَمَا النُّجُومُ تَعَالَى فَوْقَهَا القَمَرُ[(2)]

ففي المثالين السابقين نجد حسان قد مهد الطريق أمام وصفه لهم، وذلك باستحضار أقذع صور الهجاء وأشدها أذىً، وأكثرها تأثيراً في النفس، وربطها ببروز القمر ووضوحه، ليبين من خلالها رغبته الملحة في تعميق إحساسهم بالعار والذل والإهانة والنقص، وإبراز مخازيهم جلية أمام سائر القبائل .

---

(1) حسان: **الديوان** ص175. (القَيْن: الحدَّاد. الخور: الضعف).

(2) المرجع السابق, ص346 .

ويبين الشاعر مضرس بن ربعي الأسدي أن مهجوه غير مرحب به في أرضه، ويتمنى له أن يعيش في منزل مظلم لا يصله ضوء القمر ونور الشمس، في إشارة إلى القبر، وكأنه يتمنى لـــه الموت، فيقول: (البسيط)

فَإِنْ قَرُبْتَ فَلا أَهْلٌ وَلا رَحُبَتْ أَرْضِي عَلَيْكَ وَلا اخْتِيرَتْ لَكَ الخِيَرُ

وَإِنْ بَعُدْتَ فَأَقْصَاهَا وَأَبْعَدُهَا فِي مَنْزِلٍ لا بِهِ شَمْسٌ وَلا قَمَرُ[1]

ويعيب الشاعر هدبة بن الخشرم العذريّ على بني أميمة ما كانوا يتصفون به من الاستعلاء والتكبر على الآخرين، وكأنهم بهذا قد وصلوا إلى منزلة القمر في العلو، مبدياً سخريته واستنكاره لذلك، لأنهم في واقع أمرهم يتساوون مع التراب في المنزلة، فشتان مابين الثرى والثريا، فيقول: (الكامل)

نَاطُوا إِلَى قَمَرِ السَّمَاءِ أُنُوفَهُمْ وَعَنِ التُّرَابِ خُدُودُهُمْ لا تُرْفَعُ[2]

فاقتران القمر بصفة التعالي، والتراب بصفة الوضاعة ــ في البيت ــ يجعلهما يحملان من الدلالات ما يوحي بالمبالغة فيهما، فالغلو في التكبر يقابله وضاعة في المنزلة. فعلى الرغم من التناقض بين القمر والتراب في المنزلة هنا، فإنهما يجتمعان في الدلالة الرمزية التي تجسد الانحطاط الذي هم فيه .

اتخذ بعض الشعراء من البخل منطلقاً لهجاء أعدائهم، إذ إن العربي كان يتطير من هذه الصفة، ويعدها من المثالب السيئة القبيحة التي تحط من قدره، وتلهج بسيرته وسيرة قبيلته الألسن وتسير بها الركبان .

ويذكر الشاعر حسان بن ثابت في هجائه بني سهم، ما كان تأصل فـيهم مـن صـفات قبيحة، لاسيما بخلهم المتمثل في عدم إكرام الضيف، ويرى أنه إذا نزل بهم أحد يطلب طعامـاً، فكأنه نزل على القمر، فهو بعيد ولا طعام عنده، فيقول: (البسيط)

هُذْرٌ مَشَائِيمُ مَحْرُومٌ ثَوِيُّهُمُ إِذَا تَرَوَّحَ مِنْهُمْ زُوِّدَ القَمَرَا [3]

---

[1] مضرس بن ربعي الأسدي: **حياته وشعره**، جمع وتحقيق نوري حمودي القيسي، مجلة المجمع العلمي العراقي، عدد1، مجلد37، بغداد، 1986 \ 150.

[2] هدبة بن الخشرم: **شعره**، جمع وتحقيق: يحيى الجبوري، ط1، دمشق، منشورات وزارة الثقافة، 1986، ص117.

[3] حسان: **الديوان**، ص343. (ثويهم: من يأوي إليهم) .

ويهجو الشاعر عمرو بن أحمر الباهلي أعداءه، ويصفهم بالبخل الشديد، فهم إذا طلبـوا حقًا عموا عنه ليلاً ونهاراً, وقد عبر عن ذلك بصورة رائعة، تصور ليلهم بشدة الإظلام، حتـى مع وجود البدر الذي لم يتمكن من إزالة هذه الظلمة لشدتها، وكأن من يلجأ إليهم عند جـودهم لا يجد منهم سوى البخل، فيقول: (الطويل)

نَـهَارُهُمْ ظَمْآنُ ضَاحٍ وَلَيْلُهُـمْ　　　إنْ كَانَ بَدْراً ظُلْمَةُ ابْنِ جَمِيـــرِ

إذَا أَنْتَ رَاوَدْتَ البَخِيلَ رَدَدْتَهُ　　　إلَى البُخْلِ وَاسْتَمْطَرْتَ غَيْرَ مَطِيرِ[1]

فهاتان الحالتان المتضادتان للقمر ترمزان إلى تأصل صفة البخل فيهم، والتي لا يمكنهم التخلي عنها مهما طال الزمن أو قصر. ومن الملاحظ في أبيات حسان والباهلي: أن لجوءهما إلى إقران القمر بالبخل، أضفى على بخل أعدائهم بعداً جمالياً يشوبه الاستهزاء، وتحيط به السخرية، لأنه يجسد رغبة الشاعرين في تزيين صورة بخل أعدائهم، لإظهاره وكأنه أمر طبيعي فيهم .

أما الشاعر أوس بن حجر فنجده يلجأ إلى استحضار طورين للقمر في هجائه بني سعد الأسدي، حيث يصفهم بالمغمورين المنعزلين عن الناس، فلا شأن لهم بين القبائل، ولا يعرفهم أحد، ولا يعرفون ما يحدث حولهم من أمور، مشبهاً مكانتهم بين القبائل بالليلة التي يكون فيها القمر غير واضح الأطوار، حيث يغم على مترقبيه، فلا يعرفون أهو هلال أم بدر، فيقول:

(الطويل)

مَعَازِيلُ حَلاَّلُونَ بِالغَيْبِ وَحْدَهُمْ　　　بِعَمْيَاءَ حَتَّى يَسْأَلُوا الغَدَ مَا الأَمْرُ

فَلَوْ كُنْتُمُ مِنَ اللَّيَالِي لَكُنْتُـــمُ　　　كَلَيْلَةِ سِرٍّ لا هِلال وَلا بَـــدْرُ[2]

ولعل هذا التشبيه يعود إلى طبيعة حياة العربيّ الصحراوية، وحاجته الملحة لأطوار القمر في معرفة الوقت وتحديد الزمن، ولا يستطيع ذلك إلا إذا كان القمر واضحاً له .

كما أن استثمار الشاعر هذين الطورين في الهجاء، يعكس مقدرته الكبيرة على خلق واقع غنيّ بالدلالات والمستويات الجمالية ليسمو بها إلى مستوى الحقيقة .

---

(1) عمرو بن أحمر الباهلي: **شعره**، ص49، (ابن جَمير: آخر ليلة في الشهر,ولا يُرى القمر فيها) .

(2) أوس بن حجر: **الديوان**، ص38. (معازيل: مغمورين).

كانت المحافظة على حرمة الجار وحماية ممتلكاته من العادات التي تأصلت عند العربي في العصر الجاهلي، وإذا قام أحد بانتهاكها أو التقصير فيها، فإنه يعرض نفسه للهجاء والتقبيح، وقد اقترنت في بعض صورها بالقمر، فهذا طرفة بن العبد البكري يهجو الملكين قــابوس بــن المنذر وعمرو بن هند، ويصفهما بعدم حماية من يلجأ إلى جوارهما، بعد أن سرقت إبلــه مــن أرضهما، فيقول إنه وضعها في جوارهما ولم يتركها هملاً بلا راعٍ يحفظها القمر: (الطويل)

وكَانَ لَهَا جَارَانِ قَابُوسُ مِنْهُمَا حِذَاراً ولَمْ أَسْتَرْعِهَا الشَّمْسَ والقَمَرْ

وَعَمْرُو بنُ هِنْدٍ كَانَ مِمَّنْ أَجَارَهَا وَبَعْضُ الجِوَارِ المُسْتَغَاثُ بِهِ غَرَرْ [1]

ويبدو أن الشاعر أراد من خلال استحضاره القمر، أن يشير إلى أنه لو استرعاها القمر لأجارهما وحافظ عليها، ولعل ذلك يشي برغبته الملحة في الاستهزاء والسخرية منهما والحط من مكانتهما كملكين، الأمر الذي يعمق إحساسهما بالذنب، وإحساسه بأنه أوصل الرسالة وشفى غله .

ويهجو الشاعر الرحال النميري المعروف بـــ (عروة الرحال) زوجته, مستحضراً أكثر حالات القمر إظلاماً, وهو طور المحاق, فيتحدث عن قيام أهلها بإحضارها قبل المحاق بليلة واحدة، في إشارة واضحة إلى انه يأسف على زواجه بها, كما أن هذا الوصف يدلل على ما كان يعانيه الشاعر من حياته معها, وكأنها فد حولت أيامه إلى أيام سوداء ملؤها التعاسة والشقاء لدرجة أنه أحسّ بأن كل أيام ذلك الشهر كانت محاقاً، فيقول: (الطويل)

أَتونِي بِها قَبْلَ المُحاقِ بِلَيْلَةٍ فَكَانَ مُحَاقاً كُلُّهُ ذَلِكَ الشَّهــرِ [2]

وهكذا، فعلى الرغم مما يحمله القمر من صفات إيجابية، تنطوي على دلالات الحنو والحلم والسمو والأمل وتبديد الظلمة، إلا أن الشاعر الجاهلي استطاع ــ بذكائه وخبرته ــ استثمارها في الهجاء. كما أنه تمكن من إكسابها دلالات رمزية مختلفة الإيحاءات، تتناسب مع صفات المهجو، وتتلاءم مع شعور الشاعر تجاهه والتي تشي برغبته الملحة في إهانته والحط من قدره.

---

[1] طرفة بن العبد البكري: **الديوان**، شرح: الأعلم الشنتمري، تحقيق: درية الخطيب ولطفي الصقال، ط1, دمشق، مطبعة دار الكتاب، 1975، ص161.

[2] جران العود النميري: **الديوان، قصيدة الرحال بن مجدوح النميري**، تحقيق: نوري حمودي القيسي، ط1, بغــداد، دار الرشيد، 1982، ص49.

المبحث الخامس

القمر والفخر

المجتمع الجاهلي مجتمع قبلي، قائم في أساسه على التعصب للقبيلة، والانتصار لها سواء أكانت على حق أم على باطل، وبما أن الشاعر الجاهلي جزء لا يتجزأ من القبيلة، فقد غدا المتكلم باسمها والمدافع عنها، ولم يكتف بذلك، بل أخذ على عاتقه ــ في كثير الأحيان ــ الفخر بها وتسجيل مكارمها وانتصاراتها، وفي أحيان أخرى الفخر بنفسه وبصفاته الحميدة، لاسيما شجاعته وعزة نفسه، وقد لجأ ــ في بعض المواقف ــ إلى ربط فخره بالقمر، لما يمتاز به من صفات السمو والوضوح والأصالة .

فهذا الشاعر الحطيئة يخاطب زوجته أمامة ــ بعد أن عيرته بنسبه وبقومه آل عوف ــ مفتخراً بانتمائه إلى قبيلته، وبأنه يسير على خطى أجداده، ويقتدي بحسبهم الذي يضيء الدرب له في حياته كما يضيء القمر الليل فيهتدي الساري به، فيقول: (البسيط)

سِيرِي أُمَامُ فَإِنَّ المَالَ يَجْمَعُهُ سَيْبُ الإِلَهِ وإِقْبَالِي وَإِدْبَارِي

إِلَى مَعَاشِرَ مِنْهُمْ يَا أُمَامُ أَبِـــــي مِنْ آلِ عَوْفٍ بُدُوءٌ غَيْرُ أَشْرَارِ

نَمْشِي إِلَى ضَوءِ أَحْسَابٍ أَضَأْنَ لَنَا مَا ضَوَّأَتْ لَيْلَةُ القَمْرَاءِ للسَّارِي[(1)]

فالليلة القمراء ــ في البيت ــ جاءت لتعمق الإحساس بصدق الانتماء، واستمرارية السير على الطريق التي رسمها الآباء والأجداد، والتي تشي بحاجته الملحة لهذا الاقتداء، والذي وجد له شبيهاً في القمر الذي يضيء ليل الساري .

ويبين الشاعر عمارة بن الوليد القرشي أنّ كلّ شيء جميل على هذه الأرض قد خلق من أجلهم، حيث يتوارثون أحقيتهم به كابراً عن كابر، وذلك منذ نشوء القمر والشمس، فيقول: (المديد)

خُلِقَ البِيضُ الحِسَانُ لَنَا وَجِيَادُ الخَيْلِ وَالخِيَـــــرُ

---

(1) الحطيئة: **الديوان**، رواية ابن حبيب، ط1, بيروت، المكتبة الثقافية، 1990، ص190. (سيب الإله: العطاء. بدوء: الشاب العاقل المستجاد الرأي).

كَابِراً كُنَّا أَحَقَّ بِهَـــــــا   حِينَ صِيغَ الشَّمْسُ وَالقَمَرُ[1]

وتخصيص الشاعر للقمر والشمس بالذات، ربما يوحي بأن هذا الخير الذي نشأوا عليه، خلق معهم منذ أن خلق القمر والشمس، في إشادة واضحة بأصالتهما الموغلة في القدم، وكأن الذي خلقهما، خلق معهما هذا الخير لهم .

وتفخر هند بنت عتبة بأصالة نسب ابنها عتبة، وتقرنه بالقمر، فهو يتسم بصفات أهلته لهذا النسب العريق، وكأنه القمر في عراقته، فتقول: (الرجز)

إِنَّ بَنِيَّ مِنْ رِجَالِ الحُمْسِ   كَرِيمُ أَصْلٍ وكَرِيمُ النَّفْسِ

لَيْسَ بِوَجَّابِ الفُؤَادِ نِكْسِ   عُتْبَةُ بَدْرٌ وَأَبُوهُ شَمْـــسُ[2]

ويبدو أنها أرادت من خلال استحضارها القمر، إبراز صفتين أساسيتين في زوجها وولدها، وهما الجمال وأصالة النسب .

ويفخر عنترة بنفسه وبشجاعته، متحسراً على نبذ قومه له واستهزائهم به، قائلاً: عندما يغزوهم الفرسان في عقر دارهم، ويتوزعون بين مضارب القبيلة، وخيامها ويصبحون مهـــددين بالهزيمة، يتذكرون شجاعته وقدرته على تفريق شمل أعدائهم، كما البدر لا تعرف قيمته إلا في الليلة السوداء، حيث ينتصر عليها بضوئه ويبدد ظلامها: (الطويل)

وَهَا قَدْ رَحَلْتُ اليَوْمَ عَنْهُمْ وَأَمْرُنَا   إِلَى مَنْ لَهُ في خَلْقِهِ النَّهْيُ وَالأَمْرُ

سَيَذْكُرُنِي قَوْمِي إِذَا الخَيْلُ أَقْبَلَتْ   وَفِي اللَّيْلَةِ الظَّلْمَاءِ يُفْتَقَدُ البـــــدْرُ

يَعِيبُونَ لَوْنِي بالسَّوَادِ جَهَالـــــةً   ولَوْلا سَوَادُ اللَّيْلِ مَا طَلَعَ الفَجْــرُ[3]

ويبدو أن عنترة ــ من خلال استحضاره صورة البدرــ أراد الردّ على من عابوه بالسواد، ويبين لهم أنه يفخر بسواده، فلولا اللون الأسود لما برز جمال اللون الأبيض، كذلك البدر لا يبرز جماله وشدة بياضه وسطوعه إلا في الليلة المظلمة.

---

[1] النعانعة: **شعر كنانة في الجاهلية والإسلام**، ص550. (الخيَر: الكرم والشرف والهيبة والأصل. صيغ: خُلِقَ)

[2] المرجع السابق، ص385. (الحُمس: الأشراف. وجَّاب الفؤاد: مضطرب القلب, وهي كناية عن الجُبن والخــوف مــن الأهوال).

[3] عنترة: **شرح الديوان**، ص88 .

ويبالغ عنترة في الفخر إلى حد لا تتسع له فيها الأرض لبناء مجد قومه فيتجاوزها ليطاول حدود السماء، ولم يكتف بهذا بل جعل القمر بمنازله المختلفة يخر لهم ساجداً، ليدلل على أنه بشجاعته وبسالته في المعارك قد صنع لهم مجداً أعلى من القمر مكانة، فيقول:

(الطويل)

وَلَوْلا سِنَانِي وَالْحُسامُ وَهِمَّتِي   لَمَا ذُكِرَتْ عَبْسٌ وَلا نَالَهَا فَخْرُ

بَنَيْتُ لَهُمْ بَيْتاً رَفِيعاً في العُلا   تَخِرُّ لَهُ الجَوْزَاءُ وَالفُرْعُ وَالعُفْرُ(1)

ويبدو أن الشاعر قد عمد إلى ربط المنزلة التي صنعها لقومه بمنزلة أعلى من القمر، ليضفي على نفسه بعداً بطولياً، يتلاءم مع شجاعته وشدة بأسه، ومقدرته على تسخير ما شاء لخدمة أهدافه .

لقد عاش العرب في الجاهلية في بيئة طبيعية قاسية محفوفة بالمخاطر، تتمثل في تلك الصحراء المترامية الأطراف، والتي تبعث الرهبة في النفس، بما تحمله من الغموض والخطر، لاسيما ليلا، من هنا كان سرى الليل عندهم مقياساً للرجولة والبطولة والمغامرة، كما كان من القيم البطولية التي يفاخر بها الشعراء، لا سيما إذا قاموا به في الليالي المظلمة الخالية من ضوء البدر، فهذا عنترة يفتخر بجرأته على اجتياز الصحراء ــ بكل ما فيها من مخاطرــ في ليلة ملبدة بالغيوم، يبرز فيها البدر أحيانا ويغيب أحيانا أخرى، وليس له أنيس إلاّ سيفه وفرسه التي تسير باستعجال، وكأنها تسير سير البدر بين السحاب، فيقول: (الكامل)

فَأَنَا سَرَيْتُ مَعَ الثُّرَيَّا مُفْرَداً   لا مُؤْنِسٌ لِي غَيْرُ حَدِّ المُنْصُلِ

وَالبَدْرُ مِنْ فَوْقِ السَّحَابِ يَقُودُهُ   فَيَسيرُ سَيْرَ الرَّاكِبِ المُسْتَعْجِلِ(2)

من الملاحظ في بيتي عنترة، أن ضوء البدرــ الذي هو بحاجة ماسة له في توضيح معالم طريقه ــ لم يكن دائماً، بل كان السحاب يحجبه تارة ويظهره تارة أخرى، وبذلك يكون قد تجاوز شرطاً مهماً من شروط السير ليلاً، ليجسد من خلال ذلك قدرته على تحدي المجهول،

---

(1) عنترة: **شرح الديوان**، ص88. (الفرع: يريد فرع الدلو، وهما منزلان للقمر كل واحد كوكب. العفر: من منازل القمر) .

(2) المرجع السابق، ص138. (المنصل: اسم للسيف) .

وعدم مبالاته بالمخاطر المحيطة به من كل جانب، ويكون بذلك جديراً بصفاته التي يفخر بها، " فقيمة التحدي تتحدد بعظم استثارة الرهبة " [1].

ويلجأ الشاعر المساور بن هند إلى استدعاء ما استقر في نفوس الجاهليين من خرافات ومعتقدات في فخره بنفسه، مستحضراً ما ترسب في أذهانهم من قدرة القمر على ختن المواليد، فيقول مخاطباً الذين استخفوا بمكانته في قومه، إن مكانته كمكانة القمر في علوها، ولم يكتف بذلك بل أحلّ نفسه مكان القمر في قدرته على ختن ما يشاء من المواليد، فيقول: (الرجز)

أَنَا لِمَنْ أَنْكَرَ شَأْنِيَ القَمَـــــرْ

أَخْتِنُ مَنْ شِئْتُ وَمَنْ شِئْتُ أَذَرْ [2]

فالشاعر استثمر هذا الاعتقاد بالقمر لإعلاء شأنه في قومه، ولجعله متنفساً ومجالا لكبح جماح من شكك في مكانته، بما ينطوي عليه القمر من دلالات توحي بالقوة والسمو .

ويفخر الشاعر الربيع بن ضبع الفزاري بقوته في أيام الصبا والشباب، حيث بالغ في وصفها، حتى وصلت إلى حدّ قدرته على خسف القمر، فيقول: (المنسرح)

لا تَعْجَبِي يَا أُمَيْمُ مِنْ صِفَتِي   فَقَبْلَ مَا كُنْتُ أَخْسِفُ القَمَرَا [3]

والمتأمل لهذا البيت يجد أن الشاعر لجأ إلى استحضار ظاهرة خسوف القمر ــ وهي من الظواهر الغريبة التي اقترنت في أذهان الجاهليين بالشر والموت ــ ليضفي على قوته هالة بطولية خارقة ومخيفة، وليرسم صورة يبدو من خلالها وكأنه هو من يصنع الخسوف ويتحكم به.

وهكذا فقد استطاع الشاعر الجاهلي أن يتناول القمر في فخره بنفسه وبقومه ويوظفه توظيفاً فنياً، يحمل بين طياته دلالات القوة والشجاعة والعزة والسمو، في مزج بارع بين حالته النفسية وبين ما يتميز به القمر من صفات أهلته بأن يأخذ حيزاً مهماً في شعر الفخر .

---

(1) فالح، جليل رشيد: **الليل في الشعر الجاهلي**، مجلة آداب الرافدين، عدد9، جامعة الموصل، العراق، 1978 \ 536 .

(2) النعانعة: **شعر غطفان في الجاهلية وصدر الإسلام**، ص530.

(3) المرجع السابق, ص377.

المبحث السادس

القمر والحرب

فرضت الطبيعية الصحراوية ــ بكل ما تحمله في طياتها من معاني القسوة ــ والحاجة الملحة للماء والكلأ على الإنسان الجاهلي، أن يدخل في نزاعات وحروب مع الآخرين للحصول عليهما، وأن يفرض نفسه كقوة مسيطرة في هذه الصحراء المترامية الأطراف، من هنا لجأت بعض القبائل إلى السلب والنهب والإغارة لتحقيق هذه الغايات، وكان لسان حالهم يقول:

(الطويل)

وَمَنْ لاَ يَذُدْ عَنْ حَوْضِهِ بِسِلاحِهِ ... يُهْدَّمْ وَمَنْ لا يَظْلِمِ النَّاسَ يُظْلَمِ (1)

ولجأ بعض الشعراء إلى استحضار صورة غياب القمر في وصف شدة الحروب والغارات التي دارت رحاها بين القبائل، لا سيما وأن ضوءه لا يأفل إلا في الأمور العظيمة، فهذا الربيع بن زياد يصف لقاء قومه مع أعدائهم، مبيناً أن الذي يراقب هذه المعركة لا يكاد يرى القمر والشمس من هول وقع المنظر عليه، ولعله أراد من خلال استحضار صورة القمر والشمس، الإشارة إلى أن غبار المعركة قد حجب ضوءهما فلا يبرزان من شدة احتدامها، فيقول: (البسيط)

في يَوْمِ حَتْفٍ يَهَالُ النَّاظِرُونَ لَهُ ... مَا إِنْ تَبِينَ لَهُ شَمَسٌ وَلا قَمَرُ (2)

وعلى الرغم من أن النهار كان هو الوقت المتعارف عليه عند العرب في خوض الحرب، إلا أن الشاعر في الأبيات السابقة، استحضر صورة القمر إلى جانب صورة الشمس في وصفه للمعركة، على الرغم من تناقضهما من حيث طبيعة الضوء، فالشمس مصدر ضوء النهار الساطع والقمر مصدر ضوء الليل، ولعل ذلك يعود إلى أنه أراد أن يجسد الشدة التي اتصفت بها المعركة، ليضفي جواً من الرهبة عليها، وذلك فضلاً عن إبراز شجاعة الفرسان الذين يخوضون مثل هذه المعارك .

---

(1) زهير بن أبي سلمى: **شرح الديوان**، ص87. (يذد: يدافع).

(2) الربيع بن زياد: **شعره**، جمع وتحقيق: عادل جاسم البياتي، مجلة كلية الآداب، عدد14، مج1، جامعة بغداد، 1970 \ 378 . وينظر: النعانعة :**شعر غطفان في الجاهلية وصدر الإسلام**، ص312. (يهال الناظرون له: يفزعون من مشاهدته).

وترتبط الحرب بالفزع، بما تحمله بين طياتها من دلالات القتل والتدمير وسبي النســاء، فيوم الحرب هو يوم الأزمة، التي يحاول فيها الرجل حماية نساء القبيلة بكل قوة وشجاعة، وإذا ما حدث ووقعت النساء في الأسر فإنه يعد عاراً يبقى ملازماً لهم، وقد يعيّرون به إلى الأبد، من هنا تغنى بعض الشعراء الجاهليين بتمكن فرسانهم من سبي نساء القبائل التي يغيرون عليهــا، فهذا الشاعر الحارث بن عباد يصف غارة لهم على آل بكر تكللت بالنجاح في إجبارهم علــى تسليم نسائهم لهم، حيث وصف جمالهن بجمال الهلال، لا سيما غير المتزوجات منهن، فيقــول: (الخفيف)

قَدْ ذَبَحْنَا الأَطْفَالَ مِنْ آلِ بَكْرٍ وَقَهَرْنَا كُمَاتَهُمْ بِالنِّضَــــالِ

وَكَرَرْنَا عَلَيْهُمُ وَانْثَنَيْنَــــــا بِسُيُوفٍ تَقُدُّ فِي الأَوْصَــالِ

أَسْلَمُوا كُلَّ ذاتِ بَعْلٍ وَأُخْرَى ذَاتَ خِدْرٍ غَرَّاءَ مِثْلَ الهِلالِ[1]

وكانت الليلة المقمرة ــ بضوئها الحاني وبرودتها اللينة ــ تعتبر الملاذ الوحيد والآمن للإنسان الجاهلي في هروبه من قيظ النهار، لكن أبا بثينة الهذلي يأبى إلا أن يحولها إلى سعير يلفح وجوه أعدائه بني قُرَيْم، حيث أغاروا عليهم، وشرعوا يرشقونهم بالسهام حتى استسلموا، فيقول: (الوافر)

كَأَنَّ القَوْمَ مِنْ نَبْلِ ابْنِ رُمْحٍ لدى القَمْرَاءُ تَلْفَحُهُمْ سَعِيرُ

جَلَبْنَاهُمْ عَلَى الوَتَرَيْنِ شَدًّا عَلَى أَسْتَاهِهِمْ وَشَلٌ غَزِيرُ

سَعَيْتُ لَكُمْ عَلَى رَجَفٍ وَظَرٍّ إِذَا لَفَحَتْ وُجُوهَكُمُ الحَرُورُ[2]

فالشاعر أراد ــ من خلال استحضار الليلة القمراء ــ أن يقلب الزمن عليهم، ويحول ليلهم المقمر الحاني إلى نهار حار لاهب، لعله يستثير بذلك جوا من الرهبة والخوف، يؤكد من خلاله قدرته على قلب الحقائق، وهذا ما حرص كل الحرص على إبرازه هنا .

أدت الأسلحة دوراً رئيسا في حروب العرب في الجاهلية، حيث كانت أحد المعايير المهمة التي تقاس بها قوة القبيلة أو ضعفها، لذا كان من الطبيعي أن تصبح ضرورة من

---

[1] شيخو، لويس: **شعراء النصرانية قبل الإسلام**، ط4، بيروت، دار المشرق، 1991، ص275، 276 .

[2] الهذليون: **الديوان**، ج3, ص96. (القمراء: ضوء القمر. أستاهم: هاماتهم. وشل: ماء).

ضرورات الحياة، كالماء والكلأ. من هنا أخذ الشعراء يتغنون بها ويصورونها ويشرحون عنها في كثير من أشعارهم[1].

ومن عناصر التعبير الشعري في وصف الأسلحة تصويرها مقترنة بالهلال، حيث وجدوا أن ثمَّة صفات وميزات تجمع بينهما، لاسيما الشكل واللمعان والحدة، فهذا أربد بن شريح الذبياني يفتخر بشجاعته وبشجاعة قومه، ويتغنى برمحه الذي طعن فيه ابن آبي اللحم الغفاري واصفاً شكله بالهلال، ليدلل على حدته ودقة رأسه، فيقول: (الوافر)

حَمَيْتُ ذِمَارَ ثَعْلَبَةَ بنَ سَعْـــدٍ ... بِجَنْبِ الحُتِ إِذْ دُعِيَتْ نَـــزَالِ

وَأَدْرَكَنِي ابنُ آبِي اللَّحْمِ يَجْرِي ... وَأُخرى الخَيْلَ حَاجِزَةَ التَّوَالِي

طَعَنْتُ مَجَامِعَ الأَحْشَاءِ مِنْــهُ ... بِمَفْتُوقِ الوَقِيعَةِ كَالهِــلالِ[2]

وتتكرر هذه الصورة مرة أخرى عند الشاعر تأبط شراً في وصف رمحه، فهو يشبه الهلال في حدّته، فبدا وكأنه يتمنى أن يطعن فيه غريمه ليزداد لمعاناً، فيقول: (الوافر)

فَأَطْعَنُهُ بِمَسْنُونٍ طَرِيرٍ ... عَلَيْهِ مِثْلُ بَارِقَةِ الهِلالِ[3]

ويبدع المزرد بن ضرار الغطفاني في وصف رمحه، مشبهاً نحوله، ودقة سنانه ولمعانه بالهلال في بداية ظهوره أول الليل، كما أن شدة الظلمة زادت من لمعانه وبروزه، فيقول:

(الطويل)

أَصَمُّ إِذَا مَا هُزَّ مَالَتْ سَرَاتُهُ ... كَمَا مَارَ ثُعْبَانُ الرِّمَالِ المَوَائِلُ

لَهُ فارِطٌ مَاضِي الغِرَارِ كَأَنَّهُ ... هِلالٌ بَدَا فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ نَاحِلُ[4]

ويلاحظ في البيتين السابقين أن الشاعر لجأ – في وصف رمحه – إلى الجمع بين عنصري الجمال المتمثل بالهلال، والقوة المتمثلة بالثعبان، وهما عنصران قلما يجتمعان في

---

(1) يُنظر: الجندي، علي: **شعر الحرب في العصر الجاهلي**، ج1, ط2، مكتبة الأنجلو، القاهرة، 1963، ص 122 .

(2) النعانعة: **شعر غطفان في الجاهلية وصدر الإسلام**، ص278. (مجامع الأحشاء: كناية عن البطن, مفتوق الوقيعة: الرمح الحاد) .

(3) تأبط شرّاً: **الديوان**، إعداد وتقديم: طلال حرب، ط1، بيروت، دار صادر، 1996، ص105 .

(4) التبريزي، أبو زكريا يحيى بن علي الشيباني: **شرح المفضليات**، تحقيق: محمد البجاوي، ط1، القاهرة، دار نهضة مصر، (د. ت)، ص346. (مار: اضطرب وتحرك) .

شيء، وإذا اجتمعا لا يجتمعان إلا في شيء عظيم مميز، فالجمال وحده لا يكفي لإبراز هذا التميز .

ويفتخر عنترة بحدة سنان رمحه الذي يكاد من شدة لمعانه وحدته أن يشــبه الهــلال، لا سيما لحظة رفعه على أعدائه وهو في قلب المعركة، فيقول: (الوافر)

وَأَسْمَرَ كُلَّمَا رَفَعَتْهُ كَفِّي يَلُوحُ سِنَانُهُ مِثْلَ الهِلال

تَرَاهُ إذا تَلَوَّى في يَميني تُسابِقُه المنيَّةُ في شِمالي[1]

ففي البيتين السابقين، يحاول الشاعر بوساطة وصف حدّة سنان رمحه أن يستحضر مواصفات رمحه المتميزة، ليؤكد لقومه ما يتميز به من قوة وشجاعة، وليعمق إحساسه بالثقة في نفسه .

ويواصل عنترة وصف أسلحة الحرب، فينتقل إلى وصف الرماح، فهي من شدة لمعانها تكاد تتشابه مع الكواكب التي استمدت جمالها وكمالها من البدور لتزداد جمالاً على جمال، في صورة تحمل بين طياتها معاني الغزل، فيبدو وكأنه يستذكر محبوبته، التي طالما كانت ساحات الحرب مسرحاً لغزله بها، الأمر الذي يكاد يكون ظاهرة في شعره، فيقول: (الطويل)

مُنِعْتُ الكَرَى إنْ لَمْ أَقُدْهَا عَوَابِساً عَلَيْهَا كِرَامٌ فِي سُرُوجِ كِــــــــرَامِ

تَهُزُّ رِمَاحاً فِي يَدَيْهَا كَأَنَّمــــــَـــا سُقِيْنَ مِنَ اللَّبَاتِ صِرْفَ مُــــــدَام

إِذَا شَرَعُوهَا للطِّعَانِ حَسِبْتَهَــــــا كَوَاكِبَ تُهْدِيهَا بُدُورُ تَمــــــــــامِ[2]

ولم يكتف عنترة بذلك، بل وكعادته لم ينس عنصر الفخر الذي يصبغ به جلّ قصــائده، فنجده يفتخر بقيادته لهؤلاء الفرسان الشجعان الذين يحملون مثل هذه الرماح .

ويستحضر الشاعر زيد الخيل الطائي الهلال في وصف رمحه اللامــع الحــاد، مبينــاً استسلام خصمه, بعد أن رآه يحركه ببراعة، فأدخل بريقه وشكله الرعب في قلبه فتــذكر حبــه للحياة، فيقول: (الوافر)

تَذَكَّرَ وَطْبَه لَمَّا رَآنِــــي أُقَلِّبُ صَعْدَةً مِثْلَ الهِــلاَلِ

---

[1] عنترة: **شرح الديوان**، ص137. (الأسمر: الرُّمح) .

[2] المرجع السابق, ص166. (الكرى: النوم. اللَّبات: مفردها, اللَّبة وهي المِنحر).

وَأَسْلَمَ عِرْسَهُ لَمَّا التَقَيْنَا   وَأَيْقَنَ أَنَّنَا صُهْبُ السِّبَالِ[1]

فالشاعر يحرص على جعل الرمح الذي يتخذ شكل الهلال ولمعانه، سبباً في إظهار شجاعته وإبراز جبن خصمه.

كان العرب في الجاهلية يتجنبون القتال في أيام المحاق، يقول ابن منظور في سبب ذلك:" إن العرب في الجاهلية إذا كان يوم المحاق من الشهر بدر الرجل إلى ماء الرجل إذا غاب عنه فينزل عليه ويسقي به دوابه ولا يزال قيم الماء ذلك الشهر وربه حتى ينسلخ فإذا انسلخ كان ربه الأول أحق به " [2] .

وتدلل هذه الرواية، على أن العرب كانت تعتبر ليلة المحاق ملاذاً آمناً وسهلاً في استحواذهم على مصادر الماء، كما أنها باتت تمثل إطاراً زمنياً آمناً، يجعلهم مطمئنين على أنفسهم وأملاكهم من التعرض للاعتداء والنهب .

لكن عنترة يأبى هذه المعادلة ويصر على لقاء أعدائه في يوم المحاق، فيقول بعد مبارزته مِسْحَل الكندي، إن عليه إخبار قومه أن يستعدوا للقائه في يوم المحاق: (الوافر)

أَلاَ فَاخْبِرْ لِكِنْدَةَ مَا تَرَاهُ   قَرِيبًا مِنْ قِتَالٍ مَعْ مُحَاقِ[3]

ويواصل عنترة إصراره على القتال في يوم المحاق، فيقول مفتخراً بشجاعته، وإقدامه على القتال، وإقباله على الموت دون تردد: (الوافر)

أَنَا العَبْدُ الَّذِي يَلْقَى المَنَايَا   غَدَاةَ الرَّوْعِ لاَ يَخْشَى المُحَاقَا [4]

ومن الواضح في أبيات عنترة السابقة، أنه جعل القتال في أيام المحاق مقياساً أساسياً من مقاييس الشجاعة، ليضفي على شجاعته بعداً بطولياً نادراً ما يتصف به أحد، لعله بذلك يجسد رغبة أكيدة ــ لديه ــ في التحدي، وتحقيق الذات، ليعمق إحساس أعدائه برهبته والخوف من منازلته .

---

[1] زيد الخيل الطائي: **شعره**، جمع وتحقيق: أحمد مختار البزرة، ط1، بيروت، دار المأمون للتراث، 1988، ص137، (صعدة: الرمح. صهب السبال: شديدو العداوة) .

[2] ابن منظور: **لسان العرب**, مادة محق.

[3] عنترة : **شرح الديوان**، ص114 .

[4] المرجع السابق: ص114 .

وهكذا يكتسب القمر دلالات عديدة في حديث الشاعر الجاهلي عن الحرب، فغدا ضوؤه مقياساً لشدة المعركة، لما يحدث له من أفول، كما اتخذوه مقياساً لجمال سباياهم، كما أنه غدا عنصراً أساسياً في وصف أسلحتهم، وباعثاً ودافعاً لهم على وصفها بالفتك والشدة والمضاء، هذا فضلاً عن استثمارهم طور المحاق ليدلل على شجاعتهم، وقدرتهم على خوض القتال في أشد الليالي ظلمةً .

المبحث السابع

القمر والحيوان

أدى الحيوان دوراً كبيراً في حياة الإنسان الجاهلي، فغدا محط اهتمامه، وملازمـــاً لـــه لا غنى له عنه، حيث كان رفيقه في تنقله، وحربه، وصيده في هذه الصحراء الممتدة القاسية. وقد كانت قسوة الطبيعة ووعورتها هي المحرض الأساس لاقتنائها والعناية بها.

وكان من مظاهر اهتمامه بها ورودها في كثير من أشعاره، واصفاً إياها ومبينـــاً مكانتهـــا عنده، وقد وجد في عناصر الطبيعة المحيطة به مصدراً خصباً لذلك .

وكان الهلال أحد هذه العناصر التي ارتبطت بالناقة في أشعارهم ــ وذلك على الرغم من قلتها ومحدوديتها ــ لما وجدوه من تشابه بينهما في النحول والضمور، حيث غدا أساساً لهذا الوصف.

ومن ذلك قول الشاعر عبيد بن الأبرص في وصف ناقته، فقد بين قوتها وصلابتها في قطع المسافات الطويلة، مشبهاً نحول بدنها وانحناءها ــ من كثرة الترحال ــ بنحول الهلال أول ظهوره، ليدلل من خلال هذا الوصف على خفتها وسرعتها في المشي، و يبين ما تعانيه من إرهاق في هذه البيئة الحارة، فيقول: (الخفيف)

وَلَقَدْ أَقْطَعُ السَّبَاسِبَ وَالشُّهْــ   بَ عَلَى الصَّيْعَرِيَّةِ الشِّمْلالِ

ثُمَّ أَبْرِي نِحَاضَـــهَا فَتَرَاهَا   ضَامِراً بَعْدَ بُدْنِهَا كَالهِلالِ[1]

ومن ذلك أيضاً قول الشاعر رُواس بن تميم، لكنه هذه المرة لم يكتــف بوصـــفه بعيـــره بالهلال، بل لجأ إلى وصفه بقرن العاج المشابه للهلال في الشكل واللون: (الطويل)

شَجْوَجِي كَوَقْفِ العَاجِ يُضْحِي كَأَنَّهُ   هِلالٌ طَوَى أَقْرَابَهُ السَّيْرُ ضَامِرُ[2]

وصورة تشبيه الناقة بالهلال، تكاد تكون صورة مألوفة في الشعر الجاهلي، تتكـــرر عنـــد بعض الشعراء، فها هي تتكرر مرة أخرى عند امرئ القيس، حيث يشبه جسمها بالهلال الذي لا

---

[1] عبيد بن الأبرص: **الديوان**، ط1, بيروت، دار صادر، (د. ت), ص116. (الشهب: الأراضي الجدباء القاحلة التـــي لا خضرة فيها. الصيعرية: سمة في عنق الناقة. الشملال: الخفيفة. نحاضها: لحمها) .

[2] الضامن، حاتم صالح: **قصائد جاهلية نادرة**، ط1، بيروت، مؤسسة الرســالة، 1983، ص77. (شــجوجي: الطويـــل الظهر القصير الرجل. أقرابه: خواصره) .

يكاد يظهر، ليدلل على نحولها بسبب ما واجهته من تعب ومشقة في رحلتها عبـــر الصـــحراء، فيقول: (الطويل)

وَداوِيَّةٍ قَفْرٍ كَأَنَّ الصَّدَى بِهَـــا إِذَا مَا دَعَا عِنْدَ المَسَاءِ حَزِينُ

سَرَيْتُ بِهَا فيهَا فَلَمَّا تَعَرَّضَـــتْ سُهُوبٌ لَهَا مِعْبَرَّةٌ وَصَحُونُ

وَضَعْتُ بِهَا رَحْلِي وَخَوَّتْ كَأَنَّهَا شَفًا مِنْ هِلالٍ مَا يَكَادُ يَبِينُ[(1)]

ويبدع عنترة بن شداد في وصف جواده، رابطاً سرعته بجماله المتمثل بالغرة التي بين عينيه والشبيهة بالهلال في لونها وشكلها، فيقول: (الخفيف)

وَجَوَادٌ مَا سَارَ إِلاَّ سَرَى البَرْ قُ وَرَاهُ مِنْ اقْتِدَاحِ النِّعَالِ

أَدْهَمٌ يَصْدَعُ الدُّجَى بِسَوَادٍ بَيْنَ عَيْنَيْهِ غُرَّةٌ كَالهِلالِ[(2)]

فهو يلجأ إلى الجمع بي اللونين الأسود والأبيض لإظهار جمال حصانه وتميزه عن ســـائر الخيول، والذي يشي برغبته الملحة في إبراز اللون الأسود وتميزه عن سائر الألوان.

وكان ثور الوحش من الحيوانات التي اقترن جمالها بجمال الهلال في أشعارهم، فهذا أمية الهذلي يبدع في وصفه، فيشبه لمعانه بلمعان المرآة بعد صقلها، وبياضه الناصع ببياض الهلال، وكأن الهلال هو مانح الجمال والحسن له، فيقول: (المتقارب)

هِجَّانِ السَّرَاةِ تَرَى لَوْنَـــهُ كَقُبْطِيَّةِ الصَّوْنِ بَعْدَ الصِّـــقَالِ

حَدِيدِ القَنَاتَيْنِ عَبلِ الشَّوَى لَهَّاقٍ تَلأْلُؤُهُ كَالهِـــــــــــلالِ[(3)]

ويرسم أبو زبيد الطائي صورة جميلة للأسد من خلال حديثه عن هروب بعض الصيادين خوفاً منه، فغدا يتتبع آثارهم على ضوء القمر، لعله يلحق بهم، فيقول: (الطويل)

فَأَبْصَرَ رَكْباً رَائِحينَ عَشِيَّـــــــةً فَقَالُوا أَبَغْلٌ مَائِلُ الرِّجلِ أَشْقَـــرُ

بَل السَّبْعُ فَاسْتَنْجُوا وَأَيْنَ نَجَاؤُكُمْ فَهَذَا وَرَبِّ الرَّاقِصَاتِ المُزْعَفَرُ

فَوَلُّوا سِرَاعاً يَنْدَهُونَ مَطِيَّهُـــمْ وَرَاحَ عَلَى آثَارِهِمْ يَتَقَمَّـــــرُ[(4)]

---

(1) امرؤ القيس: **الديوان**، ص286. (خوت: انقضّت. شفا: القليل منه. سهوب: الفلاة. ناقة صَحون: رَمُوح).

(2) عنترة: **شرح الديوان**، ص136. (أدهم: حصان أسود) .

(3) الهذليون: **الديوان**، ج1, ص176. (كقبطية الصون: المرآة. لهّاق: أبيض).

(4) القيسي: **شعراء إسلاميون**، ص609.

يقول ابن منظور: تقمر الأسد: خرج يطلب الصيد في القمراء [1] .

وهذا يؤكد ما ذكرناه سابقاً عن حاجة الإنسان الجاهلي لليلة القمراء، لا سيما في الصيد، لكن أبا زبيد الطائي ــ في هذه الأبيات ــ قد جاء بصورة معكوسة للصيد، وكأن الحيوان هو الذي يطارد الصيادين لاصطيادهم، ولعله يهدف ــ من خلال ذلك ــ تصوير ما تحمله الليلة القمراء ــ بالرغم من نورها ــ من خطورة على الصيادين في بعض الأحيان، وذلك بما تضمره بين طياتها من مخاطر كامنة على الرغم من نورها .

وقريب من صورة أبي زبيد، يتحدث الشاعر عبد الله بن عَنَمة عن شجاعته، بعد إغارته على إبل عثيمة وقتل راعيها والاستيلاء عليها، واصفاً نفسه بالأسد الذي يخرج للصيد في الليلة القمراء، فيقول: (الكامل)

بَلِّغْ عُثَيْمَةَ أَنَّ رَاعِي إِبْلِــــهُ   سَقَطَ العَشَاءُ بِهِ عَلَى سَرْحَـــانِ

سَقَطَ العَشَاُء بِهِ عَلَى مُتَقَمِّرٍ   حَامِي الذِّمَارِ مُعَاوِدِ الأَقْـــــرَانِ[2]

أما الشاعر ساعدة بن جؤية الهذلي فيلجأ إلى استخدام المحاق ــ أحد أطوار القمرــ في وصفه ليوم شديد الحرارة، وما تركه من عطش شديد على الحمر الوحشية، فيقول: (البسيط)

ظَلَّتْ صَوَافِنَ بِالأَرْزَانِ صَادِيَةً   فِي مَاحِقٍ مِنْ نَهَارِ الصَّيْفِ مُحْتَدِمِ[3]

ويبدو أن الشاعر أراد من خلال هذا الاستخدام، أن يدلل على أن ذلك اليوم كان حارقاً من شدة الحر، وانعكاسه على الحمر الوحشية الذي تمثل بعطشها الشديد، لأن بعض العرب أشار إلى أن معنى امتحاق القمر هو احتراقه، واحتجوا بهذا البيت [4] .

ويصف الشاعر كعب بن زهير خشيته على أغنامه عند مهاجمة الذئب لها، وبخاصة فـــي آخر ليلة من الشهر, في الوقت الذي لا يُرى القمر به، بحيث يعمّ الظلام، مما يسهل عليه مهمته فيقول: (البسيط)

---

[1] ابن منظور: مادة, قمر.

[2] أبو ياسين، حسن بن عيسى: **شعر ضبة وأخبارها في الجاهلية وصدر الإسلام**، ط1، الرياض, عمادة شؤون المكتبات، 1995، ص180. (سرحان: الذئب. متقمر: الأسد يطلب الصيد في القمراء) .

[3] الهذليون، **الديوان**، ج1, ص191. (صوافن: رفعن إحدى قوائمهن. صادية: يابسة من العطش. محتدم: محترق).

[4] يُنظر: المرزوقي، **الأزمنة والأمكنة**، ص115 .

وَإِنْ أَطَافَ وَلَمْ يَظْفَرْ بِطَائِلَةٍ   فِي ظُلْمَةِ ابْنِ جَمَيْرٍ سَاوَرَ الفُطُمَا [1]

وهكذا، يغدو الهلال عنصراً من العناصر المهمة التي لجأ الشاعر الجاهلي إلى استثمارها في وصفه للحيوان، حيث بدا خير ممثل لما يحمله الحيوان من صفات ودلالات تتلاءم مع صفات القمر ودلالاته، واستطاع الشاعر من خلالها إبراز بعض الصور الجمالية له، كما أنه نجح في رسم صورة حقيقية لما يعانيه الحيوان في تلك القفار الحارة الموحشة، لا سيما من خلال طور الهلال .

---

(1) كعب بن زهير: **شرح الديوان**, ص164. (الفطما: السخال التي لم تفطم. بطائلة: ما تطوله اليد).

الفصل الثالث

صورة القمر في الشعر الجاهليّ

مدخل: الصورة الفنية

المبحث الأول: وسائل تشكيل صورة القمر في الشعر الجاهليّ

1- التشبيه

2- الاستعارة

3- الكناية

4- اللون

5- الحركة

المبحث الثاني: أبعاد صورة القمر في الشعر الجاهلي

1- البعد الديني (الميثولوجي)

2- البعد النفسي

3- البعد الاجتماعي

الفصل الثالث

صورة القمر في الشعر الجاهليّ

مدخل: الصورة الفنية للقمر في الشعر الجاهلي

تعدّ الصورة الفنية عنصراً مهماً من عناصر التعبير الشعري، لما تحمله بين طياتها من صيغ فنية رمزية ارتكز عليها الشاعر الجاهلي في تصويره للبيئة المحيطة به، فضلاً عن كونها من الأدوات المفضلة والوسائل الراقية التي جنح، لها لتجسيم معانيه، وإظهار عواطفه، وتقريب أفكاره، وجعلها شاخصة للعيان من خلال الألفاظ التي يسخرها[1] .

فالشاعر لا يستطيع أن يكون بمنأى عن الصورة الفنية في عملية الخلق الشعري، كونها جوهر العمل الشعري وأساسه، فهي" جزء حيوي في عملية الخلق الفني "[2] .

وأدت الطبيعة دوراً مهماً وأساسياً في عقد الصلة بين الصورة الفنية وبين عملية الخلق الشعري، فقد كان تأثيرها بارزاً في شعره وصوره الفنية، إذ حرص على استرضائها، وتحقيق الانسجام معها، فنسج الأساطير حولها وعكسها على صوره الفنية، يقول الدكتور مصطفى ناصف: " الصورة إدراك أسطوري تنعقد فيه الصلة بين الإنسان والطبيعة، ويريد الشاعر أن يجعل من الطبيعة ذاتاً وأن يجعل من الذات طبيعة خارجة "[3]. فهي حاضرة في وعيه وروحه باستمرار، كما أنها " من الدوافع الأساسية التي توجه السلوك الصياغي، وتتحكم بالخيال أثناء إقامته لمعمار الصورة"[4].

مثلت الصورة الفنية مظهراً أساسياً من مظاهر إثارة الحس لدى الشاعر، وذلك لقدرتها الكبيرة على استفزاز حواسه، وكشف عالمه الداخلي بما يحويه من أفكار وانفعالات نفسية تجاه الأشياء المحيطة من حوله وعكسها على عالمه الخارجيّ، فالعالم في عينيه وفي قصائده عالم فاعل منفعل، خارجي داخلي، ذات وموضوع، وعي للشاعر وحضور لوجوده[5] .

---

(1) يُنظر: عصفور, جابر: **الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي**, ط1, القاهرة, دار الثقافة, 1974, ص265.

(2) أبو ديب، كمال: **جدلية الخفاء والتجلي**، ط 3, بيروت، دار العلم للملايين، 1982, ص29.

(3) ناصف, مصطفى: **الصورة الأدبية**، ط1, القاهرة, مكتبة مصر, 1958, ص3 .

(4) يُنظر: يوسف, اليوسف: **مقالات في الشعر الجاهلي**, ط4, بيروت, دار الحقائق, 1985, ص303.

(5) يُنظر: عصفور, جابر: **عالم الشاعر الجاهلي**, مجلة العربي, الكويت, عدد 429, 1994 \ 69.

ويؤدي الحسّ دوراً بارزاً وأساسياً في إدراك الصورة، كون عناصرها عناصر ذهنية، يشكلها فكر الإنسان كما يريد في ذهنه ويدركها بحاسة من حواسه .

وقد تقوم الصورة بكاملها على أساس حسي، يقول الدكتور جابر عصفور: " إن مدركات الحس هي المادة الخام التي يبني بها الشاعر تجاربه، ولا يعني الانحصار في إطار حاسة بعينها، ولا تعني محاكاة الإحساس بشكل عام، فهذا يجعلها أشبه بالمحاكاة الروتينية، إنما هي محتوى لفكر يتركز فيه الانتباه على خاصية حاسة ما، فالصورة ليست نسخة مادية، أو انعكاس حرفي لشيء من الأشياء "[1].

"فالعنصر الحسي يحرك طاقة الخيال لدى الفنان، وبعمل الخيال يدرك الحقيقة لا كموضوع ولا كفكرة وإنما يدركها في صورة"[2] .

ويقودنا هذا إلى القول: إن أهمية الصورة الفنية تنبع في قدرتها على إبعاد الشعر عن الجمود، ووهبه مرونة كبيرة، يستطيع الشاعر تشكيلها كيف يشاء، ويرسم معالمها كيفما يريد، فهي" في نسيجها الشعري لا تطرح أمامنا منظوراً واحداً، بقدر ما تهبنا كثرة من المساقط التي تتيح للموضوع مرونة يتغير في سياقها النظام المعتاد للعلاقات "[3] .

ومهمة الصورة الفنية هي نقل المعاني ملونة بالخيال، وعلى قدر من الطرافة التي تجتذب المتلقي بأسرارها وعلاقاتها الخفية وتقود إلى المشاركة والاستجابة اللتين قلّما يستثيرهما الأداء المباشر، والطريقة المألوفة في القول، وهي وفق هذا الفهم قرينة اللوحة الفنية التي يبدعها الفنان بريشته، إذ إن هذه اللوحة لا تنقل الموجودات الحسية نقلاً حرفياً مطابقاً لما هي عليه في الواقع العياني المرصود، وإنما يضيف إليها الفنان ويعيد تشكيل صياغتها التصويرية بما يتمشى مع مشاعره، وأفكاره، ومواهبه، فتكون مزيجاً من الشعور والحس من واقع الموجودات العياني وواقع الفنان النفسي[4] .

---

(1) عصفور, جابر: **الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي**, ص373.

(2) عبد البديع لطفي: **التركيب اللغوي للأدب**، ط1, القاهرة, مكتبة النهضة المصرية، 1970, ص192.

(3) نصر, عاطف جودة: **الخيال مفهوماته ووظائفه**, ط1, القاهرة, الهيئة المصرية العامة للكتاب, 1984, ص228.

(4) يُنظر: ناجي, مجيد عبد الحميد: **الصورة الشعرية**, مجلة الأقلام، عدد8, 1984 \ 13.

ومما لا شك فيه أن الصورة الفنية ببنائها اللغوي وما تحمله بين طياتها من خيال واسع، شكلت خير معبر عن عواطف الشاعر الجاهلي وأفكاره، معتمدة على الحواس، وقائمة على التشبيه أو الاستعارة أو الكناية أو الرمز... .

أدت الصورة الفنية دوراً كبيراً في رسم خارطة حياة الإنسان الجاهلي في معيشته وحياته، والتي صورت حياته وواقعه تصويراً دقيقاً، حيث اعتمد عليها في التعريف بما يحيط به من وقائع خلقتها طبيعة حياته القاسية، حيث أصبحت أصلاً من أصول الشعر الجاهلي[1] .

وكان للقمر حضورٌ كبيرٌ في وعي الشاعر الجاهلي وشعره، شأنه شأن الكثير من عناصر الطبيعة؛ وقد شكل القمر ــ في أشعارهم ــ مصدراً خصباً للصورة الشعرية بصفته جزءًا من وجود الشاعر وعنصرًا من عناصر الكون من حوله، إذ كان دافعاً أساسياً في تشكيلهم لكثير من صورهم الفنية .

ومن الواضح في نصوصهم الشعرية، أن استخدام القمر في معظم الأحيان، كان المرآة التي يعكس عليها الشاعر الجاهلي عواطفه وانفعالاته وأفكاره تجاه الأشياء المحيطة به .

ويبدو من خلال الوقوف على نصوصهم الشعرية ــ أيضا ــ أن الشاعر الجاهلي استطاع توظيف ما ترسخ في ذهنه من معتقدات وأساطير وخرافات ومعتقدات، حول القمر، في خدمة صوره الفنية، مما أضفى عليها بعداً شعورياً خاصاً، ينسجم مع موقف الشاعر منها، إذ ساعدت على إبراز القمر بصفته عنصراً من عناصر الصورة .

---

[1] عبد الرحمن: **الشعر الجاهلي قضاياه الفنية والموضوعية**, ص187 .

المبحث الأول

وسائل رسم الصورة

يلجأ الشاعر الجاهلي ــ غالباً ــ إلى خلق علاقات لغوية جديدة بين الكلمات، في تشكيل صوره الفنية، مما يكسب الألفاظ دلالات خاصة، وذلك يساعد على تجسيد "المعاني وإبرازها للحس في كيان مادي ملموس، عبر عناصر الطبيعة ووقائعها "[1] .

ويرد بعض الباحثين هذا التميز الفني للشاعر الجاهلي، إلى مقدرته على عقد علاقات لغوية غير مباشرة، و بذله من جهده الفني ما يساعده على خلق صورة من العلاقات التي لمسها في المشابهات الحسية أو المعنوية، أو في المقتضى الذهني الذي يربط بين الطرفين. ذلك أن الشعر، تعبير تصويري لا تقريري، وعملية ابتكاريه تدرك العلاقات القائمة بين الأشياء، لما يتمتع به الشاعر من مقدرة ومواهب لا تتوافران في غيره، مما يجعل منه أنموذجاً مغايراً لغيره من البشر، بتلك الوسائل الخاصة والأدوات الفنية، وألوان المقدرة التشكيلية، والبراعة التصويرية[2]، حيث يعتمد في تشكيلها على شبكة من العلاقات والألوان الفنية القائمة على وسائل التجسيد والتشخيص البلاغية .

وعندما نقف على صورة القمر في الشعر الجاهلي، نجد أنها في معظمها مستمدة من البيئة المحيطة بهم ومرتبطة بحياتهم، مما يؤكد أن الشعراء الجاهليين كانوا يستمدون أخيلتهم من عالمهم المحيط، ومن ظواهر الحياة التي تقع تحت بصائرهم، لذلك جاءت بعض صورهم حسية مادية لأنها نتاج بيئتهم المادية .

وقد نجح الشاعر الجاهلي في المزج بين القمر وعناصر الطبيعة الأخرى، وذلك من خلال براعته في خلق العلاقات الدلالية والروابط الشكلية، وربطه بعناصر الطبيعة الأخرى المشكلة للصورة، إذ إن ارتباط القمر بوعيه قد نما وترعرع في ظل العناصر الأخرى، دون أن يكون بمعزل عنها .

---

[1] نوال: **الليل في الشعر الجاهلي**, ص244 .

[2] أبو زيد, علي إبراهيم: **الصورة الفنية في شعردعبل بن علي الخزاعي**, ط2, القاهرة, دار المعارف, 1983, ص250.

وبناءً على هذا، استطاع الشاعر الجاهلي تصوير القمر ببراعة فائقة، مستعيناً بالوسائل والألوان الفنية، التي تعدّ من الأسس المهمة في رسم الصورة الجاهلية، متضمنة الأشكال البلاغية من تشبيه أو استعارة أو كناية أو لون أو حركة ... التي حفلت بهما صورة القمر، حيث سنتوقف عند هذه الوسائل في دراستنا للصورة :

1ـ التشبيه

وهو من أكثر الوسائل التي استخدمها الشعراء الجاهليون في صورهم الشعرية عند الحديث عن القمر، إذ أنه يعد من أوضح الوسائل البلاغية، كما أنه يعتبر أبسطها من حيث القدرة الكبيرة التي يستطيع أن يحشدها لإثارة الألفاظ من المعاني المشتركة بين طرفي التشبيه، والتي توحي إلى الحالة النفسية التي وصل إليها الشاعر، يقول الدكتور عبد القادر الرباعي " إن وراء التشابه مهما كانت طبيعته، نفسية تلتقي فيها العناصر المتآلفة والمتنافرة، وإن العنصر الواحد منها قد يستدعي في موقف نفسي المتنافر كما يستدعي المتآلف سواء بسواء[1] .

والتشبيه كذلك وسيلة من وسائل الكشف عن تجربة الشاعر وموقفه الإنساني. فهو " قد يهدف إلى الإبانة بشرط أن نفهم الإبانة على أنها نوع من الكشف والتعرف على الجوانب الغامضة من التجربة التي يعانيها الشاعر، وبهذا المعنى لا يصبح التشبيه من قبيل الحلية العارضة التي تزيد الواضح وضوحاً، أو تكسبه فضل بيان وإنما يصبح التشبيه وسيلة ضرورية يتوسل بها الشاعر ليبين لنفسه حقيقة التجربة التي يعانيها ويوضح الجوانب الخفية منها "[2] .

والتشبيه عند الشعراء الجاهليين لا يعد غاية، ولا هدفاً، بل هو وسيلة من وسائل التعبير عن تجاربهم الذاتية، وأداة فنية للكشف عن عوالمهم الداخلية، فإذا ما استأثر به الشاعر، فإن الهندسة الفنية للقصيدة تختل ويتحول من كونه وسيلة جزئية للتعبير إلى غاية أو إلى موضوع آخر بجانب الموضوع الأصيل، يظلله ويخيم عليه، ويعروه بالقلق والتفكك[3] .

---

(1) الرباعي, عبد القادر: **الصورة الفنية في شعر أبي تمام**, ط2, بيروت, المؤسسة العربية للدراســات والنشــر, 1999, ص204 .

(2) عصفور: **الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي**, ص415 .

(3) الحاوي, إيليا: **فن الوصف وتطوره في الشعر العربي**, ط2, بيروت, دار الكتاب اللبناني,1980 , ص216 .

ومن الواضح أن الكاف هي الأداة الأكثر استخداماً من غيرها من أدوات التشبيه في رسم صورة القمر في أشعار الجاهليين، إذ تبدو بسيطة وبعيدة عن التعقيد في ربطها بين أركان الصورة .

ولجأ الشعراء الجاهليون إلى تشبيه جمال المرأة بجمال القمر، وبخاصة في طور البدر، حين يكون أكثر سطوعاً ووضوحاً، ليؤكدوا من خلال ذلك على أهمية المرأة في حياتهم ووجدانهم، فهي جزءٌ لا يتجزأ من حياتهم التي لا تستمر إلا بها، من هنا لم يجدوا عنصراً أكثر جمالاً من البدر والهلال ليشبهوها به .

ومن التشبيهات المألوفة في أشعار الجاهليين تشبيه شدة بياض جسم المرأة بالبدر، كما في قول عمرو بن قميئة يصف وجه محبوبته: **(المتقارب)**

وَوَجْهٌ يَحَارُ لَهُ النَّاظِرُون   يَخَالُونَهَمْ قَدْ أَهَلُّوا هِلالا[1]

فمن الواضح أن معاني الجمال وشدة البياض هي المعاني التي أرادها الشاعر من تشبيه وجه محبوبته بالهلال، بما تفيده عبارة (أهلوا هلالا) من دلالة الجمال وشدة البياض، التي توضح وجه الشبه بين حدي التشبيه؛ فالهلال أكثر ما يكون بياضاً وجمالاً عندما يبرز في السماء مميزًا ببياضه الناصع في الليل الحالك .

إن بساطة التشبيه في الصورة تأتي من بساطة الأداة التي ربطت بين المشبه والمشبه به، فجاءت الصورة بسيطة في نقل المعنى، غنية بالدلالات، بما يحمله المشبه به (الهلال)من صفات تثير في نفس المتلقي كل المعاني والصفات التي يمكن أن يتصف بها المشبه .

هذه الصفات التي هي أوضح ما تكون في الهلال منها في عناصر أخرى، تعطي الصورة دلالتها الشاعرية، التي تعكس الجمال الكلي الذي تتصف به محبوبته، وتجسد معاني التميز والعلو في محاولة لخلق واقع جمالي لا يضاهى .

ولننظر كيف تتكرر عناصر التشبيه في صورة البدر عند الشاعر الشماخ بن ضرار الذبياني، في تشبيه جسم محبوبته وهي تفارق الديار، مبرزاً جمال ثغرها الشبيه بالبدر يوم كماله، فيقول: **(الكامل)**

---

[1] عمرو بن أبي قميئة: **الديوان**, ص114 .

فَتَعَرَّضَتْ فَأَرَتْكَ يَوْمَ رَحِيلِهَـــــا عَذْبَ المَذَاقَةِ بارِداً رَقْرَاقَـــــا

فِي واضِحٍ كَالْبَدْرِ يَوْمَ كَمَالِـــــهِ فَلِمِثْلِها رَاعَ الفُؤَادُ وَرَاقَـــــا [1]

يلاحظ في ــ الأمثلة السابقة ــ تكرار تشبيه وجهها وثغرها بالبدر والهلال في عبارات لا يكاد يختلف بعضها عن بعض، حيث أصبح هذا التشبيه، بما يحمل بين طياته من رموز للجمال، يشكل صورة مألوفة عند الشعراء الجاهليين. وهي صورة تجسد الجمال الباهر والبياض الشديد الذي من شأنه أن يمزج بين الجمال من جهة وعلو المكانة ورفعتها من جهة ثانية .

ومن التشبيهات المألوفة ــ أيضاًــ في أشعار الجاهليين، تشبيه الإنسان الكريم بعد موتــه بالبدر، كما في قول لبيد يرثي أخاه أربد الذبياني: (الكامل)

أَلْفَيْتَ أَرْبَدَ يُسْتَضاءُ بِوَجْهِهِ كَالبَدْرِ غَيْرَ مُقَتِّرٍ مُسْتَأْثِرِ [2]

من الملاحظ أن الصورة تحمل في طياتها معاني الكرم الملازم لصاحبه، والذي لا يزول ولا ينضب، وهي معانٍ عميقة الدلالة، حيث تعمل على إثارة صفات البدر في خيال المتلقي وذهنه، بما تحمله أداة التشبيه من تفاعل وتقريب بين عناصر التشبيه التي من شأنها خلق دلالات كثيرة تعمق المعنى وتخصبه .

ولعل عبارة (غير مقتر مستأثر) هي المفتاح لهذه الدلالات المتعددة، بما ينطوي عليه الممدوح من معاني الكرم الدائم الذي يفوق العادة. وبما تنطوي عليه عبارة (يستضاء بوجهه) من معاني النور والإضاءة الدائمة التي لا تنقطع. فهو مثل البدر الدائم الإنارة الذي لا يبخل بنوره على أحد.

لقد استطاعت الصورة أن تكثف الإحساس بمكانة المرثي في قومه، وعلو منزلته بين الناس، وذلك باستثارة معاني الجوع التي يثيرها الجدب والقحط، وبخاصة في أيام الشتاء، وتوكيد هذه المعاني وتكثيفها بجعل المرثي في صورة البدر الذي يزيل هذه الغمة، وذلك لتقدير مكانته في الأوقات العصيبة .

---

[1] الشماخ: **الديوان**, ص82.

[2] لبيد: **الديوان**, ص95 .

وتتكرر عناصر التشبيه البصرية في صورة القمر عند الشاعرة برة بنت عبد المطلب في تشبيهها لأبيها بضوء القمر، فتقول: **(المتقارب)**

وَذي الحِلْمِ وَالفَضْلِ في النَّائِباتِ كَثيرِ المَكارِمِ جَمُّ الفَــخَرْ

لَهُ فَضْلُ مَجْدٍ عَلى قَوْمِـــــــهِ مُنيرٌ يَلوحُ كَضَوءِ القَمَرْ [1]

فالشاعرة من خلال تشبيه أبيها بالقمر، خلقت علاقة حسية بصرية بين المشبه والمشبه به، على أن هذه العلاقة الحسية ليست وحدها، حيث نجد إلى جانبها علاقة معنوية وهي الكرم والعلو، وهو تشبيه يبدو في ظاهره قائماً على الحس، ولكن في هذا الحس معاني الكرم والعلو والتميز .

ومن جمال التشبيه في هذا المجال ما ورد في قول الشاعرة نائلة بنــت الفرافصـــة فـــي وصف كرم زوجها: **(الطويل)**

وَماليَ لا أَبْكِي وَتَبْكِي قَرَابَتي وَقَدْ غُيِّبَتْ عَنَّا فُضُولُ أَبي عَمْرِو

إِذا جِئْتَهُ يَوْمَاً تَرَجَّى نَوالَـــــهُ بَدَتْ لَكَ سيماهو بِأَبْيَضَ كَالبَـــــدْرِ [2]

فقد شبهت وضوح كرمه بوضوح البدر في السماء، وهذا يدل على مقدرة الشـــاعرة فـــي انتزاع صورة حسية تنطبق انطباقا ملائما، فجعلتها واضحة تقترب من الواقع، حتـــى أصـــبحت الصورة والواقع شيئيين كأنهما واحد .

وتشبه الخنساء أخاها صخراً بالبدر، الذي لا يخفى على الساري ليلا، حيث يضيء لـــه الطريق، فتقول: **(البسيط)**

جَمٌّ فَواضِلُهُ تَنْدَى أَنامِلُهُ كَالبَدْرِ يَجْلو وَلا يَخْفَى عَلى السَّارِي [3]

لقد حرصت الخنساء على إضفاء صورة البدر على أخيها، فهي تدرك مدى العلاقة التي تربط بين أخيها والبدر، فهي تشبه وضوح كرم أخيها، بوضوح البدر في السماء، وهو المشبه به، أما وجه الشبه فيتمثل في الإنارة والوضوح، كما استعملت الشاعرة عبارة (لا يخفى على

---

[1] النعانعة: **شعر غطفان في الجاهلية وصدر الإسلام**, ص604 .

[2] صقر: **شاعرات العرب**, ص440

[3] الخنساء وليلى الأخيلية: **ديوان الباكيتين**, ص92.

الساري) لتمثل الصورة تمثيلاً صادقاً، ثم أضافت إليها كلمة يجلو لتقارب بين صورته وصورة البدر في النور .

ويقول مالك الهذلي : (الوافر)

فَتىً مَا ابْنُ الأَغْرَ إِذَا شَتَوْنَا ... وَحُبَّ الزَّادُ في شَّهْرَيّ قِمَاحِ
أَقَبُّ الكَشْحِ خَفَّاقٌ حَشَــــــاهُ ... يُضِيءُ اللَّيْلَ كَالقَمَرِ اللِّيَاحِ (1)

وإذا تتبعنا هذا التشبيه في أشعار الجاهليين، فإننا نجد تكراراً في تشبيهاتهم، التي تأتي في معظم الأحيان في عبارات مألوفة لا تكاد تختلف من شاعر إلى شاعر آخر، ويرجع الدكتور عبد القادر القط السبب في ذلك، إلى أنهم "كانوا وما زالوا يخلقون لأنفسهم تقاليد فنية، ويبتدعون بأنفسهم تراثهم الفني، فكان لا بد أن يفيدوا من كل جديد يهتدون إليه "(2) .

كذلك يتكرر تشبيه مكانة الممدوح أو المرثي في قومه بمكانة القمر بين الكواكب والنجوم، وهو من التشبيهات التي يمثل فيها القمر عنصراً أساسياً وعاملاً فاعلاً في إبراز قيمة الإنسان، على نحو ما نرى في قول الخنساء: (البسيط)

كُنَّا كَأَنْجُمِ لَيْلٍ وَسْطَهَا قَمَـــــــرٌ ... يَجْلُو الدُّجَى فَهَوَى مِن بَيْنِنَا القَمَرُ
يا صَخْرُ ما كُنْتَ في قَوْمٍ أُسَرَّ بِهِـمْ ... إلاَّ وَإِنَّكَ بَيْنَ القَوْمِ مُشْتَهِــــــرُ (3)

كذلك في قول أم بسطام بن قيس الشيباني: (الطويل)

لِتَبْكِ ابْنَ ذِي الجِدَّيْنِ بَكْرُ بنُ وَائِلٍ ... فَقَدْ بَانَ مِنْهَا زَيْنُهَا وَجَمَالُهَا
إِذَا مَا غَدَا فيهَا غُدُوًّا كَأَنَّـــــــهُمْ ... نُجُومُ سَمَاءٍ بَيْنَهُنَّ هِلاَلُهــاَ (4)

يلاحظ ــ في المثالين السابقين ــ تشبيه مكانة الرجل في قومه بمكانة القمر بين الكواكب، والتي يجسد الشاعر من خلالها معاني العلو والرفعة. فقد تحول القمر في إحساس الشاعرتين إلى معادل موضوعي للفراغ الذي تركه بعد موته، وذلك لما يشيعه من معاني النور والسطوع والتميز التي تستثير قدرة الشاعرتين على التعبير عن هول هذا الفقد .

---

(1) الهذليون: **الديوان**, ج2, ص 6 .

(2) القط, عبد القادر: **في الشعر الإسلامي والأموي**, ط1, بيروت, دار النهضة العربية, 1979, ص342.

(3) الخنساء وليلى الأخيلية: **ديوان الباكيتين**، ص100 .

(4) أبو عبيدة, معمر بن المثنى: **أيام العرب قبل الإسلام**, ص387.

ويتكرر هذا التشبيه عند الشاعر حسان بن ثابت، في هجائه بني أشجع، حيث استمد عنصر المشابهة من القمر، فشبه تعالي قومه عليهم بتعالي القمر على بقية الكواكب فيقول:

(البسيط)

قَوْمٌ لِئَامٌ أَقَلَّ اللهُ خَيْرَهُـــــمُ كَمَا تَنَاثَرَ خَلْفَ الرَّاكِبِ البَعْرُ

كَأَنَّ رِيحَهُمُ في النَّاسِ إِذْ خَرَجُوا رِيحُ الكِلابِ إِذَا مَا بَلَّهَا المَطَرُ

قَدْ أَبْرَزَ اللهُ قَوْلاً فَوْقَ قَوْلِهِمُ كَمَا النُّجُومُ تَعَالَى فَوْقَهَا القَمَرُ[1]

ويلاحظ من خلال التشبيه في البيت السابق، بروز الطابع الاستهزائي الذي عرف به حسان، فقد وظف صورة القمر وتعاليه على الكواكب توظيفاً سلبياً مغايراً للمألوف، ببراعة وإتقان، حين أخذ من القمر صفات اللمعان والنور والحجم، وتميزه بها، وعقد الصورة بين طرفين محسوسين، ولم يغرب فيها بل أتى بها من الواقع المحيط به .

فالصورة تعطي بعض التفاصيل للمشبه، فجمع الشاعر بين صفة سلوكية في صورتهم الأولى حين صورهم بالبخل، والثانية صفة شكلية حين صورهم بانحطاط المكانة .

ولننظر كيف تتكرر عناصر التشبيه عند الشاعر نفسه، من خلال حديثه عن جمال محبوبته، حيث جمالها طغى على جمال الأخريات كما يطغى جمال البدر على جمال بقية الكواكب، فيقول: (الكامل)

بَيْضَاءُ لَوْ مَرَّتْ بِذِي نُسِـــكٍ يَتْلُو البَيَانَ يَلُوحُ فِي الزُّبُـــرِ

مُتَبَتِّلٍ عَنْ كُلِّ فَاحِشَـــــــةٍ سَكَنُ الصَّوَامِعَ رَهْبَةَ الوِزْرِ

لَرَأَيْتَهُ حَرَّانَ يَذْكُرُهَـــــــــا يَجْتَازُ رُؤْيَتَهَا عَنْ الذِّكْـــــرِ

بَذَّتْ نِسَاءَ العَالَمِينَ كَمَـــــــا بَذَّ الكَوَاكِبَ مَطْلَعُ البـــــدْرِ[2]

ويبدو من أبيات حسان، براعته الكبيرة في تركيب الصورة، و ذلك من خلال إدراكه العلاقة القائمة بين الكواكب والبدر من حيث تشابههما في النور. ولعل استخدامه الفعل (بذت) كان خير دليل على ما تحمله الصورة من دلالات التميز وعلو المنزلة. وبما تنطوي عليه عبارة

---

[1] حسان: **الديوان**, ص346 .

[2] المرجع السابق, ص190 .

(بذّ الكواكب مطلع البدر) من معاني السيطرة المطلقة. فهي كالبدر إذا ظهرت سيطر نورها على نور الكواكب الأخرى دون منازع أو منافس .

وعمد الشاعر الجاهلي إلى استخدام التشبيه البسيط في تصويرهم الشعري، فنجد المشبه والمشبه به وأداة التشبيه، مع غياب لوجه الشبه في كثير من الأحيان، ليدلل ذلك على الرغبة الكامنة في نفسه في إشراك المتلقي في صنع خيال تصويري يتصف بالعمق والإيحاء .

وارتبط القمر عند الشعراء الجاهليين بأدوات الحرب، كالرمح والقوس، ولعل ذلك يعود إلى كون القمر رمزاً من رموز القوة المستمدة من الطبيعة .

فالتشبيه ــ بناءً على هذا ــ صورة تجمع بين أشياء متماثلة, وأساس هذا التماثل كامن في النفس والشعور[1] . كما في قول المزرد الغطفاني يصف رمحه: (الطويل)

أَصَمُّ إِذَا مَا هُزَّ مَالَتْ سَرَاتُهُ   كَمَا مَارَ ثُعْبَانُ الرِّمَالِ المَوَائلُ

لَهُ فارطٌ مَاضِي الغِرَارِ كَأَنَّهُ   هِلالٌ بَدَا في ظُلْمَةِ اللَّيْلِ نَاحِلُ [2]

يتضح من هذين البيتين أن العلاقة التشبيهية القائمة بين الرمح والهلال مبنية على التماثل الكامن في نفسية الشاعر في أثناء إبراز رمحه المسنون في المعركة. فهو تماثل شكلي بين رأس الرمح في الظلام وبين الهلال أول بروزه في الظلام الدامس .

فهذه الصفات التي هي أوضح ما تكون في الهلال ليلاً منها في عناصر أخرى تعطي الصورة دلالتها الشعورية التي تعكس قوة هذا الرمح وشدة مضائه .

ولعل جمع الشاعر بين تشبيه الرمح بالثعبان والهلال في آن واحد، جاء نتيجة حرصه على تضمين صورته شعوراً عميقاً، وذلك لأن هذا الأسلوب في التشبيه، أقدر على تحقيق عمق أكبر، كما أنه يستثير معاني القوة، مما يجعل نفس الأعداء من حوله مليئة بالرعب والرهبة .

وإذا تتبعنا صور أدوات الحرب التي تقوم على التشبيه بالهلال في أشعار الجاهليين، سنجد تكراراً كبيراً في تشبيهاتهم .

---

(1) الرباعي: **الصورة الفنية في شعر أبي تمام**, ص203.

(2) التبريزي: **شرح المفضليات**, ص346.

ولعل ذلك يعود إلى وحدة الشعور بالقوة عند الشعراء الجاهليين، والتي تعد الأسلحة أساساً لها. وكأنهم ــ في هذا التصوير بالهلال وما ينطوي عليه من الرموز المادية والمعنوية ــ قد جسدوا معاني الخوف والرهبة في أعدائهم. فيغدو القمر صورة لمجموعة من دعائم القوة التي اعتمد عليها الشاعر الجاهلي .

ومن ذلك على سبيل المثال قول أربد الذبياني : (الوافر)

حَمَيْتُ ذِمَارَ ثَعْلَبَةَ بنَ سَــــعْدٍ — بِجَنْبِ الحُتِ إذْ دُعِيَتْ نــزَالِ

وَأَدْرَكَنِي ابنُ آبِي اللَّحْمِ يَجْرِي — وَأُخْرى الخَيْلَ حَاجِزَةَ التَّوَالِي

طَعَنْتُ مَجَامِعَ الأَحْشَاءِ مِنْــــهُ — بِمَفْتُوقِ الوَقِيعَةِ كَالهِــــلالِ [1]

أما أداة التشبيه(مثل) التي تؤكد الصفات المشتركة بين طرفي التشبيه ــ بما توحيه من التطابق والتماثل ــ فإنها أقل استخداماً من الكاف في صورة القمر الجاهلية، كقول زيد الخيل الطائي يصف رمحه: (الوافر)

تَذَكَّرَ وَطْبَهُ لَمَّا رَآنِي — أُقَلِّبُ صَعْدَةً مِثْلَ الهِلاَلِ

وَأَسْلَمَ عِرْسَهُ لَمَّا التَقَيْنَا — وَأَيْقَنَ أَنَّنَا صُهْبُ السِّبَالِ [2]

ونجد أن عبارة (وأسلم عرسه) هي الأساس لهذه الدلالات، بما تنطوي عليه من معاني الخوف والرهبة والاستسلام، وبما تنطوي عليه عبارة (وأيقن أننا صهب السبال)من معاني القوة والسيطرة التي قادته إلى الاستسلام. فرمحه الشبيه بالهلال في حدته ومضائه جعل خصمه يتذكر الموت الذي لا مفر منه إذا نازله .

وقد تكرر التشبيه حول المعنى نفسه، في عبارات مشابهة، عند الشاعر تأبط شراً، فيقول: (الوافر)

فَأَطْعَنُهُ بِمَسْنُونٍ طَرِيرٍ — عَلَيْهِ مِثْلُ بَارِقَةِ الهِلالِ [3]

---

[1] النعانعة: **شعر غطفان في الجاهلية وصدر الإسلام**, ص278 .

[2] زيد الخيل الطائي: **شعره**, ص137 .

[3] تأبط شراً: **الديوان**, ص105

فالشاعر في هذا البيت يشبه لمعان سنان رمحه بلمعـــان رأس الهـــلال، مســـتخدماً أداة التشبيه(مثل)، ليبين للمتلقي ذلك التماثل الكبير بين الرمح والهلال، كما أنه عمد إلى حذف وجـــه الشبه الذي يجمع بين طرفي التشبيه ــ وهو اللّمعان ــ ليترك للقارئ نسجه في مخيلته.

ومن ذلك قول عنترة يصف سنان رمحه: (الوافر)

وَأَسْمَرَ كُلَّمَا رَفَعَتْهُ كَفِّي يَلُوحُ سِنَانُهُ مِثْلَ الهِلال

تَرَاهُ إذا تَلَوَّى في يَميني تُسابِقُه المنيَّةُ في شِمالي[1]

من الواضح ــ في البيتين السابقين ــ أن الشاعرين لجأا إلى التشبيه المادي المحسوس، الذي يدرك بالبصر، فصورة سنان الرمح في لمعانه ومائه كصورة الهلال، وقد خصص الشاعران طور الهلال للمشبه به لأنه اقرب ما يكون للمشبه، وقد بين الشاعران المشبه والمشبه به وأداة التشبيه حتى لا يدع للمتلقي مجالاً للشك في حدة سلاحه وشدة لمعانه.

لقد استطاعت الصورتان السابقتان تعميق الإحساس بالخوف والرهبة الذي سيلحق بالعدو، وذلك من خلال العلاقة الحسية التي أقامها الشاعران بين المشبه والمشبه به، إلى جانب العلاقة المعنوية المتمثلة باستثارة معاني القوة والشكل التي يثيرها الهلال وإضفائها على الرمح.

وتنوعت الصور المستقاة من التشبيه وتنوعت في أشعار الجاهليين، وانقسمت هذه الصور بحسب مادتها إلى صور بصرية وسمعية ولمسية...، مستمدة تشكيلاتها من عمل الحواس الخمس، وقد تغلب حاسة منها على صورة ما فتنسب إليها، وقد تشترك أكثر من حاسة في تكوين صورة أخرى مما يسمى بالصورة المتكاملة [2].

ولجأ الشعراء الجاهليون إلى تشبيه الحرب وأدواتها بالقمر ــ كما رأينا في بعض الأمثلة السابقة ــ فراحوا يرسمون لها الكثير من الصور الحسية والمعنوية المرتبطة بصورة القمر، ليبينوا شدتها وتأثيرها على المقاتلين. فلم يلجأوا في تعبيرهم عن شدة الحرب بالطريق المباشر بل عبروا بالتصوير، من ذلك على سبيل المثال قول أبي بثينة الهذلي في وصف معركة، إذ

---

(1) عنترة: **شرح الديوان**, ص137 .

(2) يُنظر: البطل: **الصورة في الشعر العربي**, ص28.

صور نبال ابن رمح التي تتساقط عليهم بالسعير الذي ينزل عليهم, إذ استطاع الشاعر تحويل ليلتهم المقمرة الوادعة إلى نار لاهبة, فيقول : (الوافر)

كَأَنَّ القَوْمَ مِنْ نَبْلِ ابْنِ رُمْحٍ لَدَى القَمْرَاءُ تَلْفَحُهُمْ سَعِيرُ(1)

ويلاحظ المتأمل لهذه الأبيات براعة الشاعر في تركيب الصورة، وإدراكه العلاقة ما بين غزارة النبل وتحويل ليلتهم القمراء إلى سعير، وإن لم تتوافر المشابهة التامة بين الطرفين.

ويتضح ــ أيضاً ــ أن الشاعر لجأ إلى إشراك حاستي البصر واللمس في رسم هذه الصورة، وربطهما بالمشبه به، وهو الليلة القمراء، كما أننا نلاحظ جانباً آخر من جوانب قوة هذه الصورة، يتمثل في الأثر المعنوي الذي تتركه الليلة القمراء وهو الخوف والرهبة .

واعتمد بعض الشعراء في تشكيل صورته على عناصر أخرى إلى جانب القمر، ليزيد صورته عمقاً، وينقلها من عالم الّلا محسوس إلى عالم المحسوس . من ذلك على سبيل المثال، قول أبي عنقاء الفزاري يمدح عميلة الفزاري: (الطويل)

غُلاَمٌ رَمَاهُ اللهُ بِالْخَيْرِ مُقْبِلاً لَهُ سيمياءٌ لاَ تَشُقُّ عَلَى البَصَرْ

كَأَنَّ الثُّرَيَّا عُلِّقَتْ فَوْقَ نَحْرِهِ وَفِي أَنْفِهِ الشِّعْرَى وَفِي خَدِّهِ القَمَرْ(2)

يبدو أن الشاعر قد نجح في توظيف صورة القمر رمزاً للرفعة والعلو، ودمجها في صور أخرى قريبة من القمر، حيث انتقى ألفاظ صوره التشبيهية، واختارها اختياراً مناسباً للمعنى المصور، ملائماً بين الموقف والشكل وبين الهيئة والصورة فمن الواضح أن معاني الخير والجمال والعلو والكرم، هي التي أرادها الشاعر من تشبيه الرجل بالقمر وغيره من الكواكب بما تفيده عبارات (الثريا، الشعرى، القمر) من دلالة العلو والرفعة والجمال، التي توضح وجه الشبه بين طرفي التشبيه .

ومن التشبيهات المألوفة أيضا في أشعار الجاهليين تشبيه الحيوانات بالهلال، وبخاصة الناقة، فهي من أكثر الحيوانات التي شبهت بالهلال، لما تحمله الناقة من أوجه مشابهة بينهما، لا سيما في ضمور بدنها، كونها وسيلة العربي الأساسية في السفر والتنقل في الصحراء المليئة

---

(1) الهذليون: **الديوان**, ج3, ص96 .

(2) النعانعة: **شعر غطفان في الجاهلية وصدر الإسلام**. ص542 .

بالصعاب والمخاطر والموت، لذلك فهي سريعة صابرة على مشاق الطريق، وهي تصل إلى الملجأ الذي يحميه ويمنحه الحياة الدائمة، وكأنها سفينة العبور من حياة زائلة إلى حياة ثانية جديدة [(1)]. وتبدو هذه الرحلة مشابهة لرحلة القمر الذي يموت ثم يحيا من جديد .

وعند تتبعنا هذه التشبيهات، وجدناها في معظمها تشبّه الناقة بالهلال، حيث لا تختلف من شاعر إلى شاعر آخر إلا في جوانب الصياغة. ويمكن ملاحظة ذلك بوضوح من خلال قول عبيد بن الأبرص: **(الخفيف)**

وَلَقَدْ أَقْطَعُ السَّبَاسِبَ وَالشُّهْــ ... بَ عَلَى الصَّيْعَرِيَّةِ الشِّمِــلالِ

ثُمَّ أَبْرِي نِحَاضَهَا فَتَرَاهــــَا ... ضَامِراً بَعْدَ بُدْنِهَا كَالهِــلالِ [(2)]

نرى معالم صورة الهلال وحيويته من خلال رسم صورة حية مليئة بالحيويـــة والنشـــاط الحيواني، فقد شبه الشاعر صورة الناقة بصورة الهلال ويتكرر ذلك في قول رواس بن تميم:

(الطويل)

شَجْوَجِيٌّ كَوَقْفِ العَاجِ يُضْحِي كَأَنَّهُ ... هِلالٌ طَوَى أَقْرَابَهُ السَّيْرُ ضَامِرُ [(3)]

وقول امرئ القيس: **(الطويل)**

وَضَعْتُ بِهَا رَحْلِي وَخَوَّتْ كَأَنَّهَا ... شَفَا مِنْ هِلالٍ مَا يَكَادُ يَبِينُ [(4)]

من الملاحظ في ــ الأمثلة السابقة ــ تكرار تشبيه الناقة بالهلال في عبارات لا يكاد يختلف بعضها عن بعض، حيث أصبح هذا التشبيه، بما نرى فيه من تكرار، وبما ينطوي عليه من رموز تتمثل في تلك المشابهة بين رحلة القمر في السماء ورحلة الناقة في الصحراء اللذين يرمزان إلى حياة الإنسان الجاهلي القائمة على الرحيل وعدم الاستقرار .

ولعل هذا الرمز ــ كما يقول الدكتور نصرت عبد الرحمن ــ يتمثل في " أن الشعراء الجاهليين كانوا يصورون ناقة مثالية موجودة في السماء توصلهم إلى مغرب الشمس ليظفروا

---

(1) يُنظر: الشوري, مصطفى عبد الشافي: **الشعر الجاهلي تفسير أسطوري**, ط1, القاهرة, دار المعارف, 1986, ص150.

(2) عبيد بن الأبرص: **الديوان**, ص116 .

(3) الضامن: **قصائد جاهلية نادرة**, ص77 .

(4) امرؤ القيس: **الديوان**, ص286.

بالخلود "[1]، من هنا نفهم السبب الذي جعل هؤلاء الشعراء يشبهون الناقة الأرضية المثال، بما يشبهها في السماء .

وهذا يشكل صورة مألوفة عند الشعراء الجاهليين. وهي صورة تجسد القوة العظيمة والصبر الطويل، وهي تعمل على تعميق الإحساس لدى المتلقي، بصعوبة الرحلة، والمعاناة التي تعانيها الناقة، عبر تشبيه جسمها بالهلال، بما يحمله من معاني النحول والخفة، وبما يلقيه من إحساس بطول المسافات .

ومن أنواع التشبيهات ــ للقمرــ التي وردت في أشعار الجاهليين، التشبيه البليغ، الذي يمثل القمر فيه غالبا صورة المشبه به، ويعد هذا التشبيه من التشبيهات التي تعتمد على إعمال الفكر لدى المتلقي، لغياب وجه الشبه ــ من جهةــ، ولأن ذكر طرفي التشبيه يوهم اتحادهما وعدم تفاضلهما فيعلو المشبه إلى مستوى المشبه به، وهنا تكمن المبالغة في قوة التشبيه .

ومن ذلك تشبيه الملوك بالقمر في أشعارهم، ومن ذلك قول النابغة الذبياني يمدح الملك النعمـــان بن المنذر: (البسيط)

مُتَوَجٌ بِالمَعَالِي فَوْقَ مَفْرِقِهِ وَفِي الوَغَى ضَيْغَمٌ فِي صُورَةِ القَمَرِ [2]

وهو من التشبيهات البليغة التي يمثل فيها المشبه به (القمر) عنصراً فاعلاً وأساسياً في بيان صفات المشبه، والتي تهدف إلى تصوير الملك خارج نطاق المألوف، ليُرى وكأنه إنسان غير عادي .

ولعل الصفات التي أضفاها الشاعر على الملك، مثلت خير دليل على هذه الصورة المميزة، بما تنطوي عليه من معاني القوة والجود والعظمة، التي امتزجت جميعها بجمال القمر .

وقد استطاعت هذه الصورة أن تكثف الإحساس بالهيبة والخوف لدى أعدائه، وذلك باستثارة معاني القوة التي يثيرها الأسد، وربط هذه المعاني بصورة القمر .

ويرسم عنترة صورة بصرية بديعة لمحبوبته، حين يشبهها بالبدر ليلة تمامه وقد أحاطت به النجوم، فيقول: (الكامل)

---

[1] عبد الرحمن: **الصورة الفنية في الشعر الجاهلي**, ص181 .

[2] النابغة: **الديوان**, ص74 .

وَبَدَتْ فَقُلْتُ البَدْرُ لَيْلَةَ تِمِّهِ   قَدْ قَلَّدَتْهُ نُجُومَها الجَوْزاءُ [1]

فهذا التشبيه البليغ الذي يمثل فيه المشبه به (البدر) أساسا لهذه الصورة، يشي برغبة الشاعر الملحة في إثراء صورته، وإبراز ما تتميز به محبوبته من جمال متميز .

ومن أنواع التشبيهات القليلة ــ للقمرــ في أشعار الجاهليين، التشبيه الضمني الذي يعتبر الأقل استخداماً في صورة القمر الجاهلية، ولعل ذلك يرجع إلى صعوبة فهم المتلقي له، مقارنة بالتشبيهات الأخرى، بما ينطوي عليه من غموض وتلميحات، لأن المشبه والمشبه به لا يوضعان في صورة من صور التشبيه المعروفة بل يلمح المشبه والمشبه به، ويفهمان من المعنى، ويكون المشبه به دليلاً على ما أسند إلى المشبه، ومن ذلك قول عنترة يفخر بنفسه :

(الطويل)

وَهَا قَدْ رَحَلْتُ اليَوْمَ عَنْهُمْ وَأَمْرُنَا   إلَى مَنْ لَهُ في خَلْقِهِ النَّهْيُ وَالأَمْرُ

سَيَذْكُرُنِي قَوْمِي إذَا الخَيْلُ أَقْبَلَتْ   وَفِي اللَّيْلَةِ الظَّلْمَاءِ يُفْتَقَدُ البَــــدْرُ [2]

فالشاعر في هذا التشبيه يستحضر حال المشبه به (البدر) وقيمته في الليلة المظلمة، ليبين حال قومه وقد رحل عنهم في غمرة حاجتهم إليه .

فهذه الصورة تحمل في طياتها معاني الفخر والاعتزاز بالنفس، لكنها جاءت أعمق دلالة وأكثر استثارة لصفات البدر في خيال المتلقي، بما يحمله التشبيه الضمني من تلميحات غير صريحة، وإيحاءات بالتساوي، نشأت عنه دلالات كثيرة عمقت المعنى وجعلته أكثر إيقاعاً في نفس المتلقي .

ولعل عبارة(إذا الخيل أقبلت) هي المفتاح لهذه الدلالات الكثيفة، بما تنطوي عليه من معاني القوة والقدرة على خوض غمار المعارك. وبما تنطوي عليه عبارة (الليلة الظلماء)من معاني الظلمة والخوف من المجهول. إذ لا تعرف قيمة شجاعته إلا في غمار المعارك، والبدر لا تعرف قيمته إلا في الليالي الحالكة .

---

(1) عنترة: **شرح الديوان**, ص168 .

(2) المرجع السابق, ص88.

ويبدو أن الشاعر قد ألح على أن يكون مصدر الخوف بصرياً إذ قال(وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر)، ليؤكد مدى الفراغ الكبير الذي يتركه بغيابه .

ومن التشبيهات القليلة التي استخدمها الشعراء الجاهليون للقمر التشبيه التمثيلي، ولعـل سبب ذلك يرجع إلى صعوبة استخراج الصورة المتصلة بالقمر والمنتزعة من أمـور متعـددة، حيث تحتاج في فهمها إلى إعمال الذهن، على نحو ما نرى في قول أعشى باهلة يرثي أخاه: (البسيط)

مِرْدَى حُروبٍ شِهابٌ يُسْتَضاءُ بِهِ كَما أَضاءَ سَوادَ الطُّخْيَةِ القَمَرُ [1]

فالشاعر يشبه أخاه وبيده سيف لامع يشق به ظلام الغبار، بالقمر الذي يشق ظلمة الفضاء، في إشارة واضحة إلى مقدرة الشاعر على رسم صورتين متوازيتين، تمثلان ما كان يتمتع به المرثي من قوة وشجاعة .

ومن جمال هذا التشبيه ما ورد عند المزرد الغطفاني في وصف مضاء رمحـه وحدتـه حين يلمع في الظلام، فيقول: (الطويل)

لَهُ فارِطٌ مَاضِي الغِرَارِ كَأَنَّهُ هِلالٌ بَدَا في ظُلْمَةِ اللَّيْلِ نَاحِلُ[2]

فالشاعر يشبه رمحه وهو يلمع في الظلام بالهلال الذي يبرز نحيلاً في ظلمة الليل، وهو تشبيه يدلل على حدة رمحه من جهة، وعلى جمال صورة الهلال وهو يبرز من وسط الظلام من جهة أخرى، كما أن هذه الصورة الشكلية التي تجمع بين الرمح والهلال تدلل على دقة الشاعر في انتزاع صوره من البيئة المحيطة، وحسن تشبيهه التمثيلي .

ومن التشبيهات النادرة المتعلقة بالقمر في أشعار الجاهليين التشبيه المقلوب أو المعكوس، وهو الذي يأتي المشبه مشبهاً به أو العكس، على نحو ما نرى في قول حنظلة الطائي: (الطويل)

وَمَهْمَا يَكُنْ مِنْ رَيْبِ دَهْرٍ فَإِنَّنِي أَرَى قَمَرَ اللَّيْلِ المُعَذَّبِ كَالفَتَى [3]

---

[1] القرشي: **جمهرة أشعار العرب**، ص572.

[2] التبريزي: **شرح المفضليات**، ص346.

[3] شيخو: **شعراء النصرانية قبل الإسلام**, ص91

فالشاعر في هذا البيت يجعل القمر ــ الذي يأتي في العادة مشبهاً به ــ مشبهاً، فهو يشبه القمر المعذب بالفتى، والمتعارف تشبيه الفتى بالقمر، لكنه عكس ذلك مبالغة في إبراز ما يعانيه الفتى من هموم، وتبدل في الأحوال فالقمر ــ كما هو معروف ــ يظل متغيراً لا يستقر على حال .

لجأ بعض الشعراء الجاهليين إلى استخدام أدوات تشبيه أخرى، في أثناء رسمهم صـــورة القمر، على نحو ما نرى في قول بشر بن أبي خازم : (المنسرح)

للهِ دَرُ القُبورِ ما حُشِيَتْ أَرْوَعَ شِبْهاً للبَدْرِ إِذْ سَطَعَا[1]

فالشاعر يستخدم أداة التشبيه (شبها) ــ وهي مصدر ــ في تشبيهه للمرثي بالبدر، لأنها اقدر من الأدوات الأخرى على التقريب بين المشبه (المرثي)، والمشبه به (البدر)، فوجه الشبه (السطوع والجمال) أكد على مكانة المرثي العظيمة, عند الشاعر, كما أنها أبرزت ذوق الشاعر الرفيع في استخدامها مع المشبه به، فظهرت للبدر قيمة أخرى، غير قيمته الجمالية، تتمثل في تلك العلاقة بين المرثي والبدر في وجدان الشاعر والتي انصهرت وتوحدت في مكان واحد وهو القبر .

ومن جمال التشبيه الذي وردت فيه أداة التشبيه (أشبه) مرتبطة بالهلال، قول الشاعر عمرو بن كلثوم يصف حسن محبوبته وقد تميزت عن فتيات قومها بشبهها بالهلال، فيقول :

(لوافر)

وَلَمْ أَرَ مِثْلَ هَالَةَ فِي مَعَدٍّ أُشَبِهُ حُسْنَهَا إلا الهِلالا [2]

فالشاعر في هذا البيت يستخدم أداة التشبيه (أشبه)، في تشبيهه جمال محبوبته بالهلال، فهوــ ومن خلال استخدامه هذه الأداة ــ استطاع أن يرسم لها صورة جميلة، سكب فيها عاطفته ليكسبها بعداً حسياً مميزا ً، حيث لجأ إلى تشبيه جمالها الكلي بالهلال، في إشارة واضحة إلى أن تميزها عن سائر النساء يشابه تميز الهلال عن بقية الكواكب .

---

[1] بشر بن أبي خازم: **الديوان**, ص148 .

[2] عمرو بن كلثوم: **الديوان**, ص50

وهكذا، لو تتبعنا صورة القمر التشبيهية، لوجدنا أمثلة كثيرة تسير على هذا النهج، لا يسعنا ذكرها جميعاً في هذا البحث .

2- الاستعارة

كانت الاستعارة من الوسائل البلاغية البارزة التي وظفت في تشكيل الصورة الشعرية للقمر في أشعار الجاهليين، وذلك لما تحمله بين طياتها من عناصر جمالية ودقة في التصوير، فهي من العملية الشعرية " كالنحو من اللغة، فكما اطردت اللغة قبل أن يعرف متكلموها القواعد ويفطنوا إلى وجودها، كذلك صور الشعراء الاستعارة بفطرتهم دون معرفة نظرية أو وعي تحليلي لطرق استعمالها، ولهذا جاء معظم الاستعارات القديمة صادقة، لأن ملكة الشاعر انتزعتها من طبيعة الأشياء، أو على الأصح لأن الأشياء أملتها على الشعراء دون أن يصنعوا هم شيئاً " [1] .

والاستعارة أعمق وأبلغ من التشبيه، وأكثر منه قدرة على تحفيز الخيال عند المتلقي، لإدراك العلاقات الكامنة التي يقيمها الشاعر بين عناصر الصورة وشعوره، لأن جمال الاستعارة يكمن في " اكتشاف العلاقات بين الأشياء المتباعدة، ولا جناح على الشاعر في أن تكون صوره التي تشكلها قوة التخيل والملاحظة عنده غير موجودة في عالم الواقع، أو غير مدركة في مجملها للحس، والمهم أن تتآلف هذه الصورة في نسق يقبله العقل[2] .

والمعنى الذي تثيره الاستعارة لا يعتبر ترجمة للواقع أو صورة منه، لأن ذلك يفقدها جماليتها التي وضعت من أجلها، " فنحن لسنا إزاء معنى حقيقي ومعنى مجازي، بل نحن في الحقيقة إزاء معنى جديد، نابع من تفاعل السياقات القديمة لكل طرف من طرفي الاستعارة داخل السياق الذي وضعت فيه، وبهذا الفهم لا تصبح الاستعارة من قبيل النقد أو التعليق أو الادعاء، وإنما تصبح عبارة عن فكرتين لشيئين مختلفين، ويكون معناها محصلة لتفاعلهما، لذلك فهي من أبرز جوانب الخيال في التعبير حين تنقل اللفظ إلى مدلول مغاير لمدلوله المعروف لغاية بلاغية[3] .

---

[1] مندور, محمد: **النقد المنهجي عند العرب**, ط2 , القاهرة, دار نهضة مصر, 1969, ص49 .

[2] عصفور: **الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي**, ص74 .

[3] يُنظر: المرجع السابق, ص272 .

وقد برزت الاستعارة في صورة القمر الجاهلية، باعتبارها شكلاً من أشكال العلاقات الدلالية التي تعتمد على المشابهة، لإبراز المعنى في صورة حسية يجسد الشاعر من خلالها رؤيته وموقفه الشعوري، إذ يقوم هذا التصوير على العنصر الحسّيّ القائم على التشخيص الذي يُعَدّ "ملكة خالقة تستمد قدرتها من سعة الشعور حيناً أو من دقة الشعور حيناً آخر، والشعور الواسع هو الذي يستوعب كل ما في السماوات والأرض من الأجسام والمعاني، فإذا هي حية كلها، لأنها جزء من الحياة المستوعبة الشاملة، والشعور الرقيق هو الذي يتأثر بكل مؤثر ويهتز لكل حاسة ولامّة، فيستبعد جدّ الاستبعاد أن تؤثر فيه الأشياء ذلك التأثير وتوقظه تلك اليقظة، وهي هامدة جامدة صفر من العاطفة، خلو من الإرادة " (1) .

وتبرز أهمية الاستعارة عند الشاعر الجاهلي في تصوير القمر، من خلال اعتمادها على موهبة الشاعر الخيالية، ودقة حسه وتركيزه وقدرته على الربط بين العناصر المتباعدة .

ويتبين لنا في مواضع كثيرة استخدام الشاعر الجاهلي للقمر لتجسيم أفكاره وتجسيد معانيه .

وكان عنترة من أكثر شعراء العصر الجاهلي استخداماً لصورة القمر الاستعارية، حيث وجد فيها متنفساً واسعاً للتعبير عن عواطفه تجاه محبوبته وممدوحه، كما أنها كانت أقدر من التشبيه في تجسيد معاناته من الظلم الاجتماعي الواقع عليه، فهو بذلك يترك للمتلقي تخيل صورة ما يتضمنه الكلام من تشبيه خفي مستور .

من هنا جعل عنترة القمر إنساناً، فاستعار له صورة الكائن الحي، على نحو ما نرى في هذه الصورة التي يرسمها في قوله : (الكامل)

فَأَنَا سَرَيْتُ مَعَ الثُّرَيَّا مُفْـرَداً   لا مُؤْنِسٌ لِي غَيْرُ حَدِّ المُنْصـلِ

وَالبَدْرُ مِنْ فَوْقِ السَّحَابِ يَقُودُهُ   فَيَسِيرُ سَيْرَ الرَّاكِبِ المُسْتَعْجِلِ (2)

(1) العقاد, عباس محمود: **ابن الرومي حياته من شعره**, ط, القاهرة, المكتبة التجارية, 1950, ص296 .

(2) عنترة: **شرح الديوان**, ص138 .

فقد جسد الشاعر البدر في صورة إنسان يتمتع بالإرادة والفعل، يقود إنسانا آخر ليدله على الطريق الصحيح، فيخلع الشاعر على البدر صفات بشرية. ويبدو أنه أراد بذلك أن يجعل للبدر تصرفاً كتصرف الإنسان، فاستعار له القيادة مبالغة في تحقيق التشبيه .

فهذه الاستعارة تضفي على صورة البدر هيبة وقوة، أكسبتها دلالة رمزية تتلاءم مع الحالة الشعورية التي يمر بها الشاعر، وتلتقي مع هذه الرهبة التي يثيرها ظلام الليل في نفسه، والتي نستشف من خلالها ما كان يحس به الشاعر من شجاعة وقوة، عمقت الإحساس عنده بالتغلب على الليل.

وتشير الصورة ــ أيضاً ــ إلى سمة فنية واضحة، في تصوير الشاعر الاستعاري، والتي تتمثل في قدرته على الملاءمة بين الموقف الذي هو فيه ــ والمتمثل في سيره مع حصانه وحيدين في تلك الصحراء الموحشة ولا مؤنس لهما إلاّ البدر ــ وبين سير البدر باستعجال. وتجسيم البدر في الصورة جعلها أشد وقعاً على المتلقي وأبلغ وأدق في التعبير عن الموقف الذي كان فيه الشاعر.

وعلى هذا النحو يرسم الشاعر نفسه هذه الصورة للبدر فيقول: (الخفيف)

سَرَقَ البَدْرُ حُسْنَهَا واسْتَعَارَتْ سِحْرَ أَجْفَانِهَا ظِبَاءُ الصَّرِيمِ [1]

فهو يجسم البدر في صورة إنسان سارق، يسرق حسنها الذي يتفوق على حسنه . فالشاعر باستعارته السرقة للبدر، يجسد ما كانت تتمتع به محبوبته من جمال وحسن لا يستطيع نيلهما .

ولعل لجوء الشاعر للاستعارة في هذا البيت، جاء ليحقق المبالغة في تصوير جمال محبوبته، حيث أسقط من روح مشاعره وإحساس قلبه على تصويره البدر بالسارق. فأدت هذه الاستعارة دوراً جوهرياً في التعبير عن ذات الشاعر وتحرير طاقاته الكامنة التي تولدت في صورته. فهو أراد من خلالها أن يجسد القهر والظلم الاجتماعي الواقعين عليه، واللذين يؤرقانه ويقضان مضجعه، فجعلها متنفساً للتعبير عن ذلك .

ومن ذلك قوله يصف جمال محبوبته : (الطويل)

---

(1) عنترة: **شرح الديوان**, ص161.

وَقَالَ لَهَا البَدْرُ المُنيــــرُ ألا اسْفِري فإنَّكِ مِثْلِي في الكَمَالِ وَفِي السَّعْدِ [1]

فالشاعر ــ في هذا البيت ــ يلجأ إلى استعارة صورة الكائن الحي للبدر، يقول ويأمر، لتتم الاستعارة في هذه الصورة عن فكر الشاعر وخياله، فالبدر من الظواهر الطبيعية المحببة إلى نفس الشاعر، بما يحمله بين طياته من معاني الجمال والإنارة، من هنا جعل الشاعر للبدر صفات الكائن الحي .

ومن الاستعارات المألوفة أيضا في أشعار الجاهليين تلك الاستعارة التـــي تجعــل مـــن الممدوح قمراً في كثير من المواقف، كما في قول عنترة يمدح كسرى آنو شروان: (الوافر)

جَوَاهِرُهُ النُّجُومُ وَفِيهِ بَدرٌ أَقَلُّ صِفَاتِ صُورَتِهِ التَّمَامُ [2]

وتتضح ــ في هذا البيت ــ معالم الصورة الفنية الاستعارية من خلال الصلة بين البدر والملك، بإحلال البدر محل الملك، حيث صرح هنا بالمشبه به (البدر) وحذف المشبه (الملك) بجامع الرفعة والعلو، من هنا تتحقق قدرة وإبداع الشاعر أمام الأشياء، فهو يؤثر استخدام الاستعارة على التشبيه، ليرسم للمتلقي صوراً حية، وكأن الملك والبدر كائنان متشابهان .

ومن ذلك قوله: (الكامل)

يَا أَيُّهَا المَلِكُ الَّذِي رَاحَاتُهُ قَامَتْ مَقَامَ الغَيْثِ فِي أَزْمَانِـــهِ

يَا قِبْلَةَ القُصَّادِ يَا تَاجَ العُلاَ يَا بَدْرَ هَذَا العَصْرِ فِي كِيوَانِه [3]

لقد بلغت مكانة الملك في ــ المثالين السابقين ــ مبلغاً كبيراً، فقد استلهم الشاعر صورة البدر ليقرن بها هذه المكانة، فهو يريد التقرب من الملك، فلم يجد أفضل من البدر ملاذاً ليصور به علو مكانته، وقد آثر الشاعر البدر على بقية الكواكب الأخرى، وذلك لتوافق البدر مع حالة الملك النفسية التي تريد هذا التصوير وترغب فيه، فضلاً عن أن القمر يكون في أجمل حالاته في طور البدر .

---

[1] عنترة: **شرح الديوان**,, ص72 .

[2] المرجع السابق, ص169 .

[3] المرجع السابق, ص171.

بهذا الأداء الحي نقل إلينا الشاعر واقعه الشعوري من الملك، حيث حوله إلى واقع مرئي مشاهد في استعارته التي عبرت عن موقفه تجاه الملك .

ومن الاستعارات التي وردت ــ في أشعار الجاهليين ــ تلك الاستعارة التي تجعل مــن القمر عائقاً أمام تقدم الشاعر إلى ديار المحبوبة، كما في قول الأعشى : (مجزوء الكامل)

وَلَقَدْ أَطَفْتُ بِحاضــرٍ حَتَّى إذا عَسَلَتْ ذِئَابُهْ

وَصَغَا قُمَيْرٌ كان يَمْــ نَعُ بَعْضَ بُغْيَةٍ ارْتِقَابُهْ

أَقْبَلْتُ أَمْشِي مِشْيَةَ الــ حَشْيَان مُزْوَرَّاً جِنَابُهْ [1]

وتتركز الصورة الفنية في قوله (يمنع)، التي تدلل على تصوير القمر بالكائن الحي، ولتظهر الاستعارة بصورتها الجلية، وكأن القمر كائن حي يمنع .

لقد بلغ القمر عالم الأحياء، حين جسمه الشاعر في صورة إنسان يملك إرادة المنع، فهو يقف حارساً للديار يمنع المتسللين الغرباء من التقدم نحوها .

وكما يبدو فإن هذه الاستعارة تضفي على صورة القمر جواً من السلبية، باعتباره يشكل عائقاً كبيراً بين الشاعر وبين التقائه بالمحبوبة، كما أنها تكسبه دلالة رمزية تلتقي مع ذات الشاعر وحالته الشعورية، التي تتصف بالاضطراب، والخوف من افتضاح أمره .

ويقول الأعشى في مدح هوذة بن علي الحنفي : (الطويل)

وَمَا كَانَ فِيهَا مِنْ ثَنَاءٍ وَمِدْحَـــــةٍ فَأَعْنِي بِهَا أَبَا قُدَامَةَ عَامــــــدَا

فَتىً لَوْ يُنَادِي الشَّمْسَ أَلْقَتْ قِنَاعَهَا أَوِ القَمَرَ السَّارِي لأَلْقَى المَقَالِدَا[2]

فهو يجسم القمر في صورة إنسان منقاد يمتثل لأوامر غيره، ولعله أراد بذلك، أن يجعل للقمر تصرفا كتصرف الإنسان، فاستعار له الإلقاء، مبالغة في تحقيق التشبيه، وفي بيان مدى الطاعة التي كانت تقدم للممدوح. ولعل تجسيم القمر في الصورة يجعلها أشد وقعاً في نفس المتلقي، وأبلغ وأدق في التعبير عن المعاني من التشبيه .

---

[1] الأعشى: **شرح الديوان**, ص76

[2] المرجع السابق, ص103 .

ومن الاستعارات التي تطالعنا في الشعر الجاهلي، تلك التي يبدو فيها المرثي وقد صور بالنيرين (القمر والشمس)، على نحو ما نرى في قول الخنساء في رثاء أخويها: (الكامل)

قَمَرَانِ في النَّادِي رَفِيعَا مَحْتَدٍ في المَجْدِ فَرْعَا سُؤْدَدٍ مُتَخَيَّرِ [1]

فالشاعرة، ومن خلال استعارتها، استحضرت في ذهنها صورة النيرين، لتبني من خلالها صورة استعارية جميلة تليق بمكانة أخويها الرفيعة، فالنيران من أكثر الكواكب بروزاً في السماء، حيث قامت الشاعرة باستعارة صورة القمرين لهما. لعلها بذلك، قد أرادت أن تبين فداحة هذا الفقد، وتبرز بجلاء الفراغ الذي تركاه بعد موتهما، فلم تجد أمامها إلا خلق هذه الدلالة الرمزية لتلتقي مع حالتها النفسية والشعورية .

ومما يلاحظ ــ أيضا ــ في البيت السابق، لجوء الشاعرة إلى الصورة الاستعارية، مع أنه كان بالإمكان اللجوء إلى الصورة التشبيهية في رسم هذه الصورة، ولعل ذلك يرجع إلـــى أن الصورة الاستعارية أبلغ من الصورة التشبيهية في توضيح المعالم، بما تحمله بين طياتهـــا مـــن بلاغة في التركيب، كما أنها أشد وقعًا في نفس المتلقي، لأنها كلما كانت أكثر اســـتثارة للخيـــال كان وقعها في النفس أشد ومنزلتها البلاغية أعلى .

وقد يستقي الشاعر الجاهلي مادة صورته الاستعارية من الحياة الاجتماعية التي شهدت أنواعا من العلاقات بين أبناء المجتمع كالولادة والإنجاب، على نحو ما نرى في قول كعب بن زهير : (الطويل)

فَتَىً لَمْ يَدَعْ رُشْدَاً وَلَمْ يَأْتِ مُنْكَرَاً وَلَمْ يَدْرِ مِنْ فَرْطِ السَّمَاحَةِ مَا البُخْلُ

بِهِ أَنْجَبَتْ لِلْبَدْرِ شَمْسٌ مُنِـــــيرَةٌ مُبَارَكَةٌ يَنْمِي بِهَا الفَرْعُ وَالأَصْـــلُ [2]

فالشاعرــ في هذه الأبيات ــ قد استعار الأبوة للقمر والأمومة للشمس، والتي استطاع من خلالها أن يوطد بنيان صورة غاية في الجمال، التي أوحت بمكانة الممدوح وأصالة انتمائه، لأن القمر والشمس قديمان قدم الحياة على الأرض، فهما معروفان بأصالتهما، ولا شك أن هذا

---

(1) الخنساء وليلى الأخيلية: **ديوان الباكيتين**, ص106 .

(2) كعب بن زهير: **الديوان**, ص80 .

التجسيم الذي رسمه الشاعر بحذق ومهارة ينقل المتلقي إلى جو يشيع فيه الإحساس بالأصالة ونقاء العرق .

وهكذا، فإن صورة القمر التي تقوم على أساس من الاستعارة كثيرة في أشعار الجاهليين، فقد تتكرر الاستعارة نفسها في شعر الشاعر الواحد أو في شعر غيره من الشعراء في عبارات متشابهة أو متقاربة. وهذا ما لمسناه عند حديثنا عن التشبيه في صورة القمر .

ومما لاحظناه ــ أيضا ــ في أثناء تتبعنا صورة القمر الاستعارية، تركيز الشعراء على الاستعارة التصريحية والمكنية، وتجاهلهم لباقي الأنواع كالتمثيلية ...، ولعل ذلك يرجع إلى رغبة الشاعر في الابتعاد عن التعقيد الذي تمثله هذه الاستعارات، واللجوء إلى استعارات واضحة الأركان، يمكن فهمها وتخيلها بسهولة .

3- الكناية :

الكناية من العناصر البارزة التي يتخذها الشعراء في تشكيلهم معالم صورهم، وتقف جنبا إلى جنب مع العناصر الأخرى من تشبيه واستعارة، وقد " تستقل الكناية بتشكيلها للصورة دون الامتزاج مع عناصر أخرى" [(1)] .

وتعتمد الكناية على الإيماء والتعريض والإيحاء، بما تحمله من القدرة على التعبير تجعل من المعنى أبلغ وأشد وأوقع في النفس. فهي " الأسلوب الذي ييسر للمرء أن يقول كل شيء، وأن يعبر عن كل ما يجول بخاطره، وحسنها في الموضع الذي لا يحسن فيه التصريح، أصل من أصول الفصاحة، وشرط من شروط البلاغة. والكناية تساعد في تصوير المعنى أحسن تصوير وتعمل على رسم الصورة الموحية في أسلوب بليغ موجز تتآلف ألفاظه على معانيه، فهي من دلائل بلاغة الشاعر واحترامه لذوق المتلقي ولعقله وفكره، واعترافه بقدرته على الفهم والتنقيب، حين يترك الشاعر المعنى المراد ليتوسل بما هو أجمل منه رغبة في التحسين والتجميل والبعد عن المفحش من اللفظ وتجنب ما ينبو عنه الطبع، معتمدا على ذكاء المتلقي، وعلى مظنة المخاطب لإيضاح المعنى والتأثير به في نفوس المستمعين" [(2)] .

[(1)] أبو زيد: **الصورة الفنية في شعر دعبل**, ص315 .

[(2)] زايد, عبد الرزاق أبو زيد: **في علم البيان**, ط1, القاهرة, مكتبة الأنجلو المصرية, 1978, ص142,141 .

ويلاحظ من خلال الدراسة أن اهتمام الشعراء الجاهليين بالكناية في رسم صورة القمر، لا يقل عن اهتمامهم بالتشبيه والاستعارة. ولعل ذلك يعود إلى أن الشاعر الجاهلي يعبر عن معانٍ " مألوفة، فلو عبر عنها مفصحا مصرحا لكانت مبتذلة، فتعفّها النفس وتملها الآذان، فخرجت الكناية بالمعاني إلى عالم الجدة والتطور، وإلى ساحة الألفة والتذوق وجنبها الملل والنفور " [(1)] .

فالتعريض أوقع في النفوس وأقوى من التصريح عند أصحاب البلاغة [(2)]، ومن ذلك على سبيل المثال قول هدبة بن الخشرم هاجياً: (الكامل)

نَاطُوا إِلَى قَمَرِ السَّمَاءِ أُنُوفَهُمْ وَعَنِ التُّرَابِ خُدُودُهُمْ لا تُرْفَعُ [(3)]

فـ (ناطوا إلى قمر السماء أنوفهم) كناية عن التكبر والاستعلاء الذي اتصف به المهجوون. ويبدو أن الشاعر استخدم القمر في سياق التكبر ــ بما يحمله من دلالات العلو والارتفاع على المخلوقات الأخرى ــ ليبين ما كانوا عليه من مغالاة في الاستعلاء على الآخرين، على وضاعتهم وحقارة مكانتهم .

ومن خلال هذه الإيماءات التي توحي بها الكناية ــ في البيت ــ يمكن إدراك المعنى الذي يريده الشاعر. وهو أن الذي يريد الوصول إلى مكانة القمر، عليه أن يكون على قدر ومكانة تمكنه من ذلك، فلماذا هذا التكبر الزائف إذن ؟

تنوعت صور القمر الكنائية في شعر الجاهليين، وعبروا بها عن مختلف معاني الشعر من مدح ورثاء وهجاء وحرب، وامتزجت مع عناصر التشكيل الأخرى، أتى بها الشعراء متتابعة في البيت الواحد، حيث عبرت بجلاء عن القدرة والبراعة في إبراز المعنى وتوضيحه.

وكان القمر مصدراً لكثير من الكنايات عند الشعراء الجاهليين، حيث استخدمه بعض الشعراء الجاهليين في تصويرهم الكنائي لشدة المعارك وضراوتها، فكنوا بالإظلام واختفاء

---

(1) أبو زيد: **الصورة الفنية في شعر دعبل**, ص316 .

(2) الجرجاني, عبد القاهر: **دلائل الإعجاز في علم البيان**, ص55 .

(3) هدبة بن الخشرم: **الديوان**, ص117 .

القمر والشمس عن اليوم القاسي للمعركة الذي في عز النهار، على نحو ما نرى في قول الربيع ابن زياد: (البسيط)

فِي يَوْمِ حَتْفٍ يَهَالُ النَّاظِرُونَ لَهُ مَا إِنْ تَبينَ لَهُ شَمْسٌ وَلا قَمَرُ [1]

فـــ (ما إن تبين له شمس ولا قمر) كناية عن شدة المعركة وهولها.

ومن الملاحظ أن الشاعر قد استمد صورته الكنائية من القمر، على الرغم من أنه لا يظهر إلا ليلاً والحروب في الجاهلية لا تقع إلا نهاراً. فلعله أرادا من خلال استحضار صورة القمر ــ وجعله يظهر ويغيب نهاراً ــ المبالغة في تهويل مجريات الحرب، وإظهار القدرة على رسم الأبعاد التي تنطوي عليها النفس حين تجابه بموقف مخيف أو مشهد مثير للفزع، والتي تمثله صورة الحرب هذه خير تمثيل. حيث يمكن إدراك المعنى المراد وملاحظته من خلال الإيحاءات التي توحي بها العبارة، والتي ارتبطت بالمعنى في أذهان الناس.

وقد يعمد الشاعر إلى استخدام الصورة الكنائية للهلال، ليبين المكانة الرفيعة التي وصل إليها، ممدوحه والفزع الذي وصل إليه العدو، على نحو ما نرى في قول (لوافر)زهير بن أبي سلمى في مدح قبيلة هرم بن سنان: (البسيط)

قَوْماً تَرىَ عِزَّهُمْ بِالفَخْرِ إِنْ فَخِرُوا فِي بَيْتِ مَكْرُمَةٍ قَدْ لُزَّ بِالقَمَــرِ [2]

فـــ (لزّ بالقمر) كناية عن علو المكانة والرفعة التي وصل إليهـــا هـــؤلاء القـــوم، وقـــد استحضر الشاعر عنصر القمر في هذه الصورة الكنائية، لما يتمتع به من علو، كمـــا أنـــه أراد بذلك أن يثبت هذه الصفة في ممدوحيه، فبدلا من قوله هم مرتفعو المكانة، ســـما بتعبيـــره إلـــى درجة من الصياغة الفنية، حين لجأ إلى أن يكني عن هذه الصفة بوضع بيوتهم بجـــوار القمـــر، مما يكسب الصورة بعداً جمالياً عميقاً، يترك أثراً عميقا في نفس الممدوح .

ومن الصور الكنائية البديعة للقمر، قول الشاعر مضرس بن ربعي الأسدي في الهجاء: (البسيط)

فَإِنْ قَرُبْتَ فَلا أَهْلٌ وَلا رَحُبَتْ أَرْضِي عَلَيْكَ وَلا اخْتِيرَتْ لَكَ الخِيَرُ

---

[1] الربيع بن زياد: **شعره**, ص378 .

[2] زهير بن أبي سلمى: **شرح الديوان**, ص82 .

وَإِنْ بَعُدَتْ فَأَقْصَاهَا وَأَبْعَدُهَا   فِي مَنْزِلٍ لا بِهِ شَمْسٌ وَلا قَمَرُ [1]

فـــ (في منزل لا به شمس ولا قمر) كناية عن القبر .

ومن الملاحظ أن الشاعر قد استمد صورته الكنائية من الجمع بين القمر والشمس، اللذين يعدان من أهم مقومات الحياة على الأرض في ذهن الشاعر، فعدم ظهورهما دليل على الموت، فالشاعر بدلاً من أن يدعو على عدوه بالموت، كنى عن ذلك بأن تمنى له أن يستقر في منزل لا يطاله نور القمر والشمس .

كان الليل المقمر من العناصر البارزة التي تعامل معها الشاعر الجاهلي، لا سيما في الرحيل، وذلك لما يحمله من دلالات الوضوح والإنارة، وقد استخدم بعض الشعراء هذا العنصر في صورهم الكنائية، على نحو ما نرى في قول الشنفرى الأسدي: (الطويل)

فَقَدْ حُمَّتْ الحَاجَاتُ وَاللَّيْلُ مُقْمِرٌ   وَشُدَّتْ لِطَيَّاتٍ مَطَايَا وَأَرْحُلُ [2]

فـــ (الليل مقمر) كناية عن تفكير الشاعر الجاهلي في الرحيل، أو أن الرحيل أمر لا يراد إخفاؤه[3] .

وكأن الشاعر أراد من خلال الربط بين (حمت الحاجات) و(الليل المقمر) الضرورة الملحة للانسلاخ عن مجتمعه الذي تم في ليلة مقمرة، وليس بالسر، فهو يفتخر بذلك .

وهكذا، فقد استطاع الشاعر الجاهلي أن يستخدم القمر في صورته الكنائية، للتعبير عن معظم أغراض شعره، حتى أضحى من عناصر التشكيل الفني البارز في تصويره الكنائي، واتسم بطوابع فنية خاصة، بث الشاعر الجاهلي فيه ذاته الفنية، ووعيه الخصب، وخياله الجامح، فبدت هذه الصورة الكنائية ممثلة لمقومات أشركها مع ألوان التصوير الأخرى، في رسم صورته وتجسيد أبعادها، لا سيما التشبيه والاستعارة.

---

[1] مضرس بن ربعي الأسدي: **حياته وشعره**, ص 150 .

[2] الشنفرى الأسدي: **الديوان**, جمع وتحقيق وشرح: إميل بديع يعقوب, ط1, بيروت, دار الكتاب العربي, 1991, ص59,58 .

[3] المرجع السابق, ص58

4- اللون:

أدى اللون دوراً فاعلاً في رسم صورة القمر الجاهلية بصفته وسيلة جوهرية من وسائل التعبير الفني، التي أسهمت في تجسيد المعنى وتعميقه. وغالباً ما يتخذ الشاعر من اللون وسيلة في رسم صورة القمر، التي يلونها بألوان أحاسيسه ومشاعر، تجسد شعوره وتعكسه على الآخرين .

ويبدو أن الشاعر الجاهلي قد استخدم اللون استخداماً رمزياً، حيث أصبحت صوره صوراً بصرية، عكست الحالة النفسية التي يحملها تجاه الأشياء، فقد " أدرك الشاعر الجاهلي خاصية الألوان، وأدرك قدرتها على التعبير فاستعملها استعمالاً موفقاً، واستخدم منها ما كان متوافقاً مع أحواله وظروفه النفسية "[1] .

ومن صور التعبير الشعري التي استخدم فيها الشاعر الجاهلي اللون الأبيض المرتبط بضوء القمر ولمعانه وسيلة في رسم الصورة، في حديثه عن صفات الممدوح، على نحو ما نرى في قول حسان بن ثابت يمدح المرقال قيس: (الوافر)

وَنَحْنُ الحَاكِمُونَ بِكُلِّ أَمْرٍ قَدِيماً نَبْتَنِي شَرَفَ المَعَــالِي

وَلا يَنْفَكَ فِينَا مَا بَقِينَــــاَ مُنِيرَ الوَجْهِ أَبْيَضَ كَالهِلالِ [2]

وقول الأعشى في مدح علقمة بن علاثة: (المتقارب)

وَإِنْ فَحَصَ النَّاسُ عَنْ سَيِّدٍ فَسَيِّدُكُمْ عَنْهُ لاَ يُفْحَصُ

فَهَلْ تُنْكَرُ الشَّمْسُ فِي ضَوْئِهَا أَوْ القَمَرُ البَاهِرُ المُبْرِصُ [3]

وقول حذافة بن غانم في مدح بني شيبة: (الطويل)

بَنِي شَيْبَةَ الحَمْدِ الَّذِي كَانَ وَجْهُهُ يُضِيءُ ظَلاَمَ اللَّيل كَالقَمَرِ البَدْرِ [4]

---

[1] القيسي, نوري حمودي: **دراسات في الشعر الجاهلي**, ط1, بغداد, مطبعة الإرشاد, 1972, ص162 .

[2] حسان: **الديوان**, ص277.

[3] الأعشى: **شرح الديوان**, ص 48 .

[4] النعانعة: **شعر بني كنانة**, ص389 .

من الواضح في الأبيات السابقة، أن اللون الأبيض ــ في الصــورة ــ جــاء تجســيدا لإحساس الشاعر تجاه الممدوح، بما يحمله لون القمر من دلالات رمزية، ترسخ شعور الشــاعر الصادق نحوه، فهو كالنور الذي يخرج من داخل الظلام .

فصورة الممدوح ارتبطت بقدر كبير من العلو والرفعة المرتبطين بالقمر، فهو إنسان غير عادي، مرتفع يسمو على البشر. حيث جاء اللون الأبيض لإبراز هذه الجوانب وترسيخها في ذهن المتلقي. لعلها تعبير عن صفة متأصلة في الممدوح .

ومن ذلك أيضا ما ارتبط بالرثاء، كقول نائلة بنت الفرافصة في رثاء زوجها: (الطويل)

وَمالِيَ لا أَبْكِي وَتَبْكِي قَرَابَتي وَقَدْ غُيِّبَتْ عَنَّا فُضُولُ أَبي عَمْرِو

إذا جِئْتُهُ يَوْمَاً تَرَجَّى نَوالَــــهُ بَدَتْ لَكَ سيماهُ بِأَبْيَضَ كَالبَـــدْرِ [1]

فاللون الأبيض في الصورة يعكس حالة الشاعرة النفسية تجاه المرثي .

فالبياض الذي تتصف به الصورة، يبرز تميز المرثي بالكرم، كتميز البدر بلونه الأبيض في السماء الزرقاء. فهذا التلازم بين اللون الأبيض للبدر والمرثي يمثل خير تمثيل الواقع الحقيقي الذي كان يعيشه المرثي، والمكانة المميزة التي كان يتمتع بها في قومه.

ويبرز اللون الأسود بجلاء في صورة القمر الجاهلية، وبخاصة في شعر الرثاء. وذلــك على الرغم مما يحمله القمر من معاني البياض والإنارة واللمعان. فبروز هذا اللون في صـــورة القمر الجاهلية المتصلة بشعر الرثاء يضفي عليها هالة من الحزن، ودلالة رمزية تعكس فداحة الفقد، على نحو ما نرى في قول أم ندبة ترثي ابنها: (الوافر)

فَيَا يَوْمَ الرِّهَانِ فُجِعْتُ فِيهِ بِشَخْصٍ جَازَ عَنْ حَدِّ الصِّفَــاتِ

وَلاَ زَالَ الصَّبَاحُ عَلَيْكَ لَيْلاً وَوَجْهُ البَدْرِ مِسْوَدَّ الجِهَــــاتِ[2]

من الواضح في البيتين السابقين، ارتباط اللون الأسود بالموت، وانعكاسه على لون القمر، حيث أن هذا الارتباط لم يأت من فراغ، بل هو فكرة ميثولوجية قديمة سادت في بعض الحضارات، ولما كان الميت يغيب في عالم أسود قاتم فلا عجب أن نجد الأسود لوناً للحداد في

---

[1] صقر: **شاعرات العرب**, ص440 .

[2] المرجع السابق, ص446 .

العديد من الحضارات، فهو يعني التجرد من مباهج الحياة والرغبة في الفناء والموت بعد هذا العزيز الراحل .

فقد كان المصريون القدماء في الأيام التي تقام فيها طقوس إلـــه القمـــر (أوزوريـــس) ينصبون تمثالاً خشبياً لبقرة متشحة بالسواد، رمزاً للإلهة (إيزيس) في أثناء حدادها على ولـــدها، وقد يُحمل تمثال البقرة هذا ويطاف به لنشر الحزن وعمومه على (أوزوريس) [(1)].

وقد يصف الشاعر السواد الذي يصاحب موت المرثي بغياب القمر والشمس والنجـــوم، كما في قول عنترة بن شداد يصف ما صاحب موت الملك زهير: (الخفيف)

خُسِفَ البَدْرُ حِينَ كَانَ تَمَامـــَا وَخَفَى نُورُهُ فَصَارَ ظَلاَمـــــَا

وَدَرَارِي النُّجُومِ غَارَتْ وَغَابَتْ وَضِيَاءُ الآفَاق صَارَ قَتَامـــَا

حينَ قَالُوا زُهَيْرُ وَلَّى قَتِيــــلاً خَيَّمَ الحُزْنُ عِنْدَنَا وَأَقَامـــــَا [(2)]

وقول الخنساء ترثي زوجها: (الطويل)

لَمَّا رَأَيْتُ البَدْرَ أَظْلَمَ كَاسِـــفَاً أَرَنَّ شَوَاذٌ بَطْنُهُ وَسَوَائِلـــــُهُ

رَنِيَناً وَمَا يُغْنِي الرَّنِينُ وَقَدْ أَتَى بِمَوْتِكَ مِنْ نَحْوِ القُرَيَّةِ حَامِلُهْ [(3)]

يبدو من خلال الأبيات السابقة أن صورة القمر قد تلونت بألوان الشاعر النفسية، حيث استثمر اللون الأسود في تصوير الأحزان التي ألمت به بعد فقده لمن يحب، وكأن السواد في الصور السابقة جاء تجسيداً لهذه الأحزان وتعميقاً للإحساس بالفقد. فالأسود لون يثير الحزن والتشاؤم والخوف من المجهول لارتباطه بأشياء منفرة في الطبيعة، فهو مرتبط بالليل والظلام والزفت والسخام والهباب والرماد المتخلف من الحريق [(4)].

ولعل اللون الأسود بما يحمله من دلالات الظلمة والرهبة والموت كان الأكثر بروزا في صورة القمر الجاهلية، وبخاصة المتعلقة بالرثاء والموت، لأن " طبيعة الجاهليين التي تمتاز

---

(1) يُنظر: السواح: **لغز عشتار**, ص326 .

(2) عنترة: **شرح الديوان**, ص166 .

(3) الخنساء وليلى الأخيلية: **ديوان الباكيتين**, ص164.

(4) يُنظر: عمر ,أحمد مختار: **اللغة واللون**, ط2, القاهرة, عالم الكتب, 1979, ص200 .

بخيال تصوري يعتمد في تركيب الصورة على المرئيات والمحسوسات، يصفها الشاعر كما يشاهدها كل ذي عينين، ويلونها بألوان التصوير لا بألوان الخيال "[1].

ولجأ بعض الشعراء الجاهليين إلى استثمار اللون الأسود في صورة القمر في هجاء أعدائهم، على نحو ما نرى في قول عمرو بن أحمر الباهلي: (الطويل)

نَهَارُهُمُ ظَمْآنُ ضَاحٍ ولَيْلُهُـمْ إنْ كَانَ بَدْراً ظُلْمَةُ ابْنِ جُمَيْرِ [2]

من الواضح أن الشاعر جمع بين لونين متناقضين للقمر (الأبيض) البدر، و(الأسود (ابن جمير)، ليخلق دلالات متناقضة تجسد ما كان عليه من التخبط والتوتر وعدم الاستقرار، كان يعيشها أعداء الشاعر، فهم في أحسن حالتهم يكونون سيئين .

وكان عنترة بن شداد من أبرز الشعراء الجاهليين استخداما للون الأسود المقترن بالبدر، في صوره ولوحاته المتعددة، إذ حاول جاهدا أن يحول دلالات هذا اللون السلبية إلى دلالات إيجابية في شعره، لما كان يشكله هذا اللون من مأساة كبيرة في حياته، شكلت له عقدة كبيرة، فنجده يقول في فرسه: (الطويل)

أَدْهَمٌ يَصْدَعُ الدُّجَى بِسَوَادٍ بَيْنَ عَيْنَيْهِ غُرَّةٌ كَالهِلالِ [3]

فالشاعر يلجأ إلى اللون الأسود في رسم صورة جميلة لجواده، إذ جعل لونه متناسباً مع لون الليل، مع وجود الغرة البيضاء الشبيهة بالهلال التي زادت من جماله. فكأن عنترة يتحدث لا شعورياً عن نفسه، فلجأ إلى هذه المعادلة بين سواد الليل وبياض الهلال، وعكسها على حصانه، لعقد موازنة بين اللونين اللذين يجسدان سواد لونه وبياض فعله .

ومن ذلك قوله يصف سنان رمحه: (الوافر)

وَأَسْمَرَ كُلَّمَا رَفَعَتْهُ كَفِّي يَلُوحُ سِنَانُهُ مِثْلَ الهِلال [4]

---

[1] خان: **الأساطير والخرافات عند العرب**, ص33

[2] ابن أحمر الباهلي: **الديوان**, ص49 .

[3] عنترة: **شرح الديوان**, ص136 .

[4] المرجع السابق، ص 137.

يستثمر الشاعر اللونين الأبيض والأسود في تصوير سنان رمحه في الحدّة والصقل. فالجمع بين اللونين في الصورة يخلق صورة ممتزجة بألوان الصراع الخفي الذي يدور في نفس عنترة، والتي تجسدت في إضفاء الشاعر لونه الأسود وأفعاله البيضاء على رمحه .

ويظل اللونان الأسود والأبيض مرتكزين أساسيين يجسد فيهما شجاعته، فيقول مفتخراً:

(الطويل)

سَيَذْكُرُنِي قَوْمِي إِذَا الخَيْلُ أَقْبَلَتْ وَفِي اللَّيْلَةِ الظَّلْمَاءِ يُفْتَقَدُ البَدْرُ[(1)]

فقد تلونت صورة البدر بألوان الشاعر النفسية، فقيمة شجاعته لا تعرف إلا في الأوقات العصيبة، فكان ظلام الليل يتراءى للشاعر وكأنه حالك لا يستطيع أن يشقه إلا الفارس المقدام .

وهكذا، يغدو اللون من العناصر البارزة في صورة القمر، ساهم في تجسيد المعنى وإبرازه، وتعميق الإحساس به. كما أن لجوء الشاعر إلى الاستعانة باللون في صورة القمر خلق تفاعلا بين ألوانه وبين حالة الشاعر النفسية، مما أكسب الصورة مزيدا من الفاعلية، وقدرة على إثارة الحس وتفجير العاطفة .

5- الحركة:

تبرز " الحركة" عنصراً مهماً من عناصر صورة القمر في أشعار الجاهليين، فهو دائم الحركة لا يستقر على حال .

ويبدو أن ما جعله يرتبط بالحركة في أذهانهم هو حياة العربي التي لا تعرف الاستقرار، فهي قائمة على الحركة المتواصلة والرحيل المستمر، من هنا نرى " الشاعر الجاهلي يبث الحركة في كل شيء يقع عليه بصره ليتحول معها من صورة جامدة إلى صورة تنبض بالحياة"[(2)] .

يقول الدكتور زكي نجيب محمود " إن عبقرية الشعر تكمن في إبراز الفاعلية والنشاط الحركي الذي ينساب على سلسلة من لحظات متعاقبة "[(3)] .

---

(1) عنترة: **شرح الديوان**، ص88 .

(2) عبد الرحمن: **الشعر الجاهلي قضاياه الفنية والموضوعية**, ص235 .

(3) محمود, زكي نجيب: **فلسفة وفن**, ط1, القاهرة, مطبعة الأنجلو المصرية, 1963, ص382 .

وقد استطاع الشاعر الجاهلي تحويل القمر إلى كائن حي دائب الحركة، يعكس الحالة النفسية التي يكون عليها الشاعر، على نحو ما نرى في قول عنترة : (الكامل)

وَالبَدْرُ مِنْ فَوْقِ السَّحَابِ يَقُودُهُ   فَيَسيرُ سَيْرَ الرَّاكِبِ المُسْتَعْجِلِ(1)

فقد استحال البدر في نظر الشاعر إلى كائن حي دائم الحركة، فتبدو حركته متناغمة مع حركة الحصان من خلال الألفاظ التي توحي بالحركة (يقوده، يسير)، لتشيع في الصورة نوعاً من الإحساس بشجاعة الشاعر الممتزجة بخوف الحصان، والتي تجسد عند الشاعر الإحساس العميق بالوحدة، وتساهم في تجسيد مأساته من العبودية .

ويحول عنترة مرة أخرى ــ البدر إلى كائن حي، في قوله: (الطويل)

تهُزُّ رِمَاحاً فِي يَدَيْهَا كَأَنَّمَـــا   سُقِيْنَ مِنَ اللَّبَاتِ صِرْفَ مُدَامِ

إِذَا شَرَعُوهَا للطِّعَانِ حَسِبْتَهَا   كَوَاكِبَ تُهْدِيهَا بُدُورُ تَمَـــــامِ(2)

تبدو حركة الرماح المتمثلة بالبدور ــ من خلال الفعل (تهديها) ــ، وقد شكلت عنصراً فاعلاً في أرض المعركة، وكانت بمثابة العنصر المحرك لها. لعلها تجسد إحساس الشاعر بمكانته في قومه، بعد أن هجرهم، وتعكس حركة نفسه التي تتوق إلى الحرية والخلاص من الظلم الذي يجثم على صدره ويؤرقه، بما تحمله عبارة (تهديها بدور تمام)من معاني الحرية والنور.

وها هو القمر يكتسب صفات الكائن الحي في حركة الاستسلام في قول الأعشى:

(الطويل)

فَتىً لَوْ يُنَادِي الشَّمْسَ أَلْقَتْ قِنَاعَهَا   أَوِ القَمَرَ السَّارِي لأَلْقَى المَقَالِدَا (3)

فاستسلام القمر للممدوح، يحمل من الدلالات ما يجسد قوته الخارقة التي تفوق قوة القمر التي تظهر في فعل الحركة (ألقى) من معاني الانصياع والإذعان .

---

(1) عنترة: **شرح الديوان**, ص138 .

(2) المرجع السابق, ص166 .

(3) الأعشى: **شرح الديوان**, ص103.

ويقترن رثاء الإنسان عند الشعراء الجاهليين في كثير من الأحيان بالبدر المتحرك، من ذلك قول الجيداء بنت زاهر الكلبية في رثاء زوجها: (الخفيف)

بَدْرُ تِمٍّ هَوَى إلى الأَرْضِ لَمَّا رَشَقَتْهُ السِّهامُ مِنْ كَفِّ عَبْدِ [1]

يبدو أن عنصر الحركة الذي يظهر من خلال الفعل (هوى)، يساهم في تحريك الخيال ودفعه إلى تصور لأحداث، التي تصور السرعة التي قتل فيها زوجها، فهي تجسيد لمأساة الإنسان الجاهلي مع سرعة اختطاف الموت للإنسان دون رادع .

ويقول عنترة في رثاء مالك بن زهير العبسي : (الطويل)

فَإِنْ كَانَ حَقًّاً فَالنُّجُومُ لِفَقْدِهِ تَغِيبُ وَيَهْوِي بَعْدَهُ القَمَرَانِ [2]

لقد جاءت حركة القمر المتمثلة بالفعل (يهوي) متناغمة مع موت المرثي، الذي غير بفقده حركة الكواكب والنجوم، كما جعل العالم يموج بالفوضى الكونية .

وعن العلاقة بين الفعل هوى وسرعة الموت، يربط الدكتور إحسان الديك بين هوى والهاوية، التي تعني الموت والسقوط والانحدار نحو الأسفل، مستشهداً بالعديد من الأبيات الشعرية الجاهلية التي تؤيد رأيه، ومما قاله كذلك: إن الشعراء استمدوا من هوي الدلو وسقوطها في البئر صوراً وصفوا بها سقوط الميت في القبر[3].

ويبدو أن هذه الحركة جاءت لتجسد إحساس الشاعر بعظم الفقد، كما أنها جسدت موقفه من السرعة التي قتل فيها مالك، والتي اتصفت بالذل والهوان .

وربط الشاعر الجاهلي بين حركة القمر وحركة الموجودات المحيطة به، إذ كانت الحيوانات والأشجار من العناصر المهمة التي يبرز من خلالها عنصر الحركة في صورة القمر الجاهلية، ولاسيما الصورة البصرية، يقول الدكتور نصرت عبد الرحمن: " إن أول ما نلحظه في

---

(1) صقر: **شاعرات العرب** ,ص55 .

(2) عنترة: **شرح الديوان** ,ص177.

(3) يُنظر: الديك, إحسان: **البئر بوابة العالم السفلي في الشعر الجاهلي**, مجلة دراسات الجامعة الأردنية, مج 36, 2009 \ 40.

الشكل الحسي للصورة الجاهلية هو الصورة البصرية، لأن أكثر الصور الجاهلية صور بصرية، وأبرز سمة للصورة البصرية هي الحركة"[1].

ولعل تركيز الشاعر الجاهلي على الصورة البصرية للقمر، يرجع إلى كون الصورة البصرية هي التي تميز القمر عن بقية الأشكال الحسية الأخرى، كالشمية والذوقية واللمسية والسمعية، من هنا لجأ الشاعر الجاهلي إلى بث الحياة في هذه الموجودات، وجعلها ممتلئة بالطاقات وقادرة على التعبير، من ذلك على سبيل المثال، قول عنترة متغزلاً : (البسيط)

كَأَنَّ الثُّرَيّا حِينَ لاحَتْ عَشِيَّةً   عَلى نَحْرِهَا مَنْظُومَةٌ بِالقَلائِــــدِ

مُنَعَّمَةُ الأَطْرَافِ خَوْدٌ كَأَنَّهَــا   هِلالٌ عَلَى غُصْنٍ مِنَ البَانِ مائِدِ [2]

من الملاحظ في هذه الصورة الحركية، أن الشاعر جعل حركة غصن البان المياد منسجمة ومتناغمة مع حركة القمر الخفيفة، وجعل هذا التناغم والانسجام الصورةَ مفعمةً بالحياة والحيوية، غنية بالدلالات والأبعاد الجمالية التي تنطوي على إحساس الشاعر بجمال المحبوبة وترفعها. لعلها تجسد شغف الشاعر بها بعدما صارت بعيدة المنال .

وتصور الخنساء القمر، وكأن دائرته الحركية تكاد تتغير عند موت أخيها, فتقول:

(مجزوء الكامل)

وَالشَّمْسُ كَاسِفَةٌ لِمَهْلَكِــــــهِ   وَمَا اتَّسَقَ القَمَرْ [3]

فهذا التغير السريع للقمر، يتناغم مع موت المرثي، في إشارة إلى أن حركة الكون قد تغيرت مع تغير حركة القمر. وهذا التغير المنسجم مع موت المرثي قد جعل الصورة غنية بالدلالات والإيحاءات التي تعبر عن إحساس الشاعرة بعظم الفقد .

فمن الواضح ــ في البيتين السابقين ــ أن الشاعرة جعلت حركة القمر غير منتظمة حداداً وانزعاجاً لموت المرثي، إذ جاءت بصورة صوتية توافقت مع صورة القمر الحركية،

---

[1] يُنظر: عبد الرحمن ,نصرت, **الصورة الفنية في الشعر الجاهلي**, ط1, عمان,مكتبة الأقصى, 1976, ص187.

[2] عنترة: **شرح الديوان**, ص73 .

[3] الخنساء وليلى الأخيلية: **ديوان الباكيتين**، ص289 .

لتخلق هذه الصورة جواً متميزاً يعبر عن حزن القمر، في جو من الصمت والسكون، إضافة إلى الموسيقى الحزينة التي أضفتها الشاعرة على الموقف .

وتبرز دائرة الحركة وتتسع عند الشاعر عنترة، لتشمل في مضـــمونها تشـــبيه المـــرأة بالبدر، فيقول: (الكامل)

وَبَدَتْ فَقُلْت البَدْرُ لَيْلَةَ تِمِّهِ قَدْ قَلَّدَتْهُ نُجُومَها الجَوْزاءُ (1)

ويظهر عنصر الحركة في هذا البيت، وقد ظهرت محبوبته كالبدر الواقف أمام الجوزاء وهي تهديه نجومها، حيث حشد الشاعر صورة بصرية توافقت مع الصورة الحركية، لتخلق إيقاعاً مميزاً يعبر عن فرح البدر بهذا التكريم، وليشيع جواً من السعادة يتجلى في ظهور البدر بأبهى صوره، لتتجلى من خلال ذلك عواطف الشاعر الكامنة في الأعماق تجاه محبوبته .

ويجعل لبيد بن أبي ربيعة من البدر عنصر حركة فاعلاً في رسم صورة تســلله إلـــى الديار التي خلت من النساء، مستثمراً حركة القمر البطيئة في وصف تسلله، لتتلاءم مـــع حالتـــه الشعورية المتعبة وهو يبكي رحيل محبوبته فيقول: (الطويل)

غَشيتُ دِيَارَ الحَيِّ بالسَّبُعــانِ كَما البَدْرُ فَالعَيْنَانِ تَبْتَــدِرانِ

مَنَازِلُ مِنْ بِيضِ الخُدُودِ كَأَنَّهَا نِعَاجُ المَلا مِنْ مُعْصِرٍ وَعَوَانِ (2)

يبدو أن عنصر الحركة الذي يبرز في الصورة من خلال اللفظ المشتق من الحركة (غشيت) هو الذي يخلق إيقاعاً مميزاً يعبر عن حزن الشاعر على الفراق .

ولعل هذه الحركة تجسد إحساسه بالخطر الذي يدنو منه، فقد يفتضح أمره في أية لحظة، كما أنها تعكس إعجابه بجماله المميز أمام صاحبته، بما تحمله عبارة (كما البدر) من معاني الجمال والنور. ولعلها رغبته في المغامرة من أجل رؤية النساء (معصر وعوان) قبل رحيلهن والبكاء على أطلالهن، على الرغم من المخاطر المحدقة به.

وهكذا، فإن عنصر الحركة الذي يبثه الشاعر الجاهلي في صورة القمر، أعطاها فاعلية وحيوية، أدت إلى إشاعة الحياة فيه، وجعل صورته ذات قدرة على استثارة الخيال، وتجسيد

---

(1) عنترة: **شرح الديوان**, ص 168 .

(2) لبيد: **الديوان**, ص266. (المعصر: الفتاة التي بلغت عصر شبابها وأدركت. العوان: التي كان لها زوج, أو الثيِّب).

المعاني التي تنطوي على دلالات الحياة، فغدت الحركة المقترنة بالقمر " عنصراً من عناصر الصورة الناجحة لأنها تضيف بعداً زمنياً، فهناك فرق كبير بين ماء راكد هادئ وبين شلال من الحياة المتدفقة"[(1)].

وخلاصة القول: فإن صورة القمر في أشعار الجاهليين تعددت وتنوعت دون أن تخرج عن طبيعة القصيدة الجاهلية ونطاقها. فالشاعر الجاهلي يرسم صورة القمر من خلال عناصر الطبيعة المحيطة، وواقع حياته اليومية والبيئة، ويجعل القمر مصدراً لكثير من الصور الشعرية، والتي تتضح من خلال وسائل رسم الصورة، حيث تزيد من فاعليتها وقدرتها على الكشف، بما تنطوي عليه من دلالات حملت مكنونات الشاعر النفسية وأحاسيسه الداخلية .

[(1)] يُنظر: فهمي, ماهر حسن: **قضايا في الأدب والنقد**, ط1, الدوحة, دار الثقافة, 1986, ص17 .

المبحث الثاني

أبعاد صورة القمر ودلالاتها في الشعر الجاهلي

ما زال الشعر الجاهلي ــ هذا الصرح العظيم ــ وثيقة حية يستقي منها دارس الأدب الكثير مما كان يسود المجتمع الجاهلي من عادات وتقاليد وقيم وشعائر ومعتقدات، من هنا شكل عنصر القمر مجالاً واسعاً للبحث والدراسة .

والصورة الشعرية وما تحمله من أبعاد مختلفة، تكشف بجلاء عن الواقع الذي كان يعيشه الإنسان الجاهلي، بما يحمله من أبعاد دينية ونفسية واجتماعية .

من هنا يمكن القول " إن الصورة الشعرية تعطي النص أبعاداً داخلية متعددة لا بعداً واحداً، فقد نجد لأول وهلة بعداً قريباً، ولكن بعد التأمل المستمر نرى أنها تحمل أبعاداً خلفية أخرى، وكلما ازداد التأمل ظهرت هذه الأبعاد أكثر فأكثر، وهذه الأبعاد لا تأتي إلا إذا كانت الصورة بألفاظها وتركيبها وعاطفتها قادرة على الإيحاء بهذا البعد أو الأبعاد " [1].

وفي حديث الشاعر الجاهلي عن القمر وتصويره، نجد أبعادا كامنة، لا تتضح لنا للوهلة الأولى بمجرد النظر، لأن صورة القمرــ بكل ما تنطوي عليه من أبعاد ــ عكست إحساس الشاعر الديني والنفسي والاجتماعي، والتي لا تتضح إلا من خلال التحليل العميق لهذه الصورة. " فالعلاقات الظاهرية أمامنا قد وضعها الشاعر بطريقة لا شعورية لكي يعبر عما في نفسه من أسرار ودخائل، وعلينا نحن أن نكتشفها " [2].

وسأحاول في هذا المبحث تحليل أبعاد صورة القمر في الشعر الجاهلي، وتوضيح دلالاتها في السياق الذي وردت فيه، وذلك من خلال تحديد الأبعاد ومن ثم توضيح ما تحمله من دلالات. وهي كما يلي:

1-البعد الديني:

من خلال تتبعنا صورة القمر في أشعار الجاهليين، يمكن أن نلحظ قدراً كبيراً من الإشارات الأسطورية والدينية التي تبرز عنصراً مهماً من عناصر الصورة، ولأن الأساطير

---

(1) الشوري: **الشعر الجاهلي تفسير أسطوري**, ص85, 86 .

(2) المرجع السابق, ص86 .

والخرافات تشكل جانباً مهماً من المعتقدات الدينية الجاهلية، فقد صارت مكوناً أساسياً للصورة الشعرية عند شعراء الجاهلية، بحيث ترجع أكثر هذه الصور إلى أصول ميثولوجية موغلة في القدم .

ويكشف الشاعر الجاهلي من خلال صورة القمر في التراث الجاهلي عن الكثير من القضايا الفكرية والدينية التي كانت شائعة في هذا المجتمع، إذ أصبحت النظرة إليه كإله من المكونات الأساسية للصورة الشعرية عند الشعراء الجاهليين.

وقد ارتبط القمر في العقلية الجاهلية ببعض ما ترسب في أذهانهم من معتقدات دينية وميثولوجية، أفرزتها الأفكار البدائية حول الكون والحياة والموت والكائنات، والذي انعكس في أشعارهم, وبخاصة ارتباط القمر بالملك والرجل المثال, يقول الدكتور علي البطل:" أما ارتباط الرجل المثال بالقمر, فهو شكل من أشكال التقديس التي يخلعها الذهن البدائي على العظماء, ولقد عُبدت الملوك والأبطال في الديانات القديمة نتيجة وعهم المتميز في المجتمع" [1]

وإذا نظرنا إلى صورة القمر في الشعر الجاهلي، التي تعدّ امتداداً لصورته في التراث العالمي، نجدها قد خرجت من إطارها المادي كعنصر من عناصر الطبيعة، لتدنو من صورة الإله المعبود، يقول الأعشى معبراً عن قدسية القمر وعبادته: (المتقارب)

فَلَمَّا أَتَانَا بُعَيْدَ الكَرَى سَجَدْنَا لَهُ وَرَفَعنا عَمَارَا [2]

لعل البيت السابق جاء تأكيداً على انتشار عبادة الملك المرتبط بالقمر عند الجاهليين، الأمر الذي يجعل من القمر إلهاً بارزاً في أثناء دراستنا للأبعاد الدينية لصورته في العصر الجاهلي .

كما نلاحظ أن هذه الصورة مليئة بالحركة التي تدلل على عبادة الملك المرتبطة بالإله القمر, فالناس يسجدون للملك ويرفعون العمامة لأنهم بين يديه,ففي السجود ورفع العمامة حركة تعبد, إلا يدلل ذلك على أن القمر والملك نظراء في الألوهية, ثم متى يكون هذا السجود للقمر؟ لا بد أن يكون ليلا, وهي من دلالات القدسية أيضا.

---

[1] البطل: **الصورة في الشعر العربي**, ص183.

[2] الأعشى: **شرح الديوان**, ص85. (عمارا: العمائم) .

ويقودنا بيت الأعشى إلى قضية مهمة في دراستنا للبعد الديني في صورة القمر، وهي الربط بين القمر والملك، والنظر إليهما كإلهين، كما أنه جمع بينهما في المكانة الاجتماعية والدينية، بما يحمله كل منهما من دلالات وأبعاد أسطورية، تجسد معاني الشمول الأرضي والسماوي، يقول الدكتور إبراهيم عبد الرحمن: " إن سبب ذلك يعود إلى أن الشعراء الجاهليين أخذوا يبحثون عن رموز صورهم من خلال ردها إلى أصولها الميثولوجية التي صدرت عنها، سواءً في صورها الحقيقية أو في الصور التي استحالت إليها على يديّ هذا الشاعر أو ذاك"[1].

ولعل من الإشارات الدينية التي ارتبطت بصورة القمر في أشعارهم والتي تجسد تلك العلاقة بين القمر والملك، ما ورد في مدح الأعشى لإياس بن قبيصة الطائي: (الوافر)

مُنِيرٌ يَحْسُرُ الغَمَرَاتِ عَنْهُ وَيَجلُو ضَوْءُ غُرَّتِهِ الظَّلامَا [2]

نجد أن الأعشى في هذا البيت قد أحلّ الملك محل البدر في قدرته على إجلاء الظلام، في صورة دينية حية يملؤها الطهر والنقاء، [3] " فهو منير, يجلو ضوء غرته الظلام لأنه بديل عن الإله القمر" فضلا عن النور الإلهي المتمثل بالضوء، وفي هذا تقديس وتأليه. فهل من شيء قادر على إجلاء الظلام إلا البدر المتمثل بالملك .

مثل الملك للشاعر والقبيلة الجاهلية رمزاً من رموز القمر المعبود، حيث جسده الشاعر الجاهلي باعتباره نظيرا مقدساً يحمل صفات الرب الذكري (القمر)، كما أنه سعى إلى ترسيخ هذه الرموز في الذهن الجاهلي، من خلال صورة ميثولوجية، محاكياً رمزيتها في نماذج متألقة ضربت في أعماق عصره، مكرساً معاني الإله الأب .

وكثيرة هي الصور التي يشبه فيها الملك بالقمر في أشعار الجاهليين، والتي تحمل بين طياتها الكثير من الأبعاد الدينية الموغلة في القدم، والتي جسدتها تلك الرغبة الملحة عند الإنسان الجاهلي في إيجاد نظير أرضي للإله القمر السماوي.

---

[1] عبد الرحمن: **التفسير الأسطوري للشعر الجاهلي**, ص134 .

[2] الأعشى: **شرح الديوان**, ص195. (الغمرات: الشدائد.

[3] البطل: **الصورة في الشعر العربي**, ص189.

يقول الدكتور مصطفى عبد الشافي الشوري " كان الملوك يُقَدَّسون في كثير من الأحيان، ليس فقط بصفتهم رجال دين أو كهنة، أو كوسطاء بين العبد والرب، بل أيضاً باعتبارهم هم أنفسهم آلهة أو أرباباً قادرين على أن يمنحوا أتباعهم تلك البركات التي كان يظن أنها تجاوز طاقة البشر الفانين[1] " .

فالقمر يتميز عن غيره من المعبودات بأفعاله وقدراته وسيطرته، باعتباره أباً في أسـرة الآلهة الكوكبية، والملك رب مقرون به في القداسة والتعظيم، كما يتميز عن الآخـرين بأفعالـه وقدراته التي لا يجاريه فيها احد, ونتيجة لهذا عُبدت الملوك وورد في الشعر الجاهلي ما يـدلل على هذا, على نحو ما نرى في قول الأعشى يمدح الأسود بن المنذر اللخمي: (الخفيف)

أَرْيَحِيٌّ صَلْتٌ يَظَلُّ لَهُ القَوْ مُ رُكُوداً قِيَامَهُمْ لِلْهِلالِ [2]

وقول الخنساء : (الخفيف)

مَلِكٌ مَاجِدٌ يَقُومُ بِهِ النَّا سُ جَمِيعاً قِيَامَهُمْ لِلْهِلالِ [3]

يتضح لنا من خلال بيتي الأعشى والخنساء، أن صورة القمر الإله وصورة الملك قد جاءتا متناغمتين في إيقاع ديني، محاط بهالة من التقديس والتعظيم، والتي تدلل على قدسية هذا الترابط الأرضي السماوي. فهذه الصورة " تنصبّ على علاقة الناس بالممدوح, وعلاقتهم بالقمر المعبود. فنجد أن نوع العلاقة واحد في الحالين, فالقوم هنا يظلون ركودا في خشوع وسكون للممدوح وكأنهم في صلاة ورعة للإله القمر"[4], ولولا ذلك, فلم يقوم الناس للهلال إذن؟ كما أن القمر باعتباره معبودا بارزا عند الجاهليين، عمل على إثراء الصورة وتفجير طاقاتها الإيحائية عبر توظيف رموزها المستمدة من الميثولوجيا الدينية عندهم .

---

(1) الشوري: **الشعر الجاهلي تفسير أسطوري**, ص69 .

(2) الأعشى: **شرح الديوان**، ص26 .

(3) الخنساء: **الديوان**، شرح: ثعلب، أبو العباس أحمد بن يحيى بن سيار الشيباني، تحقيق: أنور أبو سـويلم، ط1، عمـان، دار عمار، 1988، ص346 .

(4) البطل: **الصورة في الشعر العربي**, ص184.

فالملك هنا هو القمر، ووقوفهم بين يديه يتناغم تماما مع وقوفهم بين يدي القمر ساجدين متعبدين، فالركود والقيام لا يتمان إلا بين يدي إله مقدس، يحمل جذوراً أسطورية تتعلق بعقائد قديمة ترتبط بالقمر في فكر الشاعر الجاهلي .

وقد حملت هذه الإشارات الدينية المترابطةـ في البيتين ـ دلالات رمزية توحي بعبادة القمر وتقديسه، جسدت معاني الطاعة والخشوع القابعة في أعماق الشاعر الجاهلي تجاه القمر والملك على حدّ سواء ,فكان القمر رمزا للإله المعبود الذي يقوم الملك بدوره.

ومن الملاحظ خلال البيتين السابقين ـ أيضاً ـ أن الشاعرين اتجها إلى رسم صورة مليئة بالإيحاءات الدينية، مستخدمين عبارات تدلل على ذلك (ركوداً، يقوم، قيامهم)، مما يؤصل هذا المعتقد الديني، والذي خلق الشاعران من خلاله جواً فنياً وصورة دينية، حيث وصفا قيام الناس للملك بقيامهم للهلال الإله .

لننظر كيف تتكرر صورة تشبيه الملك بالهلال عند الشاعر نفسه، في مدحه للملك هوذة بن علي الحنفي، فيقول: (المتقارب)

إِلَى مَلِكٍ كَهِلالِ السَّمَـا ء أَزْكَى وَفَاءً وَمَجْداً وَخَيـــرا

طَوِيلُ النِّجَادِ رَفِيعُ العِمَا د يَحْمِي المُضَافَ وَيُعْطِي الفَقِيرَا[1]

فالأعشى يصور الملك تصويراً فنياً مبدعاً أساسه القمر فهو يرى أن صورة الملك كصورة الهلال قي السماء، الذي يعد علامة للألوهية، فهو يعتمد على ما تحمله عبارات الوفاء والمجد والخير من معان ودلالات دينية عميقة لإبراز صفات الملك، فتجسد رؤية الشاعر الدينية التي تجمع صفات الألوهية بين الملك والهلال الإله، كما أنها تعمق الإحساس عند الشاعر بحاجتة الملحة للإله والتي تتمثل في الدفاع عنه والتقرب منه .

وتشبيه الملك بالقمر ـ في الأبيات السابقة ـ " لا يقصد منه مجرد التشبيه أو التعبير عن رفعة الشأن أو وضاءة الوجه وما إلى ذلك، بل هو امتداد وتأثر بالنظرة الدينية التي كانت تربط الملوك وزعماء القبائل بالأرباب[2]، فالشعر حين يوظف النظرة الدينية " تنفلت القصيدة من

---

[1] الأعشى: **شرح الديوان**, ص26.

[2] البطل: **الصورة في الشعر العربي**, ص184.

أهم مساوئها التقريرية والتسجيلية والأيديولوجية المباشرة، ويصبح الواقع شبكة من الرؤى الرمزية المتعددة الأبعاد والموغلة في أعماق النفس البشرية"[1] .

يقول الدكتور نصرت عبد الرحمن: " قد بات من سقط المتاع القول بأن وظيفة التشبيه في الشعر الجاهلي هي التزيين أو التوضيح، فما الشاعر طاهيا يريد أن يزيّن ما يطهو كي يلذ للناس التقامه، وما هو بمعلم يفترض في تلاميذه الغباء فيسعى إلى إيضاح، ولكن التشبيه يضرب في أعماق الوجود الإنساني الذي يسعى إلى اقتناص الحقيقة. والمشبه والمشبه به إذا ما كثر ترادادهما يدلان على علاقة رمزية أبعد من العلاقة الظاهرية بين الطرفين[2] .

وكثر تشبيه الممدوح والمرثي بالقمر كثيراً في أشعار الجاهليين، وحمله هذا التشبيه بين طياته أبعاداً دينيةً وأسطورية، تصور ما كانوا يعتقدونه تجاه القمر، ومن ذلك على سبيل المثال، قول كعب بن زهير في المدح: (الطويل)

فَتَىً لَمْ يَدَعْ رُشْدَاً ولَمْ يَأْتِ مُنْكَرَاً ... ولَمْ يَدْرِ مِنْ فَرْطِ السَّمَاحَةِ مَا البُخْلُ

بِهِ أَنْجَبَتْ لِلْبَدْرِ شَمْسٌ مُنِيرَةٌ ... مُبَارَكَةٌ يَنْمِي بِهَا الفَرْعُ وَالأَصْلُ[3]

فالشاعر يصور الممدوح بالكرم وعلو المكانة، اللتين تفهمان ضمنا من خلال تشبيه أبيه بالبدر وأمه بالشمس، بكل ما تحمله هذه الصور من أبعاد دينية مترسخة في ذهن الشاعر تجاه الثالوث الكوكبي.

ففي هذه الصورة تتكشف بجلاء عبادة القمر الأب,فقد عدّه الشاعر أباً, ومن المعرف أن الجاهليين عبدوا الإله القمر باعتباره أباً في الثالوث الكوكبي, وهي معتقدات ظلت مفرزاتها تظهر في الشعر الجاهلي, كما ورود كلمة (مباركة),لخير دليل على الإشارات القدسية في هذا البيت.

---

[1] بوعزة, محمد: **الأسطورة والشعر**, مجلة العربي, عدد411, الكويت, 1993 \ 63.

[2] نصرت: **الصورة الفنية في الشعر الجاهلي**, ص110.

[3] كعب بن زهير: **الديوان**, ص80.

ولعل صورة القمر ــ في هذين البيتين ــ وما يحمله من بعد ديني، تعكس النظرة الأبوية التي كانت مترسخة في ذهن الشاعر تجاه القمر، وتجسد رغبته الملحة في الرفع من مكانة ممدوحه من خلال ربطه بهذا الإله المقدس.

ويبالغ زهير بن أبي سلمى في وصف ممدوحه هرم بن سنان، فوصل الأمر بـه إلـى وضعه ــ لو لم يكن من البشر ــ مكان البدر (الإله) لينير الأرض، في صورة تحمل بين طياتها أبعاداً ومعانيَ دينية، أبرزت مدى إعجاب الشاعر بالممدوح، فيقول: (الكامل)

لَوْ كُنْتَ مِنْ شَيْءٍ سِوَى بَشَــرٍ كُنْتَ المُنَوِّرَ لَيْلَةَ البَدْرِ [1]

يعمد زهير إلى تشبيه ممدوحه بالبدر المضيء، وفي هذه الصفة تركيز على إبراز جانب الألوهية، " فلو قُدِّر لممدوحه أن يكون شيئا غير بشريّ لكان الإله القمر"[2], فأي رجل يتحدث عنه زهير ؟ إنه الأب المعبود القمر الذي يبدد الظلام مهما اشتد .

ففي هذه الصورة الجمالية يؤكد الشاعر قدسية الممدوح، الذي استشف هذه القيمة من خلال تصويره بالكوكب المقدس (القمر)، حيث يركز الشاعر على معاني الإشراق والنور للقمر من خلال كلمة (المنور)، ويربطها بالممدوح .وهذا يوحي بأن الشاعر قد وضع ممدوحه في صورة تختلف عن صورة البشر, فهو يرفع من قدره ليجعله منزّها من أن يكون عاديا.

أما الأعشى فيشبه ممدوحه بالبدر، في صورة مليئة بالتقديس والإجلال والرفعة والسمو، فيقول : (مجزوء الكامل)

مُتَحَلِّبِ الكَفَيْنِ مِثْــ ـلِ البَدْرِ قَوَّالٍ وَفَاعِلْ [3]

فالشاعر في هذا البيت يقرن بين الممدوح والبدر في الكرم وتحقيق المطالب، في صورة حبلى بالرموز الدينية والأسطورية، فالممدوح هنا يشبه البدر(الإله) في القدرة على الوفاء بما يتعهد به.

---

(1) زهير: **شرح الديوان**, ص82 .

(2) البطل: **الصورة في الشعر العربي**, ص185.

(3) الأعشى: **شرح الديوان**, ص143.

وقد لجأ الشاعر في هذا البيت إلى المساواة بين الرجل وبين القمر، فالرجل هو كالقمر نفسه، له نفس المكانة الدينية والقدسية، عطاؤه كعطاء الإله القمر .

كما أن الشاعر لم يلجأ إلى تقديم صورة جامدة، بل رسمها من خلال تقديم صورة حية، تحمل بين طياتها صفات رجل مثالي حظي بالتقديس، وحمل وظيفة الإله الأب واهب الخير والعطاء .

لعل هذا الربط بين هذا الإله والممدوح، يحمل أبعادا رمزية تزيد من الطاقات الإيحائيــة للصورة، وتجسد الموقف المحاط بالقدسية الذي كان عليه الشاعر أثناء وقوفه بين يدي الممدوح.

ومن الإشارات الدينية التي ارتبطت ــ أيضا ــ بصورة القمر في أشــعار الجــاهليين، ظاهرة الخسوف، تلك الظاهرة التي ارتبطت في أذهانهم بالموت والفقد، على نحو ما نرى فــي قول عنترة حين وصف ما صاحب موت الملك زهير بن جذيمة: (الخفيف)

خُسِفَ البَدْرُ حِينَ كَانَ تَمَامَا وَخَفَى نُورُهُ فَصَارَ ظَلاَمَا [1]

وقول الشاعر أوس بن حجر يرثي صاحبه فضالة: (المتقارب)

أَلَمْ تُكْسَفِ الشَّمْسُ والبَدْرُ وَالــ كَوَاكِبُ للجَبَلِ الوَاجِــــــب
لِفَقْدِ فَضَالَةَ لا تَسْتَوِي الـــــ فُقُودُ وَلاَ خَلَّةُ الذَّاهِــــــب[2]

فالشاعران في هذه الأبيات يقرنان بين موت المرثي وخسوف القمر، بما تحمله هذه الصورة من أبعاد ودلالات دينية تحمل بين طياتها ذلك التناغم الواضح بين الموت والخسوف. كما أن الشاعرين أحاطا هذه الصورة بإطار أسطوري ديني، يصور ما كانا يتخيلانه، وترسب في الأذهان من ارتباط بين خسوف القمر والموت .

فالقمر(الإله) لا يمكن أن ينخسف إلا لرجل مقدس مثله، فكأن المرثي هنا الإله القمر على الأرض، الذي يعم نوره وضياؤه الكون، وبموته يحل الظلام والخراب .

ولعل لمكانة المرثي في حياة الشاعر وشدة حاجتهم إليه، علاقة بهذا الربط النفسي والديني بين الخسوف وموت المرثي، من حيث الفقد والشعور بالفراغ .

---

[1] عنترة: **شرح الديوان**, ص166.

[2] أوس بن حجر: **الديوان**, ص10.

ويزخر الشعر الجاهلي بالصور ذات الأبعاد الدينية التي تربط بين القمر والمرأة، والتي ارتبطت بدورها " بنوع من العبادة الغامضة التي ترمز إلى تقديس الخصوبة والنماء "[1] .

من هنا ارتبطت صورة المرأة المثال عند الشعراء الجاهليين ــ إلى جانب الشمس ــ بالقمر الذي أضفى عليها نوعاً من العبادة والتقديس، واقترنت بعض هذه الصور برموز الخصب كالشجرة مثلاً ، على نحو ما نرى في قول عنترة : (الكامل)

مُنَعَّمَةُ الأَطْرَافِ خَوْدٌ كَأَنَّهَا   هِلالٌ عَلَى غُصْنٍ مِنَ البَانِ مائِدِ [2]

وقول ابن إسرائيل : (الطويل)

تَخْتَالُ بَيْنَ البَدْرِ مِنْهَا وَالنَّقَا   غُصْنٌ يَمِيسُ بِهِ النَّعِيمُ مُهَفْهَفُ [3]

فقد برز القمر في ــ هاتين الصورتين ــ عنصراً محاطاً بهالة من التقديس، أكسبته بعداً دينياً خاصاً، وبخاصة في ارتباطه بأحد الرموز المقدسة، وهي الشجرة. والقمر من المعبودات الجاهلية المعروفة التي شبهت به المرأة، والذي أكسبها هذه القداسة، وأحلها هذا المقام المتميز . فكيف يقدر" الوثني على تشبيه المرأة بما يعبد إن لم يكن للمرأة الموجودة في شعره شيء من القداسة [4].

ولعل خير دليل على تقديس المرأة وربط صورتها بصورة القمر في العصر الجاهلي، قول عبد الله بن العجلان النهدي، في زوجته : (المنسرح)

قَدْ طَالَ شَوْقِي وَعَادَنِي طَرَبِي   مِنْ ذِكْرِ خَوْدٍ كَرِيمَةِ الحَسَبِ

غَرَّاءُ مِثْلُ الهِلالِ صُورَتُهـــا   أَوْ مِثْلُ تِمْثَالِ صُورَةِ الرَّهَبِ [5]

تبدو صورة الشاعر صورة مميزة، تجمع فيها الكثير من العناصر الدينية التي ارتبطت بالمرأة المثال. فيصف صورتها بالإشراق والبهاء الجمالي الوضاء من خلال تشبيهها بصورة الهلال أو صورة التمثال المقدس، ليدلل من خلال هذه الصور الدينية على قدسية المرأة .

---

[1] الشوري: **الشعر الجاهلي تفسير أسطوري**, ص 70 .

[2] عنترة: **شرح الديوان**, ص73 .

[3] مقداد: **شعر يهود في الجاهلية وصدر الإسلام**, ص395.

[4] نصرت: **الصورة الفنية في الشعر الجاهلي**, ص111 .

[5] الأصفهاني: **الأغاني**, ج22, ص 236 .

وتركيز الشاعر على صور الإشراق الأنثوي المميز وربطه بهذه الرموز المقدسة ــ اللون الأبيض، الهلال، والتمثال ــ يحمل بين طياته معانيَ ودلالات دينية راسخة في القدم، "فالقمر كان ينظر إليه، على أنه أنثى كونية عظمى، وكان هو ذاته الأم الكبرى والدة الكون والأرض الخصبة، وقد ظهرت بتجليها الجديد: القمر، والذي يتصل بعلاقة مباشرة مع عشتار (ملكة السماء) التي حظيت بعدة ألقاب دللت على علاقتها بالقمر، كعابرة السماوات والساطعة والمنيرة [(1)].

كما يتضح لنا من خلال البيتين السابقين أن ابن العجلان يعمل على رسم تمثال لمحبوبته بصورة مليئة بالجمال والقدسية، فهو يركز على كامل جسمها، ويربطه مباشرة بالهلال الذي يشبه جسم المحبوبة، فيعمد إلى مقاربة جسمها بجسم الإله القمر، هذا إلى جانب لجوئه إلى تشبيهها بنظائر مقدسة للهلال، كاللون الأبيض المقدس المرتبط بالهلال. ولعل هذه الصورة ذات الأبعاد الدينية المتأصلة في ذهن الشاعر تشي برغبته الملحة في إبراز صورة حية ذات صفات مثالية لامرأة حظيت بالتقديس والإجلال، فلا يقوى الشاعر الجاهلي على تشبيه محبوبته بالقمر، "إن لم يكن ذكرها في شعره ــ على غير ما يبدو في ظاهرهاــ ذات صفة قدسية عنده"**[(2)]**.

ويصف النابغة الجعدي جمال محبوبته وشدة نورها وبياضها بالليلة القمراء، بما تحملــه الليلة القمراء من دلالات دينية، ترسخت في ذهن الشاعر، مستمداً لها صفات الرفعــة والعلــو والإشراق والبهاء التي تتصف بها الليلة القمراء، فيقول: (المنسرح)

غَرَّاءُ كَاللَّيْلَةِ المُبَارَكَةِ القَمْـــــــــ رَاءِ تَهْدِي أَوَائِلَ الظُّلَمِ [(3)]

ففي هذه الصورة نجد الكثير من الرموز الدينية والأسطورية، المرتبطة بالقمر، فالمحبوبة هنا في قوله (غراء)، ترتبط ببياض البدر، لها تأثير قوي على من حولها، وهذا يدلل على الصفات التي تقربها من الآلهة، فاللون الأبيض المقدس، رمز الطهارة والنقاء، بما تحمله عبارة (المباركة) من دلالات العبادة والتقديس، حيث يرجع بعض الباحثين بياض المرأة إلى

---

(1) يُنظر: السواح: **لغز عشتار**, ص64 .

(2) نصرت: **الصورة الفنية في الشعر الجاهلي**, ص109.

(3) النابغة الجعدي, **شعره**, ص151

بياض الزهرة والشمس والدمى، وجميعها مما عبده العرب، وقد حيكت حولها الأساطير[1]، كما أن الليلة القمراء ــ التي يكون فيها البدر بكامل نوره ــ ارتبط جمال صورتها بجمال صورة المحبوبة، وأحيطت بهالة من التقديس والتعظيم عند القدماء، فهم يعتقدون " أن بركة القمر وخصائصه الإيجابية إنما تكمن في طوره المتزايد، طور اكتمال النور، لذلك كانوا يشرعون في كل عمل يريدون له نجاحاً خلال هذه الفترة. فإذا ابتدأ القمر بالتناقص كان ذلك نذيراً لكل سوء محتمل، فكانوا يقلعون عن كل عمل يريدون له فلاحاً [2].

ولعل استحضار الشاعر الليلة القمراء، يشي برغبته الملحة في تصوير محبوبته بالمرأة المثال في تميزها، والتي تجسدت في القدسية الكبيرة التي كان تحظى بها هذه الليلة .

ولا يقتصر استخدام القمر عند الشعراء الجاهليين للتدليل على مكانة المحبوبة، بل صور بعض الشعراء الرجل القدير ذا المكانة العالية في قومه بالقمر ونظائره المقدسة، في إشارة إلى منزلته الرفيعة المميزة، على نحو ما نرى في قول الخنساء تصف أخاها باللون الأزهر، الذي هو لون الزهرة، واللون المقدس عند العرب، وربطته بالقمر، فتقول: (البسيط)

قَدْ كَانَ حِصْناً شَدِيدَ الرُّكْنِ مُمْتَنِعاً   لَيْثاً إِذا نَزَلَ الفِتْيانُ أَوْ رَكِبُوا

أَغَرُّ أَزْهَرُ مِثْلُ البَدْرِ صُورَتُهُ   صَافٍ عَتِيقٌ فَما في وَجْهِهِ نُدَبُ [3]

لقد أرادت الشاعرة أن تمجد أخاها وتبين علو مكانته ورفعته، مستمدة هذه الصورة من صور البدر بما فيها من صفات الرفعة والعلو والبهاء الذي يتصف به البدر، كما أنها لجأت إلى تشبيهه بنظائر مقدسة للبدر، كاللون الأزهر، وذلك لما له من علاقة قوية وصلة دينية به، يقول فراس السواح " ارتبط كوكب الزهرة عند العرب بالأم القمرية الكبرى، وكانوا يعبدونه لدى ظهوره ويسمونه العزى "[4].

---

[1] يُنظر: الديك إحسان, **الهامة والصدى, صدى الروح في الشعر الجاهلي** ,مجلة النجاح للأبحاث \ العلوم الإنسانية,جامعة النجاح الوطنية, ع15, 2001 \ ص160ــ 152,163 ــ 154 .

[2] يُنظر: السواح: **لغز عشتار**, ص85 ,86.

[3] الخنساء وليلى الأخيلية: **ديوان الباكيتين**, ص 91 .

[4] السواح: **لغز عشتار**, ص99 .

ويتحدث الأعشى عن ممدوحه علقمة بن علاثة، واصفاً وضوح أعماله الحسنة بوضوح القمر في وسط السماء ساطعاً منيراً، والذي لا يستطيع أحد أن ينكره، فالسيد يرمز إلـى نـور القمر الإله، فيقول: (المتقارب)

وَإِنْ فَحَصَ النَّاسُ عَنْ سَيِّدٍ   فَسَيِّدُكُمْ عَنْهُ لاَ يُفْحَصُ

فَهَلْ تُنْكَرُ الشَّمْسُ فِي ضَوئِهَا   أَوْ القَمَرُ البَاهِرُ المُبْرِصُ[1]

ويتضح في أبيات الأعشى، أن صورة الممدوح تنسجم مع صورة القمر الإله، فالرفعة والعلو والبهاء صفات لا تليق إلا بإله .

وارتبط القمر بالثور الوحشي في فكر الجاهليين، حيث"كانت عبادة الثور تجسيداً أرضياً لعبادة القمر السماوي"[2] .

وكان ثور الوحش يمثل في فكرهم، ذلك الحيوان الأسطوري الذي يصارع الظلام ويمارس فعلاً طقسياً، يشترك فيها القمر مع عناصر الطبيعة، والتي تتعلق بجذور أسطورية وعقائد قديمة ترتبط بالقمر في فكر الجاهليين، كما أسلفنا في الفصل الأول .

وقد وظف الشعراء الجاهليون هذا الترابط توظيفاً أسطورياً، يغني الصورة بالدلالات والأبعاد الدينية التي تجسد تلك العلاقة، على نحو ما نرى في قول أمية الهذلي: (المتقارب)

هَجَنُ السُّرَاةِ تَرَى لَوْنَهُ   كَقِبْطِيَّةِ الصَّوْنِ بَعْدَ الصِّقَالِ

حَدِيدُ القَنَاتَيْنِ عَبْلُ الشَّوَى   لَهَّاقٌ تَلأْلُؤُهُ كَالهِلالِ[3]

من الملاحظ في هذين البيتين، ظهور الثور الوحشي الأبيض مرتبطاً بصورة الهلال ليشكلا رمزاً دينياً حياً، وبعداً ميثولوجياً راسخاً في فكر الجاهليين، في إشارة إلى العلاقة القدسية التي جمعت بينهما، لأن العرب القدماء ربطوا بين الثور الوحشي والقمر، فصار" الثور رمزاً ممثلاً للإله القمر؛ حيث وجدت في معابده صور للثور قدمها عابدوه قرابين للإله أو نذوراً

---

[1] الأعشى: **شرح الديوان**, ص48.

[2] الشوري: **الشعر الجاهلي تفسير أسطوري**, ص120 .

[3] الهذليون: **الديوان** , ج2, ص176.

كانت عليهم له، ولقد عرف القمر باسم ثور[1]، ذلك فضلاً عن وجه الشبه الذي يجمع بين قرني الثور والهلال، وهذا ما سبق لنا الحديث عنه بإسهاب في الفصل الأول .

كما أن ظهور اللون الأبيض ــ كلون مقدس ــ أكسب الصورة بعداً دينياً أكبر، وحمل بين طياته الكثير من الدلالات والأبعاد الرمزية التي زادت من الطاقات الإيحائية للصورة، "فغالباً ما يكون الثور الوحشي في أشعار الجاهليين أبيض اللون[2]، وهو اللون المقدس المرتبط بالهلال، والذي يبدو في هذه الصورة وكأنه من الشروط الأساسية التي يجب توافرها في هذا الثور المقدس لتتم له القداسة .

ولعل تشبيه الثور بالهلال ــ هنا ــ يجسد نظرة الشاعر للثور كحيوان مقدس، مما يشي برغبته الملحة في إظهاره وكأنه خالد كخلود الإله القمر .

ومن الصور التي تحمل أبعاداً دينية في أشعارهم ارتباط الهلال بقرون الثور، لما تحمله هذه الصورة من علاقة مشابهة بين قرني الثور والهلال، على نحو ما نرى في قول النابغة الجعدي: **(الطويل)**

وَوَجْهاً كَبُرْقُوعِ الفَتَاةِ مُلَمَّعاً وَرَوْقَيْنِ لَمَّا يَعْدُوَا أَنْ تَقَمَّرَا [3]

فصورة القرون المرتبطة بالقمر تدل دلالة واضحة على ما وصل إليه الثور ذو القرون من تقديس، وبخاصة من خلال ارتباطه الوثيق بالهلال، ويكمن ذلك ــ كما يقول الدكتور إحسان الديك ــ في " العلاقة القديمة بين القمر والقرنين، حيث شبه نمو القرنين واستدارتهما بنمو القمر واستدارته في طور الهلال"[4].

وارتبطت صورة القمر ــ في فكر الشاعر الجاهلي ــ ببعض ما ترسب في ذهنه من معتقدات وأساطير وخرافات أفرزها عقله البدائي حول قدرة القمر على القيام بالأعمال الخارقة، حيث انعكس هذا البعد الديني على صورة الرجل المثال المرتبط بالقمر في أشعارهم، على نحو ما نرى في قول الشاعر المساور بن هند يفخر بنفسه، حيث يربط قدرته بقدرة القمر، وكأنه

---

(1) جواد: **المفصل**,ج6, ص 50.

(2) الشوري: **الشعر الجاهلي تفسير أسطوري**, ص112 .

(3) النابغة الجعدي: **شعره**, ص41. (برقوع: **ثوب تلبسه نساء الأعراب**. روقين: مفرده روْق, وهو قرن الثور) .

(4) الديك: **الوعل صدى تموز في الشعر الجاهلي**, ص37 .

رجل مثال يكتسب شكلا من أشكال التقديس، ويتمثل ذلك من خلال مشـــابهته بـــين صـــورته وصورة القمر (الإله)، فيقول: (الرجز)

أَنَا لِمَنْ أَنْكَرَ شَأْنِيَ القَمَـــــرْ

أَخْتِنُ مَنْ شِئْتُ وَمَنْ شِئْتُ أَذَرْ (1)

فهو يطلق التشبيه على نواح نفسية لا حسية، القدرة على الختان، وهي صـــفة إلهيـــة، يجمع وجه الشبه فيها بين الشاعر وبين القمر الإله، فالشاعر في هذه الصورة يستعرض قدرتـــه على ختن المواليد وكأنه الإله القمر، وهذه إشارة إلى المولود في الليلة القمـــراء يولـــد وكأنـــه مختونٌ.

فهذه الصورة الرمزية، تعكس ما خلعه الشاعر على نفسه من العظمة والتميز، يقول الدكتور علي البطل " إنّ الرجل ذا المكانة القيادية في المجتمع البدائي يأخذ صورة الرمز أو البديل لمعبود المجتمع " (2)

فقد بين الشاعر بجلاء هذه الأسطورة المتجذرة في التراث القومي والمترسخة في الأذهان، بما تحمله هذه الصورة الدينية من دلالات الألوهية والتقديس للقمر، والتي تشي برغبة الشاعر الملحة في إظهار مقدرته على القيام بأفعال موازية لأفعال الإله القمر، والتي تعمق إحساسه بالقدرة على القيام بأعمال خارجة عن المألوف .

ولعل هذه الأسطورة، بما تحمل من بعد ديني، تغني الصورة بالرموز والأبعاد الدلالية التي تجسد إيمان الشاعر العميق بهذه الأسطورة .

وهكذا فإن صورة القمر وما فيها من بعد ديني، كشفت وبوضوح عن عقيدة الشاعر الجاهلي، وعن حضور القمر الفاعل، كإله رئيس في العصر الجاهلي .

وقد بينت الأمثلة السابقة، أن علاقة الشاعر الجاهلي بالقمر، قامت في معظمها على أساس ديني، حيث أتى في أشعاره على ما يدلل بوضوح على تلك العلاقة الراسخة في موروثه العقائدي، كما أنه جاء بمعان وصور أسطورية غنية بالألفاظ التي تنم عن عظمة القمر وقدسيته،

---

(1) النعانعة: **شعر غطفان في الجاهلية وصدر الإسلام**، ص530 .

(2) البطل: **الصورة في الشعر العربي**, ص184 .

وذلك لكون البعد الديني لصورة القمر، يمثل خير شاهد على ما كانوا يعايشونه من معتقدات، ترسبت في أذهانهم في فترات زمنية موغلة في القدم .

2- **البعد النفسي:**

تنبع قيمة الشعر في مقدرته على التعبير عن الحالة الشعورية والنفسية للشاعر، بما تحمله من دلالات متناقضة من شؤم وتفاؤل، ومن خير وشر، ومن ألم وأمل، إلى غير ذلك من معانٍ مختلفة أخرى .

وقد أدت البيئة دوراً بارزاً في تشكيل شعر الشاعر الجاهلي، التي انعكست بدورها على الحالة النفسية التي يمر بها. يقول الدكتور سعد العنبكي: " ترك لنا الشاعر الجاهلي تجارب شعرية عديدة أخضعها لمصفاة إدراكه النفسي فكانت بعض هذه التجارب أكثر أهمية له. فهو في إدراكه للأشياء ورؤيته لها قد استجاب للبيئة وللكون، لا كما بدت أشياؤهما على ما هي عليه في الواقع، بل كما أدركها هو، أو كما بدت له فقد أضفى عليها من رؤياه، ما يظهر فيها من قيمة ومعنى، وأهمية تحقق هدفه الإبداعي " (1) .

وترك القمر ــ كغيره من مظاهر الطبيعة ــ تأثيرات عديدة في حياة الإنسان الجــاهلي، وبخاصة تلك التي انعكست على حالته النفسية والشعورية، إذ بدا الشاعر الجاهلي ضعيفاً أمــام تلك التأثيرات، لا يملك إلا الاستسلام لها أو التماشي معها، من هنا رسم القمر كثيرًا من المعاني السلبية والإيجابية في نفسية الشاعر الجاهلي، وذلك من خلال ما كانوا يرونه من وجهة نظــرهم و يحسونه في داخلهم، وما كان يجسده في نفسيتهم وفي حالتهم الشعورية وأمزجتهم .

يتلون القمر بأحوال النفس في تجربة العاشق في أشعار الجاهليين، بما يحمله من دلالات تفاؤلية وتشاؤمية عند بعضهم. فالعاشق في لحظات تسلله إلى ديار المحبوبة يظل خائفاً قلقاً مــن افتضاح أمره بفعل ضوء القمر الساطع، مما يولد عنده حالة شعورية مضطربة ملؤها التشــاؤم والتطير، على نحو ما نرى في قول الأعشى: (مجزوء الكامل)

وَلَقَدْ أَطَفْتُ بِحاضِـــرٍ حَتَّى إذا عَسَلَتْ ذِئابُهْ

وَصَغَا قُمَيْر كلنٌ يَمْــ نَعُ بَعْضَ بِغْيَةٍ ارْتِقَابُهْ

---

(1) العنبكي, سعد حسون: **الشعر الجاهلي, دراسة في تأويلاته النفسية والفنية,** ط1,عمان, دار دجلة,2007, ص372 .

أَقْبَلْتُ أَمْشِي مِشْيَةَ الــ   حَشْيَانِ مُزْوَرّاً جَنَابُهْ [(1)]

فصورة القمر ــ الذي شكل عائقاً أمام الشاعر في تسلله إلى ديار المحبوبة ــ عكست حالة الشاعر النفسية التي تذبذبت بين الخوف والاضطراب والقلق .

وتشاءم بعض الشعراء من القمر في طور المحاق، لما يحمله في نفوسهم من معاني الفرقة والرحيل، على نحو ما نرى في قول الشاعر خفاف بن ندبة السلمي: (الطويل)

وَلَمْ أَرَها إلاَّ تَعِلَّةَ ساعَـــــــــةٍ   عَلى ساجِرٍ أَو نَظْرَةً بِالمُشَرِّقِ

وَحَيْثُ الجَميعُ الحابِسونَ بِراكِسٍ   وَكانَ المُحاقُ مَوْعِداً للتَّفَرُّقِ [(2)]

فقد شكل المحاق ــ في المثال السابق ــ عاملاً مهما في الكشف عــن حالــة الشــاعر النفسية، حيث استطاع الشاعر من خلال استخدام طور القمر هذا أن يرسم صورة نفسية شــديدة التشاؤم، بما تحمله من معاني الظلمة والسواد، والتي تجسد فجيعة الإنسان الجاهلي بالفراق المرّ الذي يحتمه عليه الزمن وقسوة الحياة واضطراب الواقع، الذي انعكــس علــى نفــس الشــاعر المتألمة.

وتختلف وجهات نظر الشعراء حيال القمر، فهذا الشاعر الأسود بــن يعفــر النهشــلي يصف لنا سعادته في مجلس الشراب، وذلك من خلال تشبيه النساء بالبدور، مما يعكس الحالــة النفسية السعيدة التي كان عليها، فيقول: (الكامل)

وَلَقَدْ لَهَوْتُ وَلِلشَّبَابِ لــــــــذَاذَةٌ   بِسُلافَةٍ مُزِجَتْ بِمَاءِ غَوَادِي

وَالْبِيضُ تَمْشِي كَالْبُدُورِ وَكَالدُّمَى   وَنَواعِمٌ يَمْشِــينَ بِالإِرْفَــادِ [(3)]

وفي إتيان الشاعر بصورة البدر، وفي استخدامه لكلمة البيض، ما يعبر عن راحة الشاعر واطمئنانه، ففي البياض الراحة والسعادة والحنو.

وفي عبارة (تمشي كالبدور) ما يوحي بالحالة النفسية المستقرة التي يمر بها الشاعر، والتي تشي برغبته الملحة في استمرار هذه السعادة وديمومتها.

---

(1) الأعشى: **شرح الديوان**, ص76 .

(2) الأصمعي: **الأصمعيات**, ص22 .

(3) الأسود بن يعفر: **الديوان**, ص29.

وصوَّر بعض الشعراء ترف المرأة ونعومتها ولينها، من خلال تشبيهها بالقمر، مما يدلل على الحالة النفسية المستقرة التي تتصف بها المحبوبة، على نحو ما نرى في قول الوزير ابن المهاجر الأسدي: (الكامل)

وَرَبْعَةُ في الدُّنْيا عَلَيْها مَلاحَةٌ   لَها قَصَبٌ خَدْلٌ وَعَيْنُ غــزَالِ
وثَغْرٌ كَثَغْرِ الأُقْحُوانِ إِذا بَــدَا   وَتَطْلَعُ مِنْ سِتْرٍ طُلُوعَ هِلالِ (1)

وقول عنترة: (الطويل)

مُنَعَّمَةُ الأَطْرَافِ خُودٌ كَأَنَّهَا   هِلالٌ عَلَى غُصْنٍ مِنَ البَانِ مائِدُ (2)

من الواضح ــ في الأبيات السابقة ــ مقدرة الشاعرين على رسم صورة للمرأة ملؤها السعادة والهناء، تعكس الراحة النفسية التي تتمتع بها.

وذلك فضلاً عن الأثر النفسي العميق الذي تتركه هذه الصورة في نفس الشاعر، والذي يتمثل في خلق واقع متغير ومتميز في نفس العاشق تجاه محبوبته. فهذه الصورة كصورة القمر الذي يبقى دائم النور والإضاءة.

وتكشف الألوان عن جوانب انفعالية كامنة في نفس الشاعر، بمــا تحملــه مــن أبعــاد ودلالات نفسية تعكس حالة الشاعر في تفاؤله وتشاؤمه، وهذا من شأنه أن يثير لــدى الشــاعر "طائفة من الذكريات مما يجعلة مسوقًا إلى ابتكار رمز موائم لدلالات تلك الذكريات المستمدة من اللون الذي قد يستمده من الطبيعة من حوله, رابطًا إيّاه بحالته النفسية"(3), فاللون الأبيض المرتبط بالقمر يثير البهجة والتفاؤل بالحياة، على نحو ما نرى في قول حسان بن ثابت: (الوافر)

وَلا يَنْفَكُ فينَا مَا بَقِينَا   مُنِيرُ الوَجْهِ أَبْيَضُ كَالهِلالِ(4)

فقد شبه الممدوح بالهلال الذي ينير الظلام، ويتجسد في اللون الأبيض المقدس، في صورة تدلل على إشراك الرمز المقدس مع الهلال في صفة البياض، ليضفي على الممدوح

---

(1) السنديوني: **شعر قبيلة بني أسد وأخبارها**, ص636.

(2) عنترة: **شرح الديوان**, ص73.

(3) نوفل, يوسف: **الصورة الشعرية واستيحاء الألوان**, ط1, القاهرة, دار الاتحاد العربي للطباعة, 1985, ص35.

(4) حسان: **الديوان**, ص277 .

شعوراً مفعماً بالتفاؤل والفرح، بما يحمله هذا اللون من دلالات الهدوء والارتياح، يشي برغبة الشاعر الملحة في تكثيف الجوانب النفسية التفاؤلية عند الممدوح .

ومن ذلك ــ أيضاً ــ ما ارتبط بالليلة القمراء المنيرة، على نحو ما نرى في قول الحطيئة مفتخراً: (البسيط)

نَمْشِي إِلَى ضَوْءِ أَحْسَابٍ أَضَأْنَ لَنَا   مَا ضَوَّأَتْ لَيْلَةُ القَمْرَاءِ للسَّارِي[1]

فالليلة القمراء ــ كما هو واضح ــ تعتبر الرفيق الحاني للمسافر ليلا، بما تحمله من معاني الإضاءة والإنارة في الليل المظلم، فتكتسب بذلك أبعادا دلالية تعبر عن موقف الشاعر النفسي المتمثل في فخره واعتزازه بقومه.

فالشاعر يعكس من خلال الليلة القمراء، الطمأنينة التي تداخل نفس الساري ليلاً، لأنها تساعده على الاهتداء في الليالي الشديدة الظلمة التي بدورها تنعكس على حالته الشعورية والنفسية، فهو مطمئن لأصالة نسبه كما الساري مطمئن للقمر في الليالي المظلمة .

ويحمل اللون الأسود ــ المرتبط بالقمرــ الوارد في أشعار الجاهليين، دلالات متعددة، لا سيما فيما يثيره من معاني التشاؤم والحزن." فلكل لون معنى نفسيّ يتكوّن نتيجة للتأثير الفزيولوجي للون على الإنسان. هذا التأثير يترك خبرة شخصية تمتزج بشعور داخلي أو تخمين عام, ويتكون المعنى النفسي للون من هذه المجموعة من الخبرة أو الشعور الداخلي أو التخمين العام"[2], فاستطاع الشاعر الجاهلي إضفاء اللون الأسود على القمر ليعكس من خلال ذلك الحالة النفسية المليئة بالحزن والألم ومظاهر التشاؤم التي يمر بها.

ومن أبرز هذه المواطن التي وقف عليها الشعراء وصف حالتهم النفسية بعد موت أعزائهم، قول أم ندبة في رثاء ابنها: (الوافر)

فَيَا يَوْمَ الرِّهَانِ فُجِعْتُ فِيهِ   بِشَخْصٍ جَازَ عَنْ حَدِّ الصِّفَاتِ

وَلاَ زَالَ الصَّبَاحُ عَلَيْكَ لَيْلاً   وَوَجْهُ البَدْرِ مِسْوَدَّ الجِهَاتِ[3]

---

(1) الحطيئة: **الديوان**, ص190.

(2) دملخي, إبراهيم: **الألوان نظريا وعلميا**, ط1, حلب, مطبعة اوفست الكندي, 1983, ص67.

(3) صقر: **شاعرات العرب**, ص446.

يبدو من خلال البيتين السابقين، أن سواد القمر قد انعكس على نفس الشاعرة، فظلمة نفسها وجزعها بعد موت من أحبت، جعلتا القمر أسود في عينيها، فقد أجزعها الفراق وأبكاها وغير نظرتها إلى الأشياء، حتى باتت متشككة بلون القمر .

ولعل هذا الإحساس بتغير القمر، يجسد موقفاً شعورياً وحالة نفسية حزينة لدى الشاعرة بعد الموت، وهذا الموقف الشعوري يعكس أجواء النفور والكراهية التي تكونت بين الشاعرة وبين حالة القمر في هذا الموقف الجلل. فالرغبة في الحزن تجعل من سواد القمر صورة حزينة تحرص على استحضارها، وذلك لإظهار سواد القمر وكأنه أمر طبيعي بعد هذه الفاجعة، حيث يعبر عن حاجة النفس للحزن ويشعر الآخرين بها .

وكان من طبيعة الشاعر الجاهلي أن يمزج بين شعوره النفسي وبين القمر وهو يتسربل بالسواد وقد اختفى نوره الأبيض، في دلالة على الحزن والشؤم، فالأسود عادة " يأتي في مواضع الشؤم كلون الغراب والأطلال والليل والموت " [(1)]، الأمر الذي يكاد يكون ظاهرة في أشعار الجاهليين، وخاصة في شعر الرثاء، إذ نجد بعض الشعراء قد ربط بين ما يحدث للقمر من تغيرات وبين موت عزيز عليه، مما يعكس الفراغ النفسي الذي خلفه المرثي بعد موته، على نحو ما نرى في قول عنترة في رثاء الملك زهير، إذ جعل الليل يحزن على فقده، ويلبس ثوباً أسود، وذلك من خلال خسوف القمر وغيابه، فيقول: (الخفيف)

خُسِفَ البَدْرُ حِينَ كَانَ تَمَامَا   وَخَفَى نُورُهُ فَصَارَ ظَلَامَا [(2)]

وقول الخنساء في رثاء أخيها: (مجزوء الكامل)

وَالشَّمْسُ كَاسِفَةٌ لِمَهْلَـــ   كِــهِ وَمَا اتَّسَقَ القَمَرْ [(3)]

وقول أوس بن حجر في رثاء صاحبه: (المتقارب)

أَلَمْ تُكْسِفِ الشَّمْسُ والبَدْرُ وَالـــ   كَوَاكِبُ للجَبَلِ الوَاجِب

---

(1) أبو عون, أمل محمود عبد القادر: **اللون وأبعاده في الشعر الجاهلي**, (رسالة ماجستير غير منشورة), بإشراف جامعة النجاح الوطنية, نابلس, 2003, ص32.

(2) عنترة: **شرح الديوان**, ص166 .

(3) الخنساء وليلى الأخيلية: **ديوان الباكيتين**, ص289 .

لِفَقْدِ فُضَالَةَ لا تَسْتَوِي الـــــــ فُقُودُ وَلاَ خَلَّةُ الذَّاهِبِ [1]

والمتأمل في الأبيات السابقة، يجد صورة القمر المتغيرة قد عكست حالة نفسية واحدة وهي الشعور بمرارة الفقد وشدة وقعه على نفس الشعراء، كما نجد أن هؤلاء الشعراء أرادوا من خلال استحضار صورة سواد القمر أن يبيّنوا الأثر النفسي الذي تركه غياب المرثي عليهم .لعلهم بذلك يتحدثون عن عمق التغيرات التي طرأت على حياتهم بعد موت من أحبوا، فلم يجدوا إلاّ صورة القمر كي يعكسوا عليها شعورهم النفسي المتسم بالحزن، الأمر الذي يعمق الإحساس بمشاركته لهم حزنهم الشديد، حيث جسدوا من خلال هذه الصورة رؤيتهم حول الموت وما يخلفه من أثر نفسي على الإنسان .

تركت الحرب بإبعادها المختلفة أثراً نفسياً بالغاً على الشاعر الجاهلي، لا سيما عند ارتباطها بالقمر، حيث وجدوا في صورته خير ممثل لشدة المعارك ووقعها على النفس، مما دفعهم إلى رسم صورة متذبذبة بين الخوف والشجاعة، من هنا كان القمر مصدر خوف لأعدائه ومصدر شجاعة لهم، على نحو ما نرى في قول الربيع بن زياد الفزاري: (البسيط)

في يَوْمِ حَتْفٍ يَهَالُ النَّاظِرُونَ لَهُ مَا إِنْ تَبِينَ لَهُ شَمَسٌ وَلا قَمَرُ[2]

من الواضح في هذا البيت، أن الشاعر لجأ إلى استحضار صورة القمر في النهار، أي في وقت وقوع المعركة، ليكسب تلك الصورة أبعاداً دلالية عميقة، بما تشيعه في نفس المتلقي من خوف ورهبة، والتي تتمثل في غياب القمر والشمس، اللذين يدلل غيابهما على شدة المعركة وضراوتها، ذلك فضلاً عن رغبته في إظهار ما يتصف به من شجاعة وإقدام من خلال خوضه هذه المعارك الضارية.

وليس البشر وحدهم هم من يمتلكون الشعور النفسي، بل إن الحيوانات تمتلك تلك الحالة النفسية والشعورية، من هنا نجح بعض الشعراء الجاهليين في رسم صورة نفسية واضحة وعميقة ـــ من خلال القمرـــ لحيواناتهم، على نحو ما نرى في قول عنترة يصف سيره وحصانه ليلاً، ولا أنيس لهما إلا البدر: (الكامل)

---

[1] أوس بن حجر: **الديوان**, ص10.

[2] الربيع بن زياد: **الديوان**, ص378 .

وَالبَدْرُ مِنْ فَوْقِ السَّحَابِ يَقُودُهُ فَيَسِيرُ سَيْرَ الرَّاكِبِ المُسْتَعْجِلِ (1)

يتبين لنا ــ من خلال هذا البيت ــ الحالة النفسية المضطربة التي كان يعانيها الحصان، ولعل سيره باستعجال مع البدر يمثل خير دليل على ذلك، فالبدر يغيب تارة بين السحاب فيعم الظلام، ثم يظهر تارة أخرى فتتكشف معالم الطريق. فهو بذلك فد خلق عند الحصان شعورا نفسيا يتمثل بعدم الأمن، والخوف من المجهول، والذي أدى به إلى السير باستعجال لعله يتجاوز ذلك الخوف ويصل إلى بر الأمان .

ويصف أبو زبيد الطائي الأسد وهو يلاحق الصيادين في القمراء، وما تركه ذلك من أثر نفسي على الصيادين، والمتمثل في خوفهم وفرارهم طالبين النجاة, فيقول: (الطويل)

فَأَبْصَرَ رَكْباً رَائحينَ عَشِيَّــــــةً فَقَالُوا أَبَغْلٌ مَائِلُ الجلِّ أَشْقَـــرُ

بَل السَّبْعُ فَاسْتَنْجُوا وَأَيْنَ نَجَاؤُكُمْ فَهَذَا وَرَبِّ الرَّاقِصَاتِ المُزَعْفَــرُ

فَوَلُّوا سِرَاعاً يَنْدَهُونَ مَطِيَّهــــُمْ وَرَاحَ عَلَى آثَارِهِمْ يَتَقَمَّـــــرُ (2)

يقول ابن منظور عن معنى(تقمر الأسد): أي خرج يطلب الصيد في الليلـــة القمـــراء(3). يتضح في هذه الأبيات، أن صورة الأسد يتصيد في الليلة القمراء شكلت مصدر قلق للصيادين، فالليلة القمراء, أساس مهم لبدء الحيوانات والإنسان الصيد، وهي إعلان للتحـــرر مـــن الظـــلام الدامس، ولكنها هنا انقلبت إلى مصدر قلق وخوف لدى الصيادين، لأنها أصبحت مجالاً لكشـــفهم أمام الأسد وملاحقتهم، مما ولد عندهم شعوراً بالقلق والاضطراب، والذي يتضح من خلال قول الشاعر (فولوا سراعاً) .

ومن الملاحظ ــ أيضاً ــ أن الشاعر لجأ إلى إبراز دور الليلة المقمرة في نفسية الحيوان المتعطشة للصيد والقتل، حيث أنها تعتبر من أفضل أوقات الصيد عنده .

ولعل الشاعر باستحضاره صورة الأسد يصطاد في الليلة المقمرة، عمق الإحساس بما تشيعه من دلالات الرهبة والخوف، وذلك على الرغم مما تنطوي عليه من دلالات الحنو والنور،

---

(1) عنترة: **شرح الديوان**، ص138.

(2) القيسي: **شعراء إسلاميون**، ص609.

(3) ابن منظور: **باب (قَمَرَ)**.

كما أنها جسدت صراع الإنسان الجاهلي مع الطبيعة الموحشة المحيطة به، والتي تبقيه في حالة اضطراب وقلق على حياته .

وهكذا، ــ ومن خلال تتبعنا البعد النفسي في صورة القمر في أشعار الجاهليين ــ يتضح لنا، أن اقتران الحالة النفسية التي يمر بها الشاعر الجاهلي بصورة القمر، يجعل منها مرآة انعكس عليها شعوره النفسي وشعور غيره، من هنا حملت صورة القمر بين طياتها العديد من الدلالات والأبعاد النفسية المتناقضة من تشاؤم وتفاؤل، وحزن وسعادة، وخوف وطمأنينة.

3-البعد الاجتماعي:

أدى القمر عند الشاعر الجاهلي ــ باعتباره عنصراً مهماً من عناصر الطبيعة ــ دورا كبيراً في إبراز المكانة الاجتماعية لمن حسنت صورته وحظي بمكانة اجتماعية مهمة في قومه، من هنا استطاع الشاعر الجاهلي تجسيد الصورة الحسنة لموصوفة، وذلك من خلال تشبيهه بالقمر.

اعتز الشاعر الجاهلي بممدوحه، فلم يجد أعلى مكانة من القمر ليدلل بها على مكانته، وموقعه المميز في قومه، على نحو ما نرى في قول عنترة، يمدح الملك كسرى: (الكامل)

يَا أَيُّهَا المَلِكُ الَّذِي رَاحَاتُهُ قَامَتْ مَقَامَ الغَيْثِ فِي أَزْمَانِهِ

يَا قِبْلَةَ القُصَّادِ يَا تَاجَ العُلاَ يَا بَدْرَ هَذَا العَصْرِ فِي كِيوَانِهِ [1]

فنجد عنترة ــ ومن خلال تشبيه الملك بالبدر ــ قد منحه مكانة عالية لا يستطيع أحد الوصول إليها، كما أن هذا الوصف يحمل معاني عميقة تدلل على هيبة صاحبها وسطوته، وتمتعه بمكانة مميزة بين ملوك زمانه .

ويبدو أن الملك اكتسب هذه المكانة الاجتماعية من أصل ديني، حيث كان الملك يعد بمثابة الإله الذي يعبد، وممدوح عنترة في قصره مشابها للقمر في سمائه .

ومما يؤكد قيمة الممدوح الاجتماعية وعلاقة صورته بصورة القمر، قول الأعشى يمدح علقمة بن علاثة: (المتقارب)

وَإِنْ فَحَصَ النَّاسُ عَنْ سَيِّــدٍ فَسَيِّدُكُمْ عَنْهُ لاَ يُفْحَــصُ

---

[1] عنترة: **شرح الديوان**, ص171 .

فَهَلْ تُنْكَرُ الشَّمْسُ فِي ضَوئِـهَا   أَوْ القَمَرُ البَاهِر المُبْرِصُ[1]

فممدوح الأعشى مكانته عالية، وهي مساوية لمكانة القمر، حيث أن القمر لا ينكر ذلك. وهذه المكانة يصعب على احد أن يصل إليها. وبهذا يصبح للممدوح مكانة هامة في هذا الوصف.

وقد يكون هذا الوصف جماعيا، يشمل كل القبيلة، على نحو ما نرى في قول زهير بن أبي سلمى: (البسيط)

قَوْماً تَرىَ عِزَّهُمْ بِالفَخْرِ إِنْ فَخَرُوا   في بَيْتِ مَكْرُمَةٍ قَدْ لُزَّ بِالقَمَــرِ[2]

فقد أضفت هذه المكانة على أصحابها بعداً اجتماعياً مرموقاً ومميزاً، حيث جعل الشاعر هؤلاء القوم مجاورين للقمر، في إشارة واضحة إلى مكانتهم المميزة، ليجسد من خلال ذلك رغبته الملحة في إظهار تميزهم الذي لا يستطيع بشر الوصول إليه .

لكن الشاعر حجية بن المضرب يبين أن مكانة ممدوحه تفوق مكانة القمر، بل أن علو مكانة القمر تتضاءل أمام علو مكانة الممدوح، فيقول: (الطويل)

سَمَوْا فِي المَعَالِي رُتْبَةً بَعْدَ رُتْبَةٍ   أَحَلَّتْهُمُ حَيْثُ النَّعَائِمُ وَالنَّســـْرُ

أَضَاءَتْ لَهُمْ أَحْسَابُهُمْ فَتَضَاءَلَتْ   لِنُورِهِمُ الشَّمْسُ المُنِيرَةُ وَالبَدْرُ[3]

ومن ذلك ــ أيضا ــ قول الأعشى: (الطويل)

فَتىً لَوْ يُنَادِي الشَّمْسَ أَلْقَتْ قِنَاعَهَا   أَوِ القَمَرَ السَّارِي لأَلْقَى المَقَالِدَا[4]

ويتضح من الأبيات السابقة ــ أن الشاعرين لجأا إلى استحضار صورة القمر ليدللا على المكانة الرفيعة التي وصل إليها الممدوح والتي تطغى على مكانة القمر والشمس معاً، ويكونا بذلك قد بالغا في وصف ممدوحيهما وبيان مكانتيهما بين الناس. لعلهما بهذه المبالغة وهذا الخيال الجانح قد جسدا رغبتهما في إيصال صاحبيهما إلى مكانة خارجة عن المألوف، يكاد وصول الآخرين إليها مستحيلا .

---

(1) الأعشى: **شرح الديوان**, ص48 .

(2) زهير بن أبي سلمى: **شرح الديوان**, ص 232 .

(3) القالي: **الأمالي**, ج1, ص54 .

(4) الأعشى: **شرح الديوان**, ص103.

ولجأ بعض الشعراء إلى استحضار صورة القمر للدلالة على قيمة المرثي الاجتماعية ومكانته، متخذين المفاضلة بينه وبين الكواكب الأخرى أساساً لبيان هذه المكانة التي كان يحظى بها قبل موته، على نحو ما نرى في قول الخنساء: (البسيط)

كُنَّا كَأَنْجُمِ لَيْلٍ وَسْطَهَا قَمَــــرٌ ... يَجْلُو الدُّجَى فَهَوَى مِن بَيْنِنَا القَمَرُ

يا صَخْرُ ما كُنْتَ في قَوْمٍ أُسَرُّ بِهِم ... إلاَّ وَإنَّكَ بَيْنَ القَوْمِ مُشْتَهِــــرُ [1]

وقول أم بسطام بن قيس الشيباني : (الطويل)

لِتَبْكِ ابْنَ ذِي الجِدَّيْنِ بَكْرُ بنُ وَائِلٍ ... فَقَدْ بَانَ مِنْهَا زَيْنُهَا وَجَمَالُهَا

إِذَا مَا غَدَا فيهَا غُدُوَّاً كَأَنَّهُــــــمْ ... نُجُومُ سَمَاءٍ بَيْنَهُنَّ هِلالُهَـا [2]

فالشاعرتان ــ كما هو واضح ــ عمدتا إلى استثمار عنصر القمر لإرساء قيمة اجتماعية مميزة للمرثي، حيث شبهت مكانتهما المميزة بمكانة القمر بين الكواكب، وحاولتا إبراز مكانة الفقيدين من خلال ربط غيابهما بغياب القمر، في إشارة واضحة إلى تصوير أثر غيابهما على الناس وهم في أمس الحاجة لعطائهما بغياب القمر من بين النجوم، فشكلت تلك الصورة دلالات عميقة، أكسبت المرثي بعدا اجتماعيا فريدا، ساهم في إضفاء جو من الحزن على هذا الفقد الجلل. لعلها صورة من صور الرثاء المميزة، تعكس إحساس الشاعرتين بالحزن الذي أحاط القبيلة بموتهما، وبالفراغ الكبير الذي تركاه في مجتمعهما، والذي لا يستطيع أحد أن يملأه.

كان الرجل الكريم ملجأً وملاذاً للفقراء في الجوع والمحل، لذا اقترنت مكانة الكريم الاجتماعية بمكانة القمر الذي يعم ضوؤه ليشمل الجميع، على نحو ما نرى في قول لبيد: (الكامل)

أَبْكِي أَبَا الخَرَّازِ يَوْمَ مَقامَةٍ ... لِمُناخِ أَضْيافٍ وَمَأْوَى مُقْتِرِ

وَالحَيِّ إِذْ بَكَرَ الشِّتاءُ عَلَيْهِمُ ... وَعَدَتْ شَآمِيَةٌ بِيَومٍ مُقْمِــرِ

وَتَقَنَّعَ الأَبْرامُ في حُجُراتِهِمْ ... وَتَجَزَّأَ الأَيْسارُ كُلَّ مُشَهَّـرِ

أَلْفَيْتَ أَرْبَدَ يُسْتَضاءُ بِوَجْهِهِ ... كَالبَدْرِ غَيْرَ مُقَتِّرٍ مُسْتَأْثِـرِ [3]

---

[1] الخنساء وليلى الأخيلية: **ديوان الباكيتين**, ص100.

[2] ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**, ص616.

[3] لبيد : **الديوان** ,ص95.

وقول الخنساء: (البسيط)

جَمٌّ فَواضِلُهُ تَنْدَى أَنامِلُهُ   كَالبَدْرِ يَجْلو ولا يَخْفَى عَلى السَّاري [1]

من الواضح في الأبيات السابقة، أن تشبيه الشاعرين المرثي بالبدر، يحمل بين طياته بعداً اجتماعياً كبيراً، يشير إلى شرفه ورفعته وسمو مكانته في قومه، هذه المكانة التي كانت ترتفع بهم إلى مكانة البدر في السماء، حيث لم يجدا أفضل وأعم من نور البدر في الليالي المظلمة ليضفياه على كرم المرثي، وبخاصة في الليالي الحالكة الظلمة. فحاجة الفقير إلى الطعام تكون ملحة في ليالي البرد والشدة والجدب .

كما أن هذه الصورة تضفي على كرم المرثي بعداً بطولياً، تجعل من مكانته محطاً لأنظار الغرباء والضالين أو الطارقين أو السارين ليلا .

ويجد المتتبع شعر الغزل، أن المرأة المشبهة بالقمر حظيت بنصيب وافر، وبخاصة المرأة الحرة الشريفة التي غالباً ما ارتبطت صورتها بصورة القمر للدلالة على شرفها وأصلها الكريم، على نحو ما نرى في قول عمرو بن قميئة: (المتقارب)

وَوَجْهٌ يَحَارُ لَهُ النَّاظِرُون   يَخَالُونَـهَمْ قَدْ أَهَلُّوا هِلالا [2]

ويرى عمرو بن كلثوم أنه لم ير في معد امرأة أجمل من محبوبته، حيث يصف جمال وجهها واشراقته بجمال الهلال وإشراقه، فيقول: (الوافر)

ولَمْ أَرَ مِثْلَ هَالَةَ فِي مَعَدٍّ   أُشَبِّهُ حُسْنَـهَا إلا الـهِلالا [3]

فارتباط المحبوبة بصورة الهلال ـــ في أبيات الشاعرين ـــ يدلل على شرف المنزلة وطهارة الجسد ونقاء السريرة، وهما بذلك يبرزان قيمتهما الاجتماعية المتميزة، وعلو مكانتهما بين النساء، فيحققان بذلك هدفين: التميز، وشرف المنزلة .

---

(1) الخنساء وليلى الأخيلية: **ديوان الباكيتين**, ص92.

(2) عمرو بن قميئة: **الديوان**, ص114 .

(3) عمرو بن كلثوم: **الديوان**, ص50 .

أما الشاعر حسان فقد استطاع أن يرفع من منزلة محبوبته وقدرها، وذلك من خلال وصف مكانتها بين النساء بمكانة البدر بين الكواكب، فظهورها في أي مكان يطغى على ظهور سائر النساء، في إشارة واضحة إلى تميز مكانتها، فيقول: (الكامل)

بَيْضَاءَ لَوْ مَرَّتْ بِذِي نَسَــكٍ يَتْلُو البَيَانَ يَلُوحُ فِي الزُّبُــرِ

مُتَبَتِّلٌ عَنْ كُلِّ فَاحِشَـــــــةٍ سَكْنُ الصَّوَامِعِ رَهْبَةِ الوَزَرِ

لَرَأَيْتَهُ حَرَّانَ يَذْكُرُهَــــــــا يَجْتَازُ رُؤْيَتَهَا عَنْ الذِّكْــــرِ

بَذَّتْ نِسَاءَ العَالَمِينَ كَمَــــا بَذَّ الكَوَاكِبَ مَطْلَعُ البَــــدْرِ [1]

وإبراز اللون الأبيض في قول حسان إلى جانب البدر، لأكبر دليل على مكانة هذه المرأة الاجتماعية وشرفها، لما يحمله هذا اللون من معاني الرفعة والشرف والارتقاء إلى مرتبة السادة والشرفاء .

ويلجأ الشاعر الحارث بن عُباد إلى تشبيه السبايا اللواتي وقعن في الأسر بالهلال، في إشارة إلى الترف والنعيم الذي يتمتعن به، الأمر الذي يؤدي إلى زيادة الحسرة في نفوس أعدائهم، فيقول: (الخفيف)

أَسْلَمُوا كُلَّ ذاتِ بَعْلٍ وَأُخْرَى ذَاتَ خِدْرٍ غَرَّاءَ مِثْلَ الهِلالِ [2]

من الواضح أن الشاعر جعل اللون الأبيض إلى جانب الهلال للدلالة على علو مكانة السبايا، حيث يترتب على هذه الدلالة الاجتماعية تداعيات وآثار سلبية على المهزوم، فـــ " سبي المرأة البيضاء كان مذلة وإهانة للقبيلة، لأنها سوف تستوي مع الإماء السود في الشقاء والعبودية" [3].

ويستخدم عنترة حاجة الناس الملحة إلى البدر ــ وبخاصة في الليلة الظلمـــاء ــ ليـــدلل على مكانته الاجتماعية والفراغ الاجتماعي الذي تركه بعد رحيله، والمتمثل بافتقاد قومه له فـــي أيام الحرب، فيقول: (الطويل)

---

(1) حسان: **الديوان**, ص190.

(2) شيخو، لويس: **شعراء النصرانية قبل الإسلام**, ص275، 276 .

(3) بو عون: **اللّون وأبعاده في الشعر الجاهلي**, ص196 .

وَهَا قَدْ رَحَلْتُ اليَوْمَ عَنْهُمْ وَأَمْرُنَا إِلَى مَنْ لَهُ في خَلْقِهِ النَّهْيُ وَالأَمْرُ
سَيَذْكُرُنِي قَوْمِي إِذَا الخَيْلُ أَقْبَلَتْ وَفِي اللَّيْلَةِ الظَّلْمَاءِ يُفْتَقَدُ البَدْرُ
يَعِيبُونَ لَوْنِي بالسَّوَادِ جَهَالَةً وَلَوْلا سَوَادُ اللَّيْلِ مَا طَلَعَ الفَجْرُ[1]

فالشاعر هنا يحاول بوساطة استحضار البدر في الليلة الظلماء إثبات سيادته وشرفه، على الرغم من سواد لونه، مؤكداً لقومه أن هذا السواد ليس إلا مظهراً خارجياً، وشجاعة المرء وشرفه وعزته تكمن في داخله، وتظهر في أعماله وتصرفاته .

كما أن عنترة استطاع من خلال هذه الصورة أن يجعل اللون الأسود يطاول مرتبة اللون الأبيض في الدلالة على علو المكانة والعزة والشرف، فالأعمال التي أقدم عليها، والمآثر التي سجلها لقومه، لاسيما في الأوقات العصيبة التي يحتاجون إليه فيها، كل ذلك كفيل بأن يضعه في مكانة عالية، تتشابه إلى حد كبير مع مكانة البدر الذي أكثر ما يكون الناس حاجة إليه في الليلة المظلمة .

فالليلة الظلماء جاءت لتعمق الإحساس بالقهر والظلم الاجتماعي اللذين يعاني منهما الشاعر، وتشي بحاجة الشاعر الملحة إلى الحرية، التي وجد لها شبيها في البدر الذي يبدد هذا الظلام، ويحسسه بأهمية وجوده .

ويترتب على الصورة السابقة ــ أيضا ــ دلالة اجتماعية أخرى، وهي الشجاعة والإقدام في أثناء المعركة، الأمر الذي يكسب الصورة بعداً اجتماعياً يتسم بالبطولة، والقتال في أصعب الأوقات، وأكثرها تحدياً، وكأن الشاعر ملتزم بالدفاع عن القبيلة، كما البدر ملتزم بإضاءة الليل المظلم، مما يدلل على رغبته الدفينة في إظهار ما تحمله نفسه من التزام تجاه قبيلته ــ على الرغم من نبذه ــ في سبيل التحرر من العبودية .

وكان البخل من العادات الاجتماعية السيئة التي ذمها العرب، حيث لجأ بعض الشعراء إلى استحضار صورة أطوار القمر ليعزز ويؤصل هذه العادة في مهجوه، فيحط من منزلته وقدره بين الناس، على نحو ما نرى في قول الشاعر عمرو بن أحمر الباهلي الذي يذم أعداءه

[1] عنترة: **شرح الديوان**، ص88 .

ويصفهم بالبخل الشديد، مستخدماً أشد حالات القمر إظلاما للتعبير عن ذلك، ما يؤكد انحطــاطهم وسوء سمعتهم بين القبائل، فهم بخلاء حتى وإن كانوا في ذروة كرمهم، فيقول: (الطويل)

نَهَارُهُمُ ظَمْآنُ ضَاحٍ ولَيْلُهُـمْ إنْ كَانَ بَدْراً ظُلْمَةُ ابْنِ جَميــــرِ

إذَا أَنْتَ رَاوَدْتَ البَخِيلَ رَدَدْتَهُ إلَى البُخْلِ وَاسْتَمْطَرْتَ غَيْرَ مَطِيرِ[1]

نجد ــ في هذين البيتين ــ اقتران البخل بالقمر المظلم، فأصبح مقياساً مهماً لبخلهم، مما يضفي على هذه الصورة بعداً اجتماعياً يجعلها أوقع في النفوس وأعظم أثراً، الأمر الذي يعمق إحساس أعداء الشاعر بانحطاط قدرهم وزوال هيبتهم .

يبدو أن طور القمرــ في هذا البيت ــ جاء ليعمق عادة البخل المتأصلة فيهم، والتي أوصلتهم إلى تلك المكانة الوضيعة عند المستغيث بهم.

وهكذا، تتنوع أبعاد صورة القمر تبعا لرؤية الشاعر، لأن " أي تشكيل للصورة عند أي شاعر يرتد دائما إلى حركة داخلية منظمة هي رؤيا الشاعر الخاصة نحو الكون والحياة "[2]، من هنا جاءت أبعاد صورته عميقة الدلالات غنية بالإيحاءات، كما أن اقترانها بالعناصر الأخرى أكسبها أبعاداً ودلالات رمزية، وجعلها أوقع في النفوس وأشد أثراً على المتلقي .

---

(1) عمرو بن أحمر الباهلي: **شعره**, ص49.

(2) الرباعي، عبدا لقادر: **الصورة الفنية في شعر زهير بن أبي سلمى،** ط1، الرياض، دار العلوم للطباعة والنشر، 1984، ص205.

الخاتمة

وبعد, فإن هذه الرحلة الطويلة مع القمر ــ على الرغم من صعوبتها ــ استطاعت أن تكشف الغطاء عن أمور هامة حول ظاهرة من أبرز الظواهر الطبيعية، التي كان لها حضورها في فكر الإنسان القديم، لا سيما الجاهلي، حيث ساهم القمر في بناء الأساس الديني والميثولوجي لهذه الحضارات القديمة، فنظروا إليه نظرة قدسية تحمل بين ثناياها معاني العبادة والألوهية، مما دفع الكثيرين من هذه الشعوب إلى جعله الأب الراعي لهم. وكان من مظاهر هذا التقديس العناية بمعابده، وتكريس الأبناء لخدمته، وذبح القرابين الكثيرة لنيل رضاه والتقرب منه .

وهكذا، وبعد استعراضنا لمادة البحث واستقرائنا لأشعار الجاهليين، لا بد لنا من الوقوف على بعض النتائج التي خلص إليها هذا البحث، وأهمها:

1- احتلال القمر مكانة لا بأس بها في الفكر الديني والميثولوجي للحضارات القديمة، فكان الإله الحامي لهم، فقدسوه وعملوا جاهدين على إرضائه ونيل بركاته، فدانوا له بالطاعة والولاء، وأضفوا عليه بعداً أسطورياً جعله متمكناً من فكرهم وعقائدهم، مما حدا بهم إلى اتخاذه أباً لسائر الآلهة الكوكبية .

2- كان للأساطير المتعلقة بالقمر، أهمية كبيرة في دراسة تاريخ الفكر الإنساني، فقد وجد من خلالها منفذاً واسعاً ومخرجاً من حالة الاضطراب والصراع التي شابت علاقته بالظواهر الطبيعية، وبخاصة القمر، حيث منحته السكينة وأنارت بعض الجوانب المظلمة في نفسه .

3- لم تختلف نظرة الجاهليين إلى القمر عن غيرهم من الأمم، بل كانت امتداداً لها، حيث أخرجوه من كونه ظاهرة طبيعية إلى دائرة الآلهة العظماء، فقدسوه وقدموا له القرابين، لما تركه من تأثير ملموس في حياتهم، وعلاقته المباشرة في تسيير أمورهم.

4- إن الحديث عن القمر في الشعر الجاهلي لا يُعدُّ غرضاً شعرياً واضحاً ومتميزاً، فلم نجد شاعراً جاهلياً يفرد لوحة شعرية في قصيدته للحديث عن القمر، بل جاء مقترناً بأغراض الشعر الأخرى، كوصفهم للنساء، وحديثهم عن حروبهم، وربطهم بين القمر وبين الممدوح والمرثي والمهجو، وهذا يؤكد قدرة الشاعر الجاهلي على أن يجعل من شعره مرآة، تعكس ما في عصره من أفكار ومعتقدات وقيم، وتكشف بجلاء بعض جوانب حياته اليومية .

5- استطاع الشاعر الجاهلي من خلال أشعاره المرتبطة بالقمر الإله، أن يثبت ويؤكد للذين حكموا عليه بالتخلف والجهل والبدائية، أن الفكر العربي كان فكراً متطوراً، بما يحمل بين طياته من خيال مبدع، قادر على إنشاء الأساطير، كي يفسر بعض الظواهر من حوله .

6- نظر الشاعر الجاهلي إلى القمر ــ بالرغم من طبيعته التي تبعث على الراحة والدعة ــ في بعض الأحيان نظرة سلبية، عكست دلالاته المتناقضة، حيث شكل نوره في بعض الأحيان عائقاً أمام الشاعر العاشق المتسلل إلى ديار المحبوبة، كما اعتبر أحد أطواره ــ المحاق ــ رمزاً لرحيل المحبوبة عن الديار، وذلك فضلاً عن ما كانت تمثله الليلة المقمرة من خطر على الصيادين من الحيوانات المفترسة .

7- لم تكن صورة القمر صورة تقليدية في أشعار الجاهليين، بل تعددت وتنوعت دون أن تخرج في إطارها العام عن طبيعة الصورة في الشعر الجاهلي. فقد تبين من خلال صورة القمر، أنه غالباً ما يكون مرتبطاً بالتراث الشعري أو الموروث الثقافي أو الحضاري. كما تبين من خلال تحليل النصوص، أن الشاعر الجاهلي يستمد عناصر صورة القمر من الطبيعة، ويعود في تشكيلها إلى تراثه الشعري وموروثه الثقافي، ويتضح ذلك من خلال وسائل رسم الصورة، والعناصر الأخرى التي برزت في صورة القمر الجاهلية والتي تزيد فاعليتها وقدرتها على الكشف، بما تنطوي عليه من أحاسيس ومشاعر داخلية، كالتشبيه والاستعارة واللون والحركة.. .

8- لم يكن القمر مجرد عنصر من عناصر الطبيعة، بل غدا عنصراً له فاعليته في تحديد الأبعاد المختلفة لصورته في الحياة الجاهلية، إذ عكس شعر الجاهليين الذي تحدث عن القمر أبعاداً مختلفة، كالبعد الديني والنفسي والاجتماعي، مما كان له أكبر الأثر في جعل الشعر الجاهلي سجلاً حافلا يكشف عن مكنونات الحياة الجاهلية .

9 - ارتبط القمر ــ في أشعار الجاهليين ــ ببعض القيم الأخلاقية الإيجابية والسلبية على حد سواء، فكان معياراً للكرم والبخل والشجاعة والخوف. واتضح من خلال النصوص أن هذه القيم تضفي على أصحابها أبعاداً عميقة، مما يجعلها أوقع في النفوس، كما أن اقترانه بالعناصر الأخرى يكسبها أبعاداً عميقة ودلالات رمزية مؤثرة .

10 – عكس القمرـــ في تجربة الشاعر الجاهلي ـــ الألوان التي تتلون بها نفسية الشاعر ورؤيته الذاتية، فغدا في إطاره النفسي متعدد الألوان والدلالات المتغايرة، لتنسجم مع حالات النفس التي تخفي وراءها مشاعر حقيقية تكمن داخل نفس الشاعر، كالتفاؤل والتشاؤم والخوف. فكانت صورة القمر بذلك خير ممثل لما يجول في خلدات النفس، ومحاولة حقيقية من الشاعر لإثبات ذاته والسيطرة على واقعه، الذي يتمثله بالقمر وعلاقاته مع العناصر الأخرى.

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

الكتاب المقدس، العهد القديم، القاهرة، دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، (د.ت).

الآمدي, أبو القاسم الحسن بن بشر: **المؤتلف والمختلف في أسماء الشعراء**, ط2, بيروت, دار الكتب العلمية,1982 .

إبراهيم، نوال مصطفى: **الليل في الشعر الجاهلي**، ط1، عمان، دار اليازوري العلمية للطباعة والنشر، 2009.

أبو ديب، كمال: **جدلية الخفاء والتجلي**، ط3، بيروت، دار العلم للملايين، 1982.

أبو زيد، علي إبراهيم: **الصورة الفنية في شعر دعبل بن علي الخزاعي**، ط2، القاهرة، دار المعارف, 1983 .

ابن بنين: **اتفاق المباني واختلاف المعاني**، تحقيق: الدكتور يحيى جبر، ط1, عمان، دار عمار، 1985 .

ابن الأثير، عز الدين بن الحسن: **الكامل في التاريخ**، مج1، ط1، بيروت، دار صادر، 1982 .

ابن كثير، أبو الفداء الحافظ الدمشقي: **البداية والنهاية**، ط2، بيروت، مكتبة المعارف، 1977 .

ابن الكلبي، هشام بن محمد: **الأصنام**، تحقيق أحمد زكي، ط1، القاهرة الدار القومية، (د.ت) .

ابن منظور، جمال الدين أبو الفضل: **لسان العرب**، ط3, بيروت، مؤسسة التاريخ العربي، 1993 .

أثرم، رجب عبد الحميد: **دراسات في تاريخ الإغريق وعلاقته بالوطن العربي**، ط1، بنغازي، منشورات جامعة قاريونس، (د.ت).

أجواد، هتون: **الحياة الاجتماعية في شمال غرب الجزيرة العربية**، ط1، الرياض، 1993.

ارمان، أدولف: **ديانة مصر القديمة**، ترجمة:عبد المنعم أبو بكر ومحمد أنور شكري، ط1، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1995.

إسماعيل، حلمي محروس: **الشرق العربي القديم وحضاراته**، ط1، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، 1997 .

الأسود بن يعفر النهشلي: **الديوان**، جمع وتحقيق نوري حمــودي القيســي، ط1, بغــداد, وزارة الثقافة والإعلام، مطبعة الجمهورية، 1970 .

الأصفهاني، أبو الفرج: **الأغاني**، ط1 , بيروت، دار صعب، (د.ت) .

الأصمعي: أبو سعيد عبد الله بن قريب: **الأصمعيات**، تحقيق أحمد شاكر وعبد الســلام هــارون، ط5، القاهرة، دار المعارف, 1979 .

الأعشى, ميمون بن قيس: **شرح الديوان**، تحقيق: كامل ســليمان، ط1، بيــروت، دار الكتــاب اللبناني، (د. ت).

الأقرع بن معاذ القشيري: **حياته وما تبقى من شعره**، جمع وتحقيق: هلال ناجي، مجلة المورد، بغداد، العراق، مجلد7، عدد3، 1978 .

الألوسي، محمود شكري: **بلوغ الأرب في معرفة أحــوال العــرب**، ط1, بيــروت، دار الكتــب العلمية، (د.ت) .

البيديل، م. ف: **سحر الأساطير**، ترجمة حسان ميخائيل اسحق، ط1، دمشق, دار عــلاء الــدين، 2005 .

إمام، عبد الفتاح إمام: **معجم ديانات وأساطير العالم**، المجلد3، ط1، القاهرة، مكتبــة مــدبولي، (د.ت) .

امرؤ القيس: **الديوان**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، القاهرة، دار المعارف، 1958.

أمية بن أبي الصلت: **الديوان**، تحقيق: سجيع جميل الجبيلي، ط1، بيروت، دار صادر، 1998.

اندراوس، عزت: **موسوعة تاريخ أقباط مصر**، ط1، القاهرة، دار الشروق، 1998.

باقر، طه: **مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة**، ج1, ط2، بغداد، شركة الطباعــة والتجــارة، 1955 .

الباش، حسن: **الميثولوجيا الكنعانية والاغتصاب التوراتي**، ط1, دمشق، دار الجليل، 1988.

بدج، والاس: **آلهة المصريين**، ترجمة محمد يونس، ط1, القاهرة، مكتبة مدبولي، 1998.

بدوي، أحمد: **في موكب الشمس**، ط1، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1946 .

البطل، علي عبد المعطي: **الصورة في الشعر العربي حتى نهاية القرن الثاني الهجري (دراسة في أصولها وتطورها)**، ط3، بيروت، دار الأندلس، لبنان، 1983 .

بشر بن أبي خازم: **الديوان**, تحقيق: عزة حسن، ط1, بيروت، دار الشرق العربي, 1995.

تأبط شرّاً: **الديوان،** إعداد وتقديم: طلال حرب، ط1، بيروت، دار صادر، 1996.

التبريزي، أبو زكريا يحيى بن علي الشيباني: **شرح المفضليات**، تحقيق: محمد البجاوي، ط1، القاهرة، دار نهضة مصر، (د. ت).

تسيركين، يولي بركوفيتش: **الحضارة الفينيقية في إسبانيا**، ترجمة يوسف أبي فاضل، ط1، بيروت، جروس برس، 1988.

التميمي، أبو عبيدة معمر بن المثنى :**أيام العرب قبل الإسلام**، جمع وتحقيق :عادل جاسم البياتي، ط1، بيروت، مكتبة النهضة العربية، 1987 .

توكاريف، سيرغي: **الأديان في تاريخ شعوب العالم**، ترجمة أحمد فاضل، ط1, القاهرة, الأهالي للطباعة والنشر، 1998 .

التيفاشي، أبو العباس أحمد بن يوسف: **سرور النفس بمدارك الحواس الخمس**، تحقيق إحسان عباس، ط1، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1980 .

جاد المولى، محمد, وآخرون: **أيام العرب في الجاهلية**، ط2، القاهرة، مطبعة عيسى البابي الحلبي، 1994 .

الجارم، محمد نعمان: **أديان العرب في الجاهلية**, ط1، القاهرة، مطبعة السعادة، 1923.

جبر، يحيى: **التكون التاريخي لاصطلاحات البيئة والفلك**، ط1، نابلس، الدار الوطنية، 1996.

الجبوري، يحيى :**الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه**، ط8, بيروت، مؤسسة الرسالة، 1997.

جران العود النميري: **الديوان**، تحقيق: نوري حمودي القيسي، ط1 بغداد، دار الرشيد، 1982 .

الجندي، علي: **شعر الحرب في العصر الجاهلي**، ط2، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، 1963.

جيدة, عبد الحميد: **مقدمة لقصيدة الغزل العربية**, ط1, بيروت, دار صعب, 1992.

حاتم الطائي: **الديوان**, تحقيق: فوزي عطوي, ط1, بيروت, دار صعب, 1980.

الحاوي، إيليا: **فن الوصف وتطوره في الشعر العربي**، ط2، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1980 .

الحطيئة: **الديوان**، رواية ابن حبيب، ط1، بيروت، المكتبة الثقافية، 1990 .

حسان بن ثابت: **الديوان**، تحقيق: سيد حنفي حسنين، ط1، القاهرة، دار المعارف، (د. ت).

الحوت، محمود سليم: **في طريق الميثولوجيا عند العرب**، ط1، بيروت، مطبعة دار الكتب، 1995

خان، محمد عبد المعيد: **الأساطير العربية قبل الإسلام**، ط1، القاهرة, مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1937.

خفاجي، محمد عبد المنعم: **الشعر الجاهلي**، ط1، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1980.

الخليلي، علي: **مدخل إلى الخرافة العربية**، ط1، نابلس، مطابع الاقتصاد، 1982.

الخنساء: **الديوان**، شرح: ثعلب، أبو العباس أحمد بن يحيى بن سيار الشيباني، تحقيق: أنور أبو سويلم، ط1، عمان، دار عمار، 1988 .

الخنساء وليلى الأخيلية: **ديوان الباكيتين**، شرح: د. يوسف عيد، ط1، بيروت، دار الجيل، 1992 .

الخوارزمي، أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني: **الآثار الباقية عن القرون الخالية**، ط1، بغداد، مكتبة المثنى، (د.ت) .

داود، جرجس: **أديان العرب قبل الإسلام**، ط1، بيروت، المؤسسة الجامعية، 1981 .

الدبس، يوسف: **من تاريخ سوريا الدنيوي والديني**، ط1، دمشق، دار الجليل، 1993 .

دروزة، محمد عزة: **تاريخ الجنس البشري**، ط1، صيدا، المكتبة العصرية، 1960 .

دملخي, إبراهيم: **الألوان نظريا وعلميا**, ط1, حلب, مطبعة اوفست الكندي, 1983 .

دلو، برهان الدين: **جزيرة العرب قبل الإسلام**، ط1، بيروت، دار الفارابي، 1989 .

حضارة مصر والعراق، التاريخ الاقتصادي ـ الاجتماعي ـ الثقافي والسياسي، ط1، بيروت، دار الفارابي، 1989 .

ديشان، هوبير: **الديانات في إفريقيا السوداء**، ترجمة أحمد صادق حمدي ومحمد عبد الله, ط1، القاهرة، دار الكتاب المصري، 1956 .

ديلابورت، ل: **بلاد ما بين النهرين**، ترجمة محرم كمال وعبد المنعم أبو بكر، ط1, القاهرة، المطبعة النموذجية، (د.ت) .

ديورانت، ول : **قصة الحضارة**، ترجمة زكي نجيب محمود، مطبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة، مصر، ط 3، 1965 .

الرباعي، عبد القادر: **الصورة الفنية في شعر أبي تمام**، ط2، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1999 .

الصورة الفنية في شعر زهير بن أبي سلمى، ط1، الرياض، دار العلوم للطباعة والنشر، 1984.

الربيع بن زياد: **شعره**، جمع وتحقيق: عادل جاسم البياتي، مجلة كلية الآداب، عدد14، مج1، جامعة بغداد.

ربيعة بن مقروم الضبي: **شعره**، جمع وتحقيق: نوري حمودي القيسي، مجلة الآداب، جامعة بغداد، عدد11 ، 1968 م .

زايد، عبد الرزاق أبو زيد: **في علم البيان**، ط1، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، 1978.

زكي، أحمد كمال: **الأساطير (دراسة حضارية مقارنة)**، ط2، بيروت، دار العودة، 1979.

زهير بن أبي سلمى: **شرح الديوان**، تحقيق: فخر الدين قباوة، ط1، بيروت، دار الآفاق الجديد، 1982 .

زيد الخيل الطائي: **شعره**، جمع وتحقيق: أحمد مختار البزرة، ط1، بيروت، دار المأمون للتراث، 1988 .

سالم، السيد عبد العزيز: **دراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام**، ط1, الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، (د، ت).

سحيم عبد بني الحسحاس: **الديوان**، تحقيق: عبد العزيز الميمني، ط1, القاهرة، الدار القومية للطباعة والنشر، 1965 .

السنديوني، وفاء فهمي: **شعر قبيلة بني أسد وأخبارها**، ط1، الرياض، دار النشر العلمي والمطابع، 2004 .

السهلي، محمد توفيق، والباش حسن: **المعتقدات الشعبية في التراث العرب**، ط1, دمشق، دار الجليل, (د.ت) .

السواح، فراس: **لغز عشتارالألوهة المؤنثة وأصل الدين والأسطورة**، ط6، دمشـــق, دار عـــلاء الدين، 1996.

مدخل إلى نصوص الشرق القديم، ط1، دمشق، دار علاء الدين، 2006.

موسوعة تاريخ الأديان، ط1, دمشق، دار علاء الدين، (د.ت) .

سوسة، أحمد: **مفصل العرب واليهود في التاريخ**، ط5، بغداد, وزارة الثقافة والإعلام، 1981.

الشرقاوي، عفت: **دروس ونصوص في قضايا الأدب الجـــاهلي**، ط1، بيـــروت, دار النهضـــة العربية، 1979.

الشماخ بن ضرار الذبياني: **الديوان**، شرح وتقديم: قدري مـــايو، ط1، بيـــروت، دار الكتـــاب العربي, 2004 .

الشمس، ماجد عبد الله: **الإله والإنسان وأسرار جنائن بابل**، ط1، دمشـــق، دار عـــلاء الـــدين، 2006.

الشنفرى الأسدي: **الديوان**، جمع وتحقيق وشرح: إميل بديع يعقوب، ط1، بيروت، دار الكتـــاب العربي، 1991 .

الشهرستاني، أبو الفتح محمد عبد الكريم: الملل والنحل، تحقيق عبد العزيز محمد الوكيل، ج3, ط1, القاهر، مؤسسة الحلبي, (د.ت).

الشواف، قاسم: **ديوان الأساطير، سومر وأكاد وآشور، الآلهـــة والبشـــر**، ط1، بيـــروت، دار الساقي، 1997.

الشوري، مصطفى عبد الشافي: **الشعر الجاهلي تفسير أسطوري**، ط1، القاهرة، الشركة العالمية للنشر، 1996.

الشيخ، حسين: **العرب قبل الإسلام**، ط1, الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، 1993.

شيخو، لويس: **شعراء النصرانية قبل الإسلام**، ط4، بيروت، دار المشرق، 1991 .

صالح، عبد العزيز: **الشرق الأدنى القديم**، ج2, ط1, مكتبة الأنجلو، القاهرة، مصر، 2004.

صقر، عبد البديع: **شاعرات العرب**، ط1، بيروت، منشورات المكتب الإسلامي، 1967.

الضامن، حاتم صالح :**قصائد جاهلية نادرة**، ط1، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1983.

الطبرسي، أبو علي الفضل بن الحسن: **مجمع البيان في تفسير القرآن**، ج1, ط1, صيدا، مطبعة العرفان، 1935.

طرفة بن العبد البكري: **الديوان**، شرح الأعلم الشنتمري، تحقيق: درية الخطيب ولطفي الصقال، ط1, دمشق، مطبعة دار الكتاب، 1975 .

عبد البديع لطفي: **التركيب اللغوي للأدب**، ط1، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، 1970 .

عبد الحكيم، شوقي: **الفولكلور والأساطير العربية**، ط1، القاهرة، دار ابن خلدون، (د .ت).

عبد الرحمن، إبراهيم: **الشعر الجاهلي**، قضاياه الفنية والموضوعية، ط1، بيروت، دار النهضة، العربية، 1980 .

عبد الرحمن ,نصرت, **الصورة الفنية في الشعر الجاهلي**, ط2, عمان,مكتبة الأقصى, 1976.

عبد الصبور، صلاح: **قراءة جديدة لشعرنا القديم**، ط1، بيروت، دار النجاح، لبنان، 1973 .

عبيد بن الأبرص: **الديوان**، دار صادر، بيروت، (د .ت) .

العريبي، محمد: **الديانات الوضعية المنقرضة**، ط1، بيروت، دار الفكر اللبناني، 1995 .

العشماوي، محمد زكي: **قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث**، ط1، بيروت, دار النهضة العربية للطباعة, 1984 .

عصفور, جابر: **الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي**, ط1, القاهرة, دار الثقافة, 1974.

العقاد، عباس محمود: **ابن الرومي حياته من شعره**، ط1، المكتبة التجارية، القاهرة، 1950 .

علي، جواد: **تاريخ العرب قيل الإسلام**، بغداد، مطبوعات المجمع العلمي العراقي، (د. ت).

دراسات في تاريخ الجزيرة العربية، ط1، الرياض, مطابع جامعة الملك سعود، 1984.

المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج6، ط3، بيروت، دار العلم للملايين، (د.ت).

علي، رمضان عبده: **حضارة مصر القديمة**، ط1، مطابع المجلس الأعلى للآثار، القاهرة، 2004.

انظر: علي، فاضل عبد الواحد: **عشتار ومأساة تموز**، ط1، دمشق، الأهالي للطباعة, 1999 .

من سومر إلى التوراة، ط2، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، 1998.

علي، محمد عثمان: **شعراء بني أسد إلى نهاية القرن الثالث الهجري**، ط1، بيروت، دار العلم للملايين, 1986 .

عمر، أحمد مختار: **اللغة واللون**، ط2، القاهرة، عالم الكتب، 1979.

عمرو بن أحمر الباهلي: شعره، جمع وتحقيق: حسين عطوان، ط1، دمشق، مجمع اللغة العربية، (د.ت).

عمرو بن قميئة: **الديوان**، تحقيق حسن كامل الصيرفي، مجلة معهد المخطوطات العربية، مطبعة دار الكتاب العربي، القاهرة، عدد11، 1965 .

عمرو بن كلثوم: **الديوان**، جمع وتحقيق وشرح: إميل بديع يعقوب، ط1، بيروت، دار الكتاب العربي، 1991 .

عمرو بن معد يكرب الزبيدي: **الديوان**، تحقيق: مطاع الطرابيشي، ط2، دمشق، مجمع اللغة العربية، 1985.

العنبكي, سعد حسون: **الشعر الجاهلي, دراسة في تأويلاته النفسية والفنية**, ط1, عمان, دار دجلة, 2007 .

عنترة بن شداد: **شرح الديوان**, شرح وتحقيق: عبد المنعم عبد الرؤوف شلبي، ط1, القاهرة، مؤسسة فن الطباعة، (د.ت).

العنتيل، فوزي: **الفلكلور ما هو ؟** ط2، بيروت، دار المسيرة، 1987 .

العويدات، حسين: **الموت في الديانات الشرقية**، ط4, دمشق، الأهالي للطباعة والنشر، 1995.

غيربر: **أساطير الإغريق والرومان**، ترجمة حسني فريز، ط1، عمان، دار الثقافة والفنون، 1976.

غيرستر، جورج: **الصحراء الكبرى**، ترجمة: خيري حماد، ط1، بيروت، المكتب التجاري، 1961.

فهمي، ماهر حسن: **قضايا في الأدب والنقد**، ط1، الدوحة، دار الثقافة، 1986 .

القالي، أبو علي إسماعيل بن القاسم: **الأمالي**، ج1, ط1, بيروت، دار الآفاق الجديدة، 1980.

القتال الكلابي: **الديوان**، تقديم وتحقيق: إحسان عباس، ط1، بيروت، دار الثقافة، 1961.

القرطبي: **الجامع لأحكام القرآن**، ج15, دار الكتاب العربي، بيروت، 1985.

القط، عبد القادر: **في الشعر الإسلامي والأموي**، ط1، بيروت، دار النهضة العربية، 1979.

القمني، سيد: **الأسطورة والتراث**، ط3، القاهرة، المركز المصري لبحوث الحضارة، 1999.

القيسي، نوري حمودي: **دراسات في الشعر الجاهلي**، ط1، بغداد، مطبعة الإرشاد، 1972 .

شعراء إسلاميون، ط2, بيروت، عالم الكتب، 1984.

كريمر، صموئيل نوح: **أساطير العالم القديم**، ط1, القاهرة, الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1974

كعب بن زهير: **الديوان**، تحقيق وتقديم وشرح: علي فاعور، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، 1987.

لابات، رينيه، وآخرون: **سلسلة الأساطير السورية**، ترجمة: مفيد عرنوق، ط2، دمشق، دار علاء الدين، 2006 .

لبيد بن أبي ربيعة: **الديوان**، شرح الطوسي، ط5، بيروت، دار الكتاب العربي، 2004.

الماجدي، خزعل: **الآلهة الكنعانية**، ط1، عمان، أزمنة للنشر والتوزيع، 1999 .

الدين السومري، ط1، عمان، دار الشروق، 1998 .

المعتقدات الكنعانية، ط1، عمان، دار الشروق للنشر والتوزيع، 2001 .

مازيل، جان: **تاريخ الحضارة الفينيقية والكنعانية**، ترجمة ربا الخش، ط1، اللاذقية، دار الحلو, 1998 .

مجموعة من كبار الباحثين: **موسوعة عالم الأديان**، بإشراف ط . ب مفرج, ج2، بيروت, دار nobilis، (د.ت).

محمود، زكي نجيب، **فلسفة وفن**، ط1، القاهرة، مطبعة الانجلو المصرية، 1963.

المرزوقي، أبو علي الأصفهاني: **الأزمنة والأمكنة** ط1، حيدرأباد، الهند، مطبعة مجلس دائرة المعارف، 1332هـ .

مضرس بن ربعي الأسدي: **حياته وشعره**، جمع وتحقيق نوري حمودي القيسي، مجلة المجمع العلمي العراقي، بغداد، مجلد37، عدد1، 1986 .

المطلبي، عبد الجبار، **مواقف في الأدب والنقد**، ط1، بغداد، دار الرشيد، 1980 .

مقداد، عبد الله جبريل: **شعر يهود في الجاهلية وصدر الإسلام**، ط1، عمان، دار عمار، 1999.

مندور، محمد: **النقد المنهجي عند العرب**, ط2، القاهرة، دار نهضة مصر، 1969 .

مهران، محمد بيومي: **بنو إسرائيل**، ج4, ط1, الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، 1999.

تاريخ العراق القديم، ط1, الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، 2008 .

مصر والشرق الأدنى القديم، ط1, دار المعرفة الجامعية، القاهرة، 1999.

الموسوعة اليمنية، ط1، مؤسسة العفيف الثقافية، صنعاء، تنفيذ دار الفكر المعاصر، بيروت، 1992 .

ميغوليفسكي، أ. س: **أسرار الآلهة والديانات**، ط2، دمشق، ترجمة حسن ميخائيل اسحق، دار علاء الدين، 2006م .

النابغة الجعدي: **شعره**، ط1، دمشق، منشورات المكتب الإسلامي، 1964 .

النابغة الذبياني: **الديوان**، تحقيق: كرم البستاني، ط1، بيروت, دار صادر، (د. ت) .

ناصف، مصطفى: **الصورة الأدبية**، ط1، القاهرة، مكتبة مصر, 1958 .

نصر، عاطف جودة: **الخيال مفهوماته ووظائفه**، ط1، القاهرة, الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1984.

النعانعة، إبراهيم: **شعر بني كنانة في الجاهلية وصدر الإسلام**، ، ط1، عمّان، دار جرير، 2007.

شعر غطفان في الجاهلية وصدر الإسلام، ط1، عمان، دار جرير، 2007.

نعمة، حسن: **موسوعة الأديان السماوية والوضعية**، ط1، بيروت, دار الفكر اللبناني، 1994 .

ميثولوجيا وأساطير الشعوب القديمة، دار الفكر اللبناني، بيروت، لبنان، 1994 .

نوفل، سيد: **شعر الطبيعة في الأدب العربي**، ط2، القاهرة، دار المعارف، (د .ت).

نوفل, يوسف: **الصورة الشعرية واستيحاء الألوان**, ط1, القاهرة, دار الاتحاد العربي للطباعة.

النيسابوري، أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري: **الجامع الصحيح**، القاهرة، دار التحرير، 1883هـ (مصورة من طبعة استانبول المحققة المطبوعة عام 1329 هـ) .

نيلسون، ديتلف: **التاريخ العربي القديم**، ترجمة فؤاد حسنين علي، ط1, القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، 1958 .

الهاشمي، طه: **تاريخ الأديان وفلسفتها**. ط1, بيروت، دار مكتبة الحياة، 1963.

هدبة بن الخشرم: **شعره**، جمع وتحقيق: يحيى الجبوري، ط1، دمشق، منشورات وزارة الثقافة، 1986.

الهذليون: **الديوان**، (نسخة مصورة عن دار الكتب المصرية)، القاهرة، الدار القومية للطباعة والنشر، 1965 .

هووك، صموئيل هنري: **منعطف المخيلة البشرية**، ترجمة صبحي حديدي، ط1, اللاذقية، دار الحوار للنشر والتوزيع، (د.ت) .

وافي, محمد: **الأدب اليوناني القديم**، دار المعارف، مصر، 1960 .

وو، فه جاو وآخرون: **تاريخ تطور الفكر الصيني**، ترجمة: عبد العزيز حمدي عبد العزيز، ط1، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، 2004 .

ياكوف، ف. د، وآخرون: **الحضارات القديمة**، ترجمة: نسيم واكيم اليازجي، ط2، دار علاء الدين، دمشق، (د.ت) .

يحيى، أحمد إسماعيل: **الحية في التراث العربي**، ط1، صيدا، المكتبة العصرية، 1997 .

يوسف، اليوسف: **مقالات في الشعر الجاهلي**، ط4، بيروت، دار الحقائق، 1985 .

الدوريات:

بدر، عبد الرحيم: **عن العرب والنجوم**، مجلة التراث العربي، دمشق، سوريا، العدد 7، 1982.

بو عزة، محمد: **الأسطورة والشعر**، مجلة العربي، الكويت، عدد411، 1993.

الديك إحسان: **الهامة والصدى، صدى الروح في الشعر الجاهلي**، مجلة النجاح للأبحاث \ العلوم الإنسانية، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، ع15، السنة: 2001.

الوعل صدى تموز في الشعر الجاهلي، مجلة جامعة القدس المفتوحة، عدد2، 2002.

البئر بوابة العالم السفلي في الشعر الجاهلي، مجلة دراسات الجامعة الأردنية، مجلــد 36، 2009، ص40.

عبد الرحمن، إبراهيم: **التفسير الأسطوري للشعر الجاهلي**، مجلة فصول, القاهرة، مصر، مجلد1، عدد3، 1981 .

عصفور، جابر: **عالم الشاعر الجاهلي**، مجلة العربي، الكويت، عدد 429، 1994 .

علي، جواد: **المدونات العربية لما قبل الإسلام**، مجلة المجمع العلمي العراقي، جزء3، مجلد31، 1980 .

علي، فاضل عبد الواحد: **الشمس والقمر والزهرة في ضوء النصوص السومرية والبابليـــة**، مجلة الأقلام، بغداد, العدد2، 2000 .

فالح، جليل رشيد: **الليل في الشعر الجاهلي**، مجلة آداب الرافدين، جامعة الموصـــل، العــراق، عدد9، 1978.

المطلبي، عبد الجبار: **قصة ثور الوحش وتفسير وجودها في القصيدة الجاهلية**، مجلـــة كليـــة الآداب، بغداد، العراق، ع12، 1969.

ناجي، مجيد عبد الحميد: **الصورة الشعرية**، مجلة الأقلام، عدد8، السنة التاسعة، 1984.

الرسائل الجامعية :

أبو عون، أمل محمود عبد القادر: **اللون وأبعاده في الشعر الجاهلي**, شعراء المعلقات نموذجـــاً (رسالة ماجستير غير منشورة)، بإشراف: جامعة النجاح الوطنية، نابلس، 2003 .

Al-Najah National University
Faculty of Graduate Studies

The moon in Pre-Islamic Poetry

By
Fuad Yousef Ismail Ishtayi

Supervision
D. Ihsan Al-Diek

Submitted in Partial Fulfillment of the Requirements for the Degree of Master of Arts in Arabic Language and literature, Faculty of Graduate Studies, at An-Najah National University, Nablus, Palestine.
2010

The moon in Pre-Islamic Poetry

By
Fuad Yousef Ismail Ishtayi
Supervision
D. Ihsan Al-Diek

Abstract

This research study is about "The Moon in Pre-Islamic Poetry" and consists of an introduction, three chapters and a conclusion. In the introduction I talked about the reasons for choosing this research and the goal that I aimed to reach out of this study. The first chapter is divided into two sections. The first section tackles the religious status that the moon possessed in the old thinking and beliefs of the Sumerians, Babylonians, Assyrians, Phoenicians, Canaanites, Egyptians, Greeks, Indians, Chinese and Jews, to find out that they looked upon it with the reverence, as distinct god which they went to worship, and approached with rituals and offerings. It was linked in their minds with some creatures, especially the bull. in addition to the acquisition of special legendary dimension.

In the second section, I talked about the religious status of the moon in the pre-Islamic era, as I did not find a difference between their view and the look of the nations before them to the moon. However I found so much similarity between them up to the point of compliance, and concluded that the fear of the Moon as a natural phenomenon is variable, and was one of the main reasons for this sanctification, believing that it may please him, and protect them from their expected evil.

It is worth mentioning that my study has chosen to take the legendary approach because, of the almost absolute control of them on the religious beliefs and thinking.

The second chapter dealt with the positioning and role of the moon in Pre-Islamic Poetry, where I found that many poets have invested the Moon in many of the purposes of poetry, such as women and lamentation and praise, satire, and pride, war and animal, in addition to handling most situations that the poet dealt with the moon and its association with these purposes.

I divided the third chapter into two sections. In the first section I studied the image of the moon in the poetry of the pre-Islamic era and found that the poet linked between the moon and images of Moot, metaphors, motor and color, which helped him to impart poetic Masterpieces on an image. I also discovered that the images of the poet were not traditional images, with fixed elements. They were numerous and varied without breaking the general framework of the nature of the image in the Pre-Islamic Poetry.

The second section of this chapter, I talked about the religious dimensions of the image of the moon, psychological, social, and found that the moon has left its linkage of various significant impact on the images associated with these dimensions.

It appears from these dimensions that poets return consciously or unconsciously to be linked in some cases, between those dimensions in some images. Meanings varied and acquired a new significance, as it introduced a new dimension with an new significance and logic.

In conclusion, I included the findings of this study, followed by a list of sources and references, arranged alphabetically.